المنهج العلمي وإحداث النقلة

الدكتور عقيل حسين عقيل

المنهجُ

العلمي وإحداث النُّقلة

تأليف

أ د. عقيل حسين عقيل

القاهرة 2022م

جدول المحتويات

المقدّمة 4
المنهجُ العلمي وإحداث النُّقلة 6
خصائص المنهج العلمي: 29
مرتكزات المنهج العلمي: 30
الطُّرق البحثيّة للمنهج العلمي: 31
الأسلوب: 31
المقرر: 33
الطَّريقة: approach 34
الطَّريقة التَّاريخيَّة 36
التَّاريخ: 36
طريقة المسوح العلميَّة (المسح الاجتماعي): 45
الطريقة التجريبيَّة: 49
طريقة دراسة الحالة: 62
طريقة تحليل المضمون: 71
المنهج العلمي يُحدثُ النُّقلة: 94
منهج النُّقلة يُمكّن من معرفة المجهول: 102
المنهج العلمي يُمكّن من صُنع النُّقلة: 106
منهج النُّقلة يُفطّن الذّاكرة: 119
منهج النُّقلة يُمكّن من بلوغ الغايات: 126

منهج النُّقلة يمكّن من نيل المأمول: 133
منهج النُّقلة يُمكّن من بلوغ الخوارق: 139
منهج النُّقلة يُمكّن من ترسيخ المكانة: 146
منهج النُّقلة يكسر القيد: 152
منهج النُّقلة يُمكِّن من الرِّفعة: 166
صدر للمؤلّف 183
المؤلّفات........................ 184
المؤلّف في سطور 200

المقدّمة

المنهج العلمي وإحداث النُّقلة: مؤلَّفٌ يأملُ أنْ يُسهِمَ في كسر قيد المناهج، التي قولبتْ عقول كثيرٍ من المتعلِّمين، وجعلتهم مجرَّد تابعين لسابقين، وكأنَّ العلم والبحث العلمي توقَّف هناك.

فالمنهج العلمي هو الذي يَقلِب رؤيّة المتعلّم أو الباحث من أنَّه مركز العالم بما بلغه من علم ومعرفة، إلى أنَّه نقطة صغيرة تكاد أن تندثر وتختفي لولا البحث العلمي الذي لا يُسلِّم إلَّا بعلمِ يقين، له من المصادر والوثائق والمخطوطات ما له، أو أنَّه منزّلٌ تنزيلًا؛ بيّنة وحُجَّة.

وفوق ذلك لا يَقف البحث العلمي ويُقصر عند المنزّل والمخطوط والموثَّق، بل ينطلق منها إيمانًا ومعرفة إلى معرفة المزيد؛ مصداقًا لقوله تعالى: {وَمَا أُوتِيتُمْ مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا}[1]، ومن ثمَّ وجب ترسيخ الحُجَّة بدلائل قابلة للمشاهدة، حتى تكون الحُجّة عين يقين.

ومع أنَّ أبواب العلم والبحث العلمي مفتَّحة على مصارعها لكلّ من يريد أو يرغب أن يبحث ويعرف، فإنَّ أمر البحث العلمي له من المعطيات والقواعد المنهجيَّة ما يُمكّن من التحدِّي وإحداث النُّقلة، وفي المقابل الإغفال عنها لا يُمكّن إلَّا من التأخُّر والتخلُّف والتبعيّة للغير.

ولذا فمعايشة العلم وممارسة البحث العلمي، والأخذ بالتجارب ونتائجها؛ يعدُّ حقّ يقين، وهو أعظم منزلة في منازل البحث العلمي، التي تُمكِّن من إحداث النُّقلة وبلوغ الخوارق.

---

[1] الإسراء: 85.

ولهذا ارتأينا أنْ نستفزّ عقول البحَّاث بموضوعيّة لعلّها تحفّزهم على ثورةٍ تجعل من السّكون العقلي لديهم حركة متحديّة لكلّ الصِّعاب، التي أخَّرتهم عن معرفة مناهج وسُبل وأساليب المزيد المعرفي الممكِّن من معرفة التغيير، وصناعة المستقبل الآمن، والمشبع للحاجات المتطوّرة، والمتغيّرة، والمتنوّعة مع احترام قيمة الإنسان الذي خلقه الله تعالى في أحسن تقويم.

ولقد ميَّزنا في مؤلّفنا هذا بين المنهج؛ كونه فكرًا وتدبُّرًا عقليًّا، والطريقة كونها لا تتبع إلّا بخطوات محسوبة من قبل البحَّاث، والأسلوب الذي يلتصق بالباحث وإن تأثر بالمنهج، أمَّا المقرر فهو مجموع المفردات العلميَّة التي خضعت للصوغ المنهجي، مع إيضاح أهميّة كل منها في سياق توظيف العلوم والمعارف والتّجارب.

والحمد لله ربّ العالمين.

أ د. عقيل حسين عقيل

القاهرة

2022م

المنهجُ العلمي وإحداث النُّقلة

المنهج كيفيَّة ذهنيَّة به يتم تقصّي المعلومة بالمعلومة، وتقصي المؤثّر بأثره، وتقصّي الحُجَّة بالحجَّة؛ وهو نَظمٌ فكري في نَسقٍ ضبطي يتمركز على الفرضيَّات في حالة ما إذا توافر جزءٌ من المعلومات وغابت أخرى، ويتمركز على التساؤلات في حالة ما إذا غابت كل المعلومات عن المستهدف بالبحث والمعرفة.

ومع أنَّ المنهج عملية ذهنيَّة منضبطة السياقات فإنِّ الحيرة بعظمة أهميَّتها وضرورتها تقلقه بداية حتى بلوغ النتائج المحققة للرضا، وكسر الوهم الذي كان حيويَّة للمحيّر.

المنهج العلمي تأطير للفكرة وفقًا لمعايير ومقاييس تضع المنهج موضع التقييم والاختبار من خلال النتائج المتوصَّل إليها، ومن ثمَّ فالمنهج ليس الطريقة كما يظن البعض أو يرى؛ ذلك لأنَّ المنهج نظري، أمَّا الطريقة فإجراءٌ عملي: (خطوات تتبع، ولا تصدر أحكامها إلَّا عن مشاهدة تخضع المبحوث إلى المثول أمام الباحث، مع إحصاء المتنوّع والمتراكم وفقًا للمتغيّرات البحثيَّة).

ولهذا؛ فللمنهج مجموعة من القواعد العلميَّة والمنطقيَّة بها يتمكّن الباحث من تفكيك المعلومات وتركيبها وربطها بموضوعيَّة، وبه تُنسجُ الأفكار وتُعرض التصورات المجسدة لها في السُّلوك والفعل.

ويتم استنباط المنهج من المقروء والمسموع دون أن ينفصل عنه، فالمنهج هو: مجموع الأفكار التي بها يتم تعلم الكيفيَّة التي عليها الأمر أو التي سيؤول الأمر إليها بحثًا وعلمًا ومعرفة، وبالمنهج يتم التمكّن من معرفة الآتي:

ـ كيف نتعلَّم؟

. كيف نبحث؟

. كيف نصوغ لِما نبحث فروضًا؟

. كيف نصوغ لما نبحث تساؤلاتٍ؟

. كيف نسأل، وكيف نتساءل؟

. كيف نُفكِّر ونتدبَّر؟

. كيف نَنظم أفكارنا موضوعيّا، وكيف نَنظمها بالمعلومات تجاه إنجاز الأهداف وبلوغ الغايات؟

. كيف نتابع قضيَّة علميَّة ونتمكن من تفكيك عناصرها وكشف خفاياها؟

. كيف نركِّب ما تم تفكيكه على قواعد قابلة للقياس والتقييم والتقويم؟

. كيف نحلل المتغيّرات المحمولة في المعلومات البحثيَّة؟

. كيف نشخِّصُ الحالة قيد البحث وفقًا للمعلومات التي تم تحليلها؟

. كيف نتمكَّن من بلوغ النتائج بموضوعيَّة؟

. كيف نستنتج مما نكتب حلولًا ومعالجات؟

. كيف نفسِّر النتائج؟

. كيف نكتب التقرير؟

. كيف نعمل ونتحدَّى الصِّعاب؟

. كيف نتطوَّر ونُطوِّر؟

ـ كيف نُحدث النُّقلة؟

ولذا؛ فالمنهج بناء فكري على أسُسه تبنى النظريّات وتترابط وتُصاغ، وبه يتم إظهار المتغيّرات الصريحة والضمنيّة وتُستكشف العلاقات بين المستقل منها والتابع والمتداخل، ومنه تُستمد الطُّرق التي تُنتهج من أجل تحقيق الأهداف العلميَّة.

إذن: المنهج تتبع فكري واعٍ به تتّزن المعلومة حتى تأخذ مكانها الذي يليق بها بين المعلومات السَّابقة لها والمعلومات اللاحقة عليها، وبه يتم استكشاف الاتجاه السَّالب والاتجاه الموجب، وإظهار الكيفيَّة التي يتم بها الإصلاح بفعاليَّة.

بالمنهج تتَّضح الرُّؤية، عمّا هو كائن وعمّا يجب أن يكون، مع تقديم بدائل وفقًا لكل أولويَّة، ولكل تداخل وتتابع في الفكرة والكلمة والجملة والنص أو الخطاب.

والمنهج لا يستقل عن النّص بأيِّ حال من الأحوال؛ ولهذا لا يمكن كتابة المنهج فالمنهج لا يُكتب ولكن يكتب عنه، مثلما نفعل الآن نكتب عن المنهج لنُعرِّفَ به الآخرين مثلما عرفنا نحن مما قرأنا من غيرنا.

المنهج لا يمكن أن يستقل بذاته عن غيره نظريَّة أو نصًّا أو خطابًا؛ ولذا مع أنّ المنهج لا يُكتب، فإنَّه يُكتب عنه.

به تُستبين المسارات الفكريَّة والاتجاهات المحمولة فيها، إنَّه الكيفيَّة التي بها تتم صياغة الموضوع وكيفيّة تقديمه للقرّاء والمستمعين أو المتعلمين؛ حتى يتمكّنوا من استنباطه ومعرفته عن كثبٍ، وهكذا يتم إدراك المنهج استقراءً واستنباطًا بما يُكتب به وبما يُكتب عنه.

ويكون المنهج متينًا بقوّة ترابط أفكاره وبناء قواعده، ويكون ضعيفًا بتفكك أفكاره وبنيان قواعده؛ فالمنهج يمد المفكرين والباحثين بما يُمكِّنهم من استقراء الفكرة وما تدل عليه وما تحمله من متوقَّع وغير متوقَّع سواء أكان سالبًا أم موجبًا، ويمدهم بكيفيّة التمسّك بما هو موجب والحياد عمّا هو سالب.

إنَّه ناظم المعلومة في الفكرة، وناظم الفكرة بالمعلومة، وناقلها بها إلى الطريقة المترجمة له في كل خطوة من خطواتها في الفعل والسُّلوك.

المنهج هو الكيفيَّة التي يتم بها توليد الفكرة من الفكرة، وتوليد الحُجَّة من الحُجة، من أجل رؤية المستقبل والتطلّع له قبل وصوله، وهكذا يكون المنهج من أجل التطوُّر والتقدُّم إلى ما هو أفضل وأجود وأنفع.

وبما أنَّ بالمنهج تُفكك المعلومة وتُركَّب، إذن: هو الذي به يتم الانتقال من الكل إلى الجزء ومن بعده يتم الانتقال إلى المتجزئ، وبناء على هذه القاعدة كان جدل هيجل، وشكّ ديكارت من أجل معرفة الحقيقة الكامنة في الكلِّ، والحقيقة الكامنة في الجزء، والحقيقة الكامنة في المتجزئ، وعليه أصبح البحّاث يمتدّون في تقصيهم المعرفي من كلٍّ إلى جزءٍ إلى متجزئ منه، وحسب خصوصيَّة كل موضوع، وكذلك منهم من يمتد في بحثه بداية من المتجزئ إلى الجزءِ ومن ثم إلى الكلِّ.

ولذا فالمنهج إتقان فكري يَنظِمُ المعلومات المتفرّقة في نسجٍ معرفي في فسيفساءِ نَظْمِهِ حُجَّة بحجّة، وفكرة بفكرة، تفرز العلّة من المعلول تفكيكًا وتركيبًا وفقًا للمتغيّرات أثرًا وسببًا، فتُكسر الحيرة والوهم بنتائج قابلة للقياس والتوظيف.

أمَّا حُجج المنهج العلمي فهي المعلومات الموثوقُ من مصادرها، والملاحظات والمشاهدات العينيّة بأدلة لا وهم فيها، والمعايشة مع التجربة المعمليّة أو الميدانيّة.

ولهذا فالمنهج لم يعد كما يظن الواهمون قالبًا ثابتًا لصهر الأفكار مثل القوالب التي تُصهر فيها المعادن تحت درجات حرارة عالية، بل أصبح المنهج قواعد معيارية يُمكن أن تقاس به الأقوال والأفعال والسُّلوكيَّات، وتحدّد على ضوئه الاتجاهات وتستقرأ نتائجها المستقبليَّة مما يجعل البحَّاث يرسمون لها الخطط في دائرة الممكن (المتوقَّع وغير المتوقَّع)؛ ولهذا فالمناهج التي تنتظر أن يصاب المجتمع بالمشاكل والأمراض لكي تجد مواضيع لتبحث فيها، فهذه المناهج اجترارية، فهي كمن يَلُكُّ العِلكة أكثر من مرّة، ولا تُمكِّن الباحث من توليد الفكرة من الفكرة، والمعلومة من المعلومة، والأحدث من الحديث، والأجد من الجديد، والأنفع من النافع؛ فالمناهج التي تُمكّن من كل هذا هي التي تجعل المجتمع بأسره في حالة حركة متجدّدة، وفي حالة تسابق ومنافسة وتطلّع من أجل بلوغ أمانيه وغاياته بكل شفافيَّة، مع أخذ الحيطة والحذر من كل انتكاسة ومن كلِّ وهمٍ.

ولأنَّ البحوث تختلف باختلاف مواضيعها، ودرجة اهتمام الباحثين أو المجتمع بها؛ فهي تتطلَّب مناهج علميَّة مرنة تُمكِّن الباحثين من الوصول إلى أهدافهم العلميَّة بأقصر الطّرق، وأقل التكاليف، وتقدّم الموضوع بخطوات يمكن مراجعتها والتأكد منها، ومع ذلك لم تكن المناهج قوالب جاهزة كما يعتقد الواهمون، بل ذات الأساليب المتنوِّعة والمتعدّدة؛ ولهذا لا داعي إلى فرضها على الآخرين نتيجة خصوصيَّاتهم وخصوصيَّات مواضيعهم، التي تتطلَّب أساليب مرنة

تراعي خصوصيَّاتهم الثقافيَّة والتعليميَّة والدّينيَّة والعرفيَّة في أثناء تجميع المعلومات، وتحليلها، وتشخيص حالتهم، واستخلاص النتائج منها ثمّ تفسيرها.

والمنهج الموضوعي هو المنهج المفتوح غير المقفل، فالمناهج المقفلة مناهج واهمة، تتقيد بالتكرار الذي لا يفتح آفاق التعلّم واكتساب الخبرة أمام منتهجيه، أمَّا عندما تكون المناهج مفتوحة ومقنّنة فإنَّها تكون مناهج استيعابيَّة، تستوعب تطلّعات الباحثين وشطحاتهم، مما يجعل بحوثهم إبداعيّة، ومنها يأتي الجديد.

وكما أنَّ لكل فرد منهجًا خاصًّا به في حياته العادية يسير عليه سلوكًا وأسلوبًا في تعامله مع الآخرين، ويتميّز به عنهم، كذلك الباحث ينبغي أن يكون له منهجٌ يصطبغ بخصوصيَّة موضوعه.

وعليه: ينبغي أن يهتم الباحث بالمنهج الذي يستوعب شطحاته التي منها قد يأتي الإبداع، وكثيرًا ما يصف الواهم إبداع المبدع في البداية بأنَّه شطحات، ويكون في النهاية إضافة علميَّة جديدة، مما يبطل آراء البعض المنادين بالتقيد ببعض الاتجاهات المنهجيَّة التي لا تنتج إلّا التكرار، وتبث الملل في نفوس الباحثين.

المنهج مع أنَّه يَنْظِمُ المعلومات تحليلًا وتعليلًا فإنَّه قد لا يكون فعَّالًا، أي: يمكن أن يتبع الباحث خطوات البحث العلمي بكل دقة، ولكنَّه قد يكون مقفلًا على تعاليم سابقة وغير قادرٍ على الخروج عنها بما يُمكِّنه من أن يكون مبدعًا.

إنَّ اقتصار التفكير العلمي على ما تسمح به اللوائح والقوانين الوضعيَّة، هو تفكير تحت قيد الأوهام فلا يحقّق الإبداع، ولا يرتقي بالمبدعين، فالذي يرتقي بالمبدعين هو ألَّا يُحدَّ من تفكيرهم بسقفٍ يقفون عنده أو دونه؛ لتكون آفاق

الخيال العلمي مفتوحة أمامهم، وهكذا من الواقع والخيال والحدس يصل العقل المبدع إلى الجديد المفيد.

المنهج العلمي يرتبط بالموضوع، ولا يحيد عنه؛ ولذا فالموضوع هو الذي يحدّد المنهج المناسب للبحث أو لدراسته؛ ولهذا لا يمكن أن يكون المنهج سابقًا على الموضوع، فلولا الموضوع ما كان المنهج، ولولا المنهج ما سُبرت أغوار الموضوع وكُشفت أسراره؛ ولهذا نقول:

(لكلِّ موضوع منهج خاصٌّ به، فلا داعي لتسويق المناهج الجاهزة التي تُسهم في خلق التُّبع ولا تُسهم في خلق المبدعين).

وعليه:

بالمنهج نستطيع أخذ العبر من الماضي، ونستوعب الحاضر الجميل من أجل المستقبل الأكثر أهميَّة وجمالًا، ولكيلا تكون المناهج تكرارًا مملًّا نتيجة اقتصارها على الجاهز فقط ينبغي أن تكون مناهج تطلّعيَّة تفتح آفاق الإبداع أمام البحَّاث في جميع مجالات العلوم وميادينها الواسعة؛ وذلك باستيعابها تطلّعات المجتمع وأمانيه المرجوة[2].

ولذا فالمنهج يربط العلاقة بين العقل وما يفكّر فيه أو يبحث عنه، وبه تحدد المواضيع وتسبر أغوارها عللًا وأسبابًا وتحليلًا وتشخيصًا ونتيجة أو استنتاجًا، ويتضح الفن المنهجي لدى الباحث عندما يتمكّن من ضبط قدراته العقليَّة مع الموضوع قيد البحث أو الدراسة؛ لأنَّ المناهج هي المفاتيح التي تُدخل الباحث إلى

[2] عقيل حسين عقيل، القواعد المنهجيّة للباحث الاجتماعي والقانوني، المصريّة للطباعة والنشر، القاهرة: 2020م، ص 34.

الموضوع وتمكّنه من التعرف عليه وكشف أسراره وخفاياه، وتدخل المتعلّمين للكتب وتمكّنهم من الخروج منها معرفة ودراية، وبهذا تنتهي المناهج التي تُدخل المتعلّمين للكتب ولا تعلمهم كيف يخرجون منها. وبذلك المنهج هو الذي يُمكِّن من اكتشاف الأثر سواء أكان أثرًا ماديًّا أم فكريًّا.

إنَّ المناهج التي تنتظر أن يصاب المجتمع بالمشاكل والأمراض لكي تجد مواضيع للبحث والدراسة هي مناهج واهمة وقوالب جاهزة لا تضيف الجديد؛ ولذا ينبغي أن تكون المناهجُ تطلّعيَّة؛ لكي تكون سباقة لتحقيق أماني المجتمع وواقية له من التخلّف والمرض، ودافعة به إلى التقدُّم والرّقي، مع أخذ الحيطة والحذر من الانتكاس.

ولهذا لا ينبغي أن تقف المناهج عند الذي كان، أو عند ما هو كائن، بل يجب أن تتطلَّع إلى ما هو ممكنٌ (متوقَّع وغير متوقَّع) من أجل المستقبل الأفضل.

المنهج العلمي هو الذي يُمكِّن من إحداث النُّقلة التي بها يُصنع المستقبل؛ ولهذا ينبغي للباحث ألا يستهين بالزَّمان، ولكيلا يستهين بالزَّمان عليه أن يُعطي قيمة له، وإن لم يفعل ذلك يجد نفسه قد أسهم في ضياعه وضياع مستقبله ومستقبل أبنائه من بعده.

وعليه: فإنَّ الزّمن مخيف وإن لم نخفه قد نفاجئ في مستقبل منه، ممَّا يُحفِّز الباحثين لأن يصوغوا له الفروض والتساؤلات العلميَّة بموضوعيَّة؛ ولهذا فهم يبحثون دون توقّف عند حدود الماضي والحاضر؛ وذلك لمعرفتهم بأنّ المستقبل سيأتي بالقوَّة شئنا أم أبينا، فإنّ لم نعد له العدة قد ننهزم في مواجهاته.

وبما أنَّنا نعرف أنَّه سيأتي بالقوَّة، إذن: لماذا لا نبحث عنه؟ ولهذا يجب أن نتعلّم من أجل المستقبل الذي لم نعرف مضمونه، مع أنَّنا نعرف أنَّه سيأتي إن لم تقم السَّاعة؛ ولهذا فنحن الذين أسلمنا وجوهنا لله تعالى، نصلّي، ونصوم، ونحج، ونزكّي، وكذلك نعمل، ونتزوج، ونُأمِّن على ممتلكاتنا، ونأكل ونشرب، ونتعلّم، ونبحث، ونفكّر ونتذكّر ونعتبر، كل ذلك من أجل المستقبل، ولم يكن من أجل الماضي والحاضر.

وقد يتساءل آخر:

ـ وما الحكمة من كلِّ ذلك؟

لأنَّنا نجهل المستقبل، ولا نثق فيه، كما لا نثق في الماضي والحاضر؛ لأنَّ الماضي تركنا دون أن يأسف علينا، ولا على الماضيين، وكذلك الحاضر مصرٌّ على ذلك بتنازله عنَّا ثانية بثانية، ولا يود الاستمرار معنا؛ ولهذا انعدمت الثّقة في الزَّمنين (الماضي والحاضر)، مما يجعلنا لا نقصر تفكيرنا عليهما إلَّا لأخذ العبر والقدوة الحسنة؛ ولذا فنحن نفكر في غيرهما، ولا غير لهما إلَّا المستقبل مع أنَّه شقيقهما الذي قد يغدر بنا إذا لم نحتط من غدره، وعليه: لا ثقة في الزَّمن على الإطلاق، الثّقة في العمل دون سواه، ومن لا يعي بأهميّة ذلك سيكون واهمًا مع الواهمين؛ ولهذا ينبغي أن نعمل دون تردّد، نبحث، نتعلّم، نتعرَّف، ونصحّح أخطاءنا أوَّلا بأوَّل، ونتطلَّع إلى حياة المستقبل، ونعمل على صناعته دون توقف، ومن يتوقّف قليلًا لا شكَّ أنَّه سيتأخّر كثيرًا، فلا داعي للتوقّف ولو لبرهة.

والمناهج العلميَّة هي المناهج التحسينية التي لا تقف عند قبول الواقع فقط، بل تعمل على تحسينه إلى ما ينبغي أن يكون عليه؛ حتى لا تكون بمرور الزَّمن

جامدة لا مرونة فيها، وتصبح هرمة لا حيوية لها، متكئة على عصا لا غاية من ورائها إلَّا إثبات عدم قدرة من يتكئ عليها، فهي لم تكن عصا موسى عليه الصَّلاة والسَّلام التي جاءت حقيقة ولقفت أوهام السّحرة الواهمين.

للباحث العلمي أساليب فنية تربط المنهج بالطريقة البحثيَّة المتوافقة مع الموضوع قيد البحث والدّراسة، مما يجعل للمنهج المتقصّي للحقائق عناصر التشويق التي تُحفِّز القراء على البحث، وتُمكِّنهم من التعرّف على أسراره وخفاياه وكنوزه الثمينة؛ ولهذا لم تكن المناهج قوالب ثابتة تستوجب التقيد بها كما يعتقد الواهمون، بل لها من الأساليب المتنوِّعة التي بها تتنوعّ البحوث وتتزين بموضوعيَّة.

وعليه: فإن المنهج فكر للعمليَّة الشَّاملة التي بها تحلّل المعلومات والمعارف والقضايا والعلوم والأفكار، وهذه العمليَّة هي التي تُمكِّن طرق البحث من بلوغ النتائج؛ فالطريقة التجريبيَّة لن تنجز أهدافها إلَّا بكشف العلائق الدالة على حلقات الترابط بتحليل الظَّاهر والكامن أو الصريح والضمني، وهكذا الطريقة التَّاريخيَّة وطريقة المسح الاجتماعي لن تتما كطريقتين بحثيتين إلا بالمنهج التحليلي.

لذا؛ إنْ حُددَ المنهج من قبل الباحث لا بدَّ وأن تكون من ورائه فلسفة، وتتَّضح فلسفة المنهج بالإجابة عن السُّؤال: لماذا يختلف البحَّاث، أو يتفقون في التعرّف على الموضوع الواحد؟ وكيف[3]؟

بشكلٍ عام يختلف البحَّاث ويتفقون حسب المواضيع والفلسفات والأهداف المرجوة من كل باحث، وكذلك الأغراض والغايات التي من ورائها، والإطار المرجعي لكل منهم أيضًا.

[3] المصدر السابق، ص 41.

أمَّا بشكل خاصّ فلكلٍّ شِرعة ومنهاجًا، أي: إنَّ المنهج هو المتغيّر الرّئيس في التباين بين الباحثين؛ فمنهم من تُنْظم فرضيَّاته وتساؤلاته وأفكاره على قواعد، ومنهم من يتخلّى عنها أو عن بعض منها؛ ولهذا لا يستوون في علاقاتهم البحثيَّة مع الموضوعيَّة التي تسنها الأخلاق المهنيَّة والحرفيَّة والعلميَّة.

ومن ثمَّ تستمد فلسفة المنهج من فلسفة الموضوع، فيُصبغ المنهج بفلسفة الموضوع كما تُصبغ الأشياء بالألوان، مما يجعل وحدة بينهما لدرجة تصعب علينا الفصل بينهما؛ فالورقة الخضراء من أيّة شجرة إذا غمرناها مثلًا في محلول كيميائي قد يتغيَّر لونها الأخضر إلى لون سماوي أو برتقالي، أو أيّ لون آخر طبيعي كما تحوَّل لون مايكل جاكسون من اللون الأسمر إلى اللون الأشقر فأصبح موضوعًا بلا منهج؛ لأنَّه فقد فلسفة وجوده باللون الأسمر الذي ارتضاه الله له، حتى وإن كانت له فلسفة من وراء تغيير لونه.

وإذا غمرنا قميصًا ورديًّا في محلول كيماوي فإنَّه سيفقد لونه الذي أصطبغ به، والذي ميّزه عن غيره من ألوان القمصان، وعندما تزال الألوان عن أوصولها تصبح كالمواضيع بلا منهج؛ لأنَّ المنهج هو الطّابع المميز للموضوع من خلال وسيلة إبرازه علميًّا، وكذلك السُّبل الفنية التي تتبع من قبل الباحث في أثناء تجميع المعلومات والبيانات وانتظامها تحليلًا وتعليلًا واستنتاجًا وتفسيرًا؛ والبحث الذي لا يؤسّس على المنهج الموضوعي لا يزيد عن كونه مجهودًا وهميًا أو مشروعًا ارتجاليًّا لا يمكن الاحتكام به ولا الاحتكام إليه.

فالمنهج هو الذي به نتعلّم كيف نتعلَّم، والمنهج الذي يعلّمنا كيف نتعلّم هو الذي يُمكِّن من المعرفة الواعية، والمناهج المخالفة لذلك هي المناهج الإعلاميّة

الإبلاغيّة؛ ولذا فالفرق كبير بين المناهج التي تُعلّمنا كيف نتعلَّم، والمناهج التي تُبلغنا أو تُعلِمُنا بما عَلِمت به، فالأولى: تُفسِح الطريق أو المجال أمامنا بما يظهر إبداعاتنا العلميَّة، والثانية: تُفسِح الطريق أمامنا بما يجعلنا نردد ما تم إعلامنا أو إبلاغنا به، ولا تُحفِّزنا على سواه.

المنهج العلمي هو الذي يُمكِّن الباحث من كشف العلاقات بين المتغيّرات والعلل والأسباب مع المقارنة لأجل التفصيل والتدقيق والتقصّي الواعي بموضوعيَّة، مما يؤدّي إلى معرفة العلاقات بين الكل والجزء والمتجزئ، وأثر كل منها على الآخر وفقًا لمتغيّرات البحث المستقلة والتابعة والمتداخلة والدخيلة.

وعليه:

لكي تكون مناهج البحث العلمي مبدعة ينبغي أن تتحرر من طرقها الوهميَّة وأساليبها التسليميَّة والسرديَّة التي لا تمكّن من استيعاب الخصوصيَّة الزّمانيّة والمكانيَّة والظرفيّة والقانونيَّة.

إنَّ انتقادنا للمناهج التسليميَّة؛ لأنَّنا نريدها أن ترتقي إلى استيعاب المستقبل الأفضل الذي يأمله النَّاس، ويكفيها القصور عند الماضي أو الحاضر فقط، وهذا لا يعني إنَّها تنفصل عن ميز الماضي ومميزات الحاضر الجميل، بل يعني: أن تَستمد القوَّة منهما لبلوغ ما هو أقوى وأعظم وأهم؛ ولهذا التسليم بكل ما يُكتب، أو يُقال لا يعد ميزة، بل يُعدّ عيبًا إن لم يتم التفحُّص بعد شكٍّ بغرض اليقين؛ ولذا لا تسليم إلّا بمسلمات يدركها العقل الواعي وتثبتها التجارب الاجتماعيَّة، أو المعمليَّة المختبريَّة، ولا تسليم إلا لمطلق، ولا مطلق إلّا من عند الله

عزَّ وجلَّ، وبما أنَّنا نعترف أن البشر غير معصومين من الخطأ، فلماذا إذن: لا نشكّ في آرائهم إلى أن نتبين أنَّه الحقّ اليقين؟

وعندما ينتقل تفكير المعلم والمتعلِّم من الانتظار إلى الامتداد في دائرة الممكن المتوقَّع وغير المتوقّع - أي عندما لا يقف المعلم والمتعلّم عند حد المعلومات التي استقبلوها أو تعلموها- عندها لا تتوقّف قدراتهم واستعداداتهم عن الاستيعاب بل تنطلق إلى طلب المزيد المفيد؛ لأنَّ التفكير العلمي تفحصي واستبياني استيضاحي استنتاجي، يربط العلاقات بين المتغيّرات، ويتوقّع معلومات أخرى قد تقع في أيّ لحظة من لحظات الزّمن، وفي أيّ مكان على الكرة الأرضيّة[4].

والمناهج العلميَّة هي التي تبني الثّقة في المعلم والمتعلم، وتحررهما من التبعيَّة وهمومها التي تطمس شخصيّة كلّ منهما وهمًا.

والمناهج العلميَّة استفساريّة تساؤليّة؛ وذلك عندما تستفز القارئ والمتعلم علميًّا، وتحفزهما على الاطلاع والتساؤل، وتشوقهما إلى المعرفة الواعية التي لا تجعل من العلم طلاسم أمام البحث والنقاش والحوار والجدل بالتي هي أحسن؛ ولهذا لا يمكن أن يحس المعلم بالتعالي ولا يحس المتعلم بالغربة، وتنتهي النظرة التلقينيَّة التي تجعل المعلم طرفًا موجبًا، والمتعلّم طرفًا سالبًا، والمعلم مُرسل للمعلومات، والمتعلم مستقبل لها، ويصبح التعليم متحرّرًا من القيود، وفيه تتساوى كفتا الميزان بين المعلّم والمتعلّم، فمع أنَّ العمليَّة التعليميّة يقودها المعلّم فإنَّ المستهدف بالتعلّم هو المتعلّم مما يستوجب مشاركته وعدم تغييبه.

[4] المصدر السابق، ص 53.

ولهذا يجب أن تبدأ المناهج مع المبحوثين والمتعلمين من حيث هم؛ لكي تندفع بهم إلى ما ينبغي أن يكونوا عليه، وذلك باستيعاب أحوالهم الاجتماعيَّة والاقتصاديَّة والسياسيَّة والدِّينيَّة والثقافيَّة، بمعرفة المستويات التي هم عليها؛ لتكون البداية منها كواقع اجتماعي وإنساني، مع مراعاة الفرق في القدرات، والاستعدادات بين الأفراد والجماعات والمجتمعات؛ ذلك لأنَّ البداية مع النَّاس أو المتعلمين من حيث هم تحليلًا وتشخيصًا تُمكِّنهم من استيعاب الرِّسالة الموجهة إليهم.

والمنهج يُعدّ هو الوعي بالموضوع من خلال الوعي بفلسفته والخطوات التي تُتبع من أجل اكتماله وتبيانه، فإذا سألنا سائلٌ:

أيّهما أسرع حركة الجسم الأثقل أم الجسم الأخف؟ فإذا أجبناه إجابة عابرة كما سألنا عابرًا نقول: الجسم الأخف أسرع حركة من الجسم الأثقل، ولكن هل نحن على وعيٍ عندما أجبنا بأنَّه الأخف؟ لكي نكون واعين بإجابتنا علينا أن نطرح الأسئلة الآتية، ونحاول الإجابة عنها.

. هل تتأثَّر حركة الأجسام بحجمها أم لا تتأثر؟ أي: هل تستوي سرعة جسم يزن 145 كيلو غرامًا مع سرعة جسم يزن 75 كيلو غرامًا في مضمار كرة القدم؟

. هل تتأثر حركة الأجسام بالمسافة أم لا تتأثر؟ أي: هل تكون سرعة الجسم واحدة إذا قطع في المرة الأولى مسافة 200 متر، وفي المرة الثانية 2000 متر؟

. هل الاتجاهات تؤثّر على حركة الأجسام؟ أي: هل الحركة إلى الأمام تساوي الحركة إلى الخلف؟

. وهل الحركة من أسفل إلى أعلى تساوي حركة الجسم وسرعته من أعلى إلى أسفل؟

. هل الزّمن يؤثّر على حركة الأجسام؟

. هل الذي قضى من الزّمن 80 عامًا يكون مساويًا لمن لم يقض إلّا 25 عامًا في سرعة حركته؟

. هل اختلاف زمن السّباق للمتساوين في السّرعة لا يؤثّر في المسافة المستهدفة بالمرور؟

. ألا تتأثر حركة الأجسام بنوعيّة الأرضيّة التي يتحرك عليها؟ أي: هل الحركة على الأرض الرمليّة تساوي الحركة على الأرض الممهدة بالفلّين؟

. هل المناخ يؤثّر على الحركة؟ أي: هل الحركة في اتجاه الريح تساوي الحركة التي في مواجهتها؟

. ألا يكون للحرارة تأثير على الحركة والمتحرك؟

. هل للثقل أثر على الحركة؟ أي: هل كلّما زاد ثقل الجسم قلت سرعته الحركيّة؟

. ألا يكون شكل الجسم يؤثّر على حركته؟ أي: أيهما يسقط أوّلًا كرة دائريّة الشّكل وتزن كيلو جرامًا، أم مظلة دائريّة الشّكل وتزن 3 كيلو جرامات؟[5]

كل الأسئلة السَّابقة تحمل إجاباتها في مضامينها، نتيجة منهج التوليد الذي يحدّد متغيّراتها والعلاقات المتكوِّنة بينهما وتأثيراتها الموجبة والسَّالبة، وعناصر الإثبات والنفي المحمولة فيها؛ ولذا فطريقة عرض هذه الأسئلة تعبر عن وجود منهج من ورائه حكمة؛ ويكون المنهج في هذه الحالة هو المجسد للسُّبل التي يتّبعها الباحث في تقصي المعلومات وتفكيكها من خلال تتبّع موضوعي من الكل إلى الجزء ثم إلى المتجزئ منه مما يجعل المنهج هو المترجم للفروض والمنظم للبحث من ألفه إلى يائه.

ولهذا فالمنهج لم يكن قالبًا ثابتًا لصهر الأفكار تحت درجات حرارة عالية وكأنَّه فرن لإذابة الحديد أو الخامات المعدنيّة الأخرى الصّلبة، بل المنهج يكون قابلًا لاستيعاب الجديد ويسعى للكشف عنه.

والمنهج لم يكن تكرارًا روتينيًّا كما يعتقد البعض الذين يحاولون قصره على دراسة الماضي بالتحليل والتفسير، أو البعض الآخر الذي يريد قصره على دراسة الحاضر المشاهد، بل هو الذي يربط الموضوع بالزّمان والمتغيّرات التي تظهر من فترة لأخرى، ومن مكان لآخر وهو المستوعب للمستقبل والمتطلّع إلى آفاقه المرتقبة[6].

---

[5] عقيل حسين عقيل، فلسفة مناهج البحث العلمي، منشورات جامعة الفاتح، دار ألجا، الطبعة الثانية، 1995، ص 48.

[6] عقيل حسين عقيل، القواعد المنهجية للباحث الاجتماعي والقانوني، القاهرة: المصرية للنشر والتوزيع، 2020، ص 24- 47.

ومن ثمَّ بالمنهج يتم أخذ العبر من الماضي، واستيعاب الحاضر من أجل المستقبل الأنفع والأفيد، ولكي لا تكون المناهج تكرارات روتينيّة تُولِّدُ الملل عندما تقتصر على معرفة الجاهز فقط في الزَّمن الماضي أو الحاضر ينبغي أن تكون تطلّعيَّة؛ لكي تفتح آفاق الإبداع أمام العلوم باستيعابها تطلعات المجتمع وأمانيه وتتابع عن كثب مراحل نموّه وتطوّره وتستوعب التغيرات الطَّارئة عليه، وكذلك ينبغي أن تستوعب شطحات الباحث العلميَّة من أجل أن تفتح الآفاق أمامه في معرفة الجديد واكتشافه من خلال خروجه عن الروتين والقولبة الفكريَّة والعقليَّة المميتة للتألق والإبداع وبلوغ الخوارق[7].

وعليه: فالمنهج العلمي هو الذي يُتَّبع في تقصي الحقائق وتبيانها، ويحتوي على عناصر التشويق التي تُحفِّز القراء على البحث والتقصي الدقيق الواعي، وتُمكِّنهم من التعرّف على أسراره وخفاياه؛ ولهذا لم تكن المناهج قوالب ثابتة تستوجب التقيد بها كما يعتقد البعض، بل تختلف بالضرورة من موضوع إلى آخر، ومن باحث إلى آخر، وحسب الظّرف الزَّماني والمكاني والفلسفة التي دفعت الباحث إلى اختيار الموضوع والبحث فيه.

ونتفق مع الفيلسوف ديكارت في قوله: "ليس غرضي ها هنا أن أعلم المنهج الذي ينبغي على كل امرئ اتباعه من أجل اقتياد عقله على النحو الصحيح، بل فقط أن أبيِّنَ الطريق الذي سلكته لإرشاد عقلي"[8].

ويتمركز منهج ديكارت على معطيتين رئيستين هما:

---

[7] المصدر السابق، 61،

[8] عبد الرحمن بدوي، موسوعة الفلسفة، الجزء الأول، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، الطبعة الأولى، 1984، ص 493.

الحدس: أي التصوُّر الذي يتولَّد في نفس سليمة منتبهة عن مجرد الأنوار العقلية، ومن ثمَّ فالحدس هو مصدر المعرفة الأوَّل وليس الإحساس.

الاستنباط: هو العمليَّة العقليَّة التي تنقلنا من الفكرة البديهيّة إلى نتيجة أخرى تصدر عنها بالضرورة، أي: استنباط الحقائق بالمنطق والحجَّة.

ويستند المنهج الديكارتي إلى أربع قواعد:

1 – التسليم بيقينيّة المبادئ التي تبدو للعقل بسيطة وواضحة، لا تثير يقينيَّتها أي شك بداهةً، وهو ما يفهم أو يدرك بالفطرة، والبديهي هو الأمر الواضح بذاته الذي لا يحتاج إلى غيره ليفك الغموض والالتباس عنه، ويعني: لا أقبل شيئًا على أنَّه حقّ، ما لم أعرف بوضوح أنَّه كذلك؛ ولذا يجب أن أتجنَّب التسرُّع وألّا أتشبَّث بالأحكام السَّابقة، وألّا أُدخل في أحكامي إلّا ما يتمثّل لعقلي في وضوح وتميّز يزول معهما كل شكّ.

2- تقسيم كل مشكلة إلى أجزائها (التحليل)، أي: تقسيم المشكلة المعترضة إلى ما يمكن من الأجزاء والمشكلات؛ ليتم تبسيطها وتوضيحها أكثر، ومن ثمَّ عندما يتم تقسيم المشكلة المطروحة إلى أكبر عدد ممكن من القضايا نصل إلى فهم كل واحدة على حدة فتكون بذلك الرؤية واضحة ومتميزة.

3 – الانتقال المنظّم من المعروف والمبرهن عليه إلى المجهول، الذي يتطلّب البرهان (التركيب والتأليف)، والتركيب يأتي في مقابل التحليل، أي: القيام بعمليّة عكسيّة، فبعدما تم فصل الأجزاء في مرحلة سابقة، نكون خلال هذه المرحلة بصدد تركيبها وجمعها من جديد؛ ليكون ذلك التركيب هو الانطلاق من الجزئيَّات إلى الكليَّات.

4 – عدم إغفال أي من مراحل البحث المنطقيَّة استقراءً وإحصاء من خلال المراجعة لكل العناصر والأجزاء بغاية الوصول إلى الصدق واليقين؛ وذلك من أنَّ الانسان كائن نسبي معرَّض للنسيان والخطأ، ويعمل وفق مشاعر وعواطف قد تحيده عن طريق الموضوعيّة[9].

وهذه القواعد أُخذ بها وما زال يؤخذ حتى الآن في تقصِّي المعلومات وتتبعها مركَّبة ومجزَّأة وكمًّا وكيفًا.

أمَّا المنهج لدي فرنسيس بيكون كما جاء في نظريته الأوهام الأربعة، فهو يرى أنَّ المعرفة ينبغي أن تثمر في أعمال، وأنَّ العلم ينبغي أن يكون قابلًا للتطبيق في الصّناعة، بهدف تحسين أحوال النَّاس ونهضتهم، وهذا يتطلّب منهجًا ينظم الفكر بحيث يجعل المعطيات مؤدّية إلى نتائج، والتسليم من دون حُجّة لا يزيد عن كونه وهمًا، وقسَّم بيكون الأوهام التي تسيطر على عقول البشر، وتمنع تقدّمهم إلى أربعة أنواع[10]، كالآتي:

1 – أوهام القبيلة: وهي التي تصيب الذّهن عندما تخيّم عليه سُحب الانفعالات والرَّغبات، فالنَّاس لديهم استعداد لأن يعتقدوا فيما يرغبونه؛ ولذلك يستعجلون ولا يتأنون في البحث، وبالتَّالي يندمون على وقائع حقيقيّة توجد وراء آمالهم، أضف إلى ذلك بلادة الحواس، وعجزها، وخِداعها.

[9] توم سوريل، ديكارت، (ترجمة: أحمد محمَّد السروي)، القاهرة: 2014م، ص 63.

[10] فرنسيس بيكون، إرشادات صادقة في تفسير الطبيعة، (ترجمة عادل مصطفى)، بيروت: مؤسّسة هنداويسي، 2017م، ص 136.

هكذا نحن نرى أنَّ التقدُّم لا يمكن أنْ تبنيه العاطفة، والتسليم بالمسموع والأخذ به والاحتكام إليه، بل بلوغ التقدّم والنّهضة الحضاريَّة لا يكونان إلَّا بالعقل الواعي الذي لا تقوده أوهام الماضي المسموعة، التي لم تترك بين يديه حقيقة أو أثرًا نافعًا؛ ولهذا فأوهام القبيلة تعتمد على الأخذ بالمسموع وتتغنى به وهو في حقيقة أمره لا يزيد عن كونه وهمًا؛ إذ لا حُجّة.

2 – أوهام الكهف: وهي خاصّة بكل إنسان فكلٌّ منَّا يعيش في كهف صغير، أو يعيش في مغارته الخاصَّة، وله طريقته الخاصّة في التفكير، وهذه ترجع إلى التربية، والعادات، والظروف؛ ولذلك نجد البعض يغالي في التشابهات بين الأشياء، في حين يغالي البعض الآخر في الاختلافات بينها، ويحب بعضهم القديم بإفراط ويحترمون السَّابقين، في حين أن بعضهم أسرى لما هو جديد من كل نوع.

وأوهام الكهف هي أوهام التمركز على الأنا وكأنَّه مركز العالم، ومع أنَّه لم يكن كذلك ولن يكون فإنَّ الفرد لا يرى سبيلًا للمعرفة إلّا بما يتهيّأ له معرفة وتفسيرًا؛ ولهذا يجد نفسه بين مخالفٍ للغير ومختلف معه، ولا يهمه التصويب والتصحيح وتغيير المواقف، ومثل هذه الشخصيَّة كمن توحَّد الوهم فيه أو كمن توحَّد مع الوهمِ.

3 – أوهام السُّوق: حيث يتقابل النَّاس ويتفاهمون لغةً؛ إذ الكلمات أصلها في عقل الإنسان العادي، وفي معظم الأحيان لا تكون مناسبة لبحثٍ علمي دقيق، فتكون النتيجة أنَّ النَّاس يتجادلون حول كلمات يعجزون عن تعريفها بطريقة مناسبة؛ كونهم ورثوها من آراء غامضة من الماضي، وكذلك فهي تتعلّق

بالمثقفين الذين يغلب عليهم استخدام الألفاظ المؤثرة على الفكر، ومنها تولد الإشاعات.

إنّها أوهام العامّة من النَّاس الغافلين عن معرفة الحقيقة، فهؤلاء لا يهتمون بالتَّأصيل والدّليل والحجَّة بقدر ما يهتمون بالسّرد وأساليب الاستخدام المعتادة والمألوفة.

4 – أوهام المسرح: وهي تلك المتسربة إلى عقول النَّاس من عقائد الفلسفات المختلفة، وما علق بها من مغالطات جعلت من الحياة مسرحًا لعرضها عبر التَّاريخ، بما فيها من مخالفة للواقع وما يجب حياله، وحتى الفلاسفة التجريبيين السَّابقين على بيكون، يرى الخطأ: كان ينقصهم المنهج العلمي؛ إذ كانوا يقومون بعمليّة التعميم من تجارب ضئيلة جيدًا، تاركين خيالهم يجمح[11]؛ ولذا فأوهام المسرح ناتجة عن معتقدات خرافيَّة، ولها علاقة بالتقليد والتصديق الخطاء.

وهنا جاء المسرح بمعنى: ما يجري على أرض الواقع بين النَّاس لا يختلف عن المسرح الذي يقف على خشبته الممثلون في محاولة لنقل الفكرة التي ارتأها المؤلّف أو كاتب النصّ، مع لمسة فنيّة من المخرج، ومع أنَّه لا بدَّ للخيال أن يتمدَّد بأريحيته على خشبة المسرح فإنَّ الخيال لا يكون إلّا وهمًا خارج جدران الحقيقة.

ويصنّف بيكون معرفة العلوم المؤدِّية إلى النَّهضة وفقًا للآتي:

الذَّاكرة: وموضوعها التَّاريخ؛ كونه مخزن الوثائق التي تتحصَّن المعلومات فيها، والمعارف التي لها شواهد وأدلة، والتجارب التي تركت أثرًا، فهذه هي الذاكرة الواعية، أمَّا ما يأتي عن التّاريخ بغيرها فعلاقته مع الوهم وطيدة.

---

[11] المصدر السابق، ص 173 = 174.

المخيّلة: وموضوعها الشِّعر الذي يجسّد الأحداث ويصوّرها ملاحم ويحفظها من الضّياع، ومع ذلك في الشِّعر من الظّنون ما فيه؛ ولأنَّ المخيّلة مرآة العقل فيفترض أن تعكس الحقيقة هي كما هي، وعندما تكون كذلك يصبح الشّعر وثيقة من وثائق المعرفة.

العقل: وموضوعه الفلسفة الممكِّنة من التجريب الممكِّن من إظهار الحقيقة وكشف الزَّيف عنها؛ فالعقل التجريبي لا يسلم إلَّا بحجّة ودليل، وهذا لا يعني قصور العقل على التجربة فقط، بل التذكُّر والتفكُّر والتدبُّر والتطلُّع هي معطياته لكسر الوهم؛ ولهذا فالإنسان لن يستطيع أن يفهم الطبيعة ويتصدّى لتفسير ظواهرها إلا بملاحظة أحداثها بحواسه وفكره.

ومن هنا ينتقد فرنسيس بيكون القدماء؛ لاكتفائهم بالتّأمل النَّظري حول الطّبيعة دون أن يعنوا بملاحظة ظواهرها، والفلسفة الحقّة عنده يجب أن تقوم على أساس من العلم، المستند على نتائج الملاحظة والتجربة، مع احترام الواقع الحسّي والذّهني في التخطيط ورسم السّياسات؛ وبهذا فقد استبدل بيكون منهج البرهان القياسي بمنهج الكشف الاستقرائي الذي يتطلَّب من الأجيال السَّالفة ردّ العلوم إلى الخبرة والتجربة، وهذا يتطلّب معرفة المنهج القويم للفكر والبحث، وهو ليس إلا منهج الاستقراء؛ كونه وسيلة الوصول إلى المعرفة العلميَّة الصَّحيحة.

ونحن نقول: إنَّ للمنهج البحثي ثلاث قواعد رئيسة وواضحة لكشف الحقيقة يقينًا وتبيانًا، مع التمكين من كشف الجديد وإضافته لميادين المعرفة العلميَّة وهي:

1 – العلم اليقين: الذي لا ظنون فيه ولا شكوك، مسلّمات هي كما هي، سواء أكانت من مصادر ووثائق ومخطوطات متحقّق منها، أم كانت عن علم مُنزّل تنزيلًا من الله تعالى، أو حديث مُجمع عليه.

2 – العين اليقين: تراه مشاهدةً بأمّ عينيك، أو تلاحظه ملاحظةً واعيةً، مع أخذ الحيطة والحذر من خدعة الحواس.

3 – الحقُّ اليقين: الذي لا يكون إلّا عن معايشة وتجربة، سواء أكانت تجربة اجتماعيَّة أم معمليّة ومختبريَّة.

هذه القواعد تُمكّن الباحث أو الكاتب أو المفكر من الدخول إلى الكتب عن يقينٍ والخروج منها وعيًا، أو الخروج عنها وعيًا، ولتبيان ذلك أقول:

الخروج منها: الخروج من الكتب استفادة ومعرفة تُمكّن من التغيير.

الخروج عنها: الخروج عمّا احتوته من معارف لا يقين فيها، ولا حجّة، ولا تُمكِّن من العمل والتغيير.

وعليه:

فالمنهج لا يُكتب، بل يُكتب عنه، فما يكتب هو المعلومة سواء أكانت معطية أم نتيجة، أمّا المنهج فهو الفِكْر الذي به يستقرأ النصّ، وبه تفكك المعلومة وتركب؛ لِتُنظم بكيفيَّة تجعل لها وحدة لا متناقضات بين مفرداتها والتي إذا ما ظهرت المتناقضات جعلتها وهمًا في ذهن الكاتب، أو المؤلف، أو الباحث، والمفكر تجاه سعيه لإظهار الحقيقة وكشف الزّيف عنها؛ ولأنَّ المنهج يكتب عنه ولا يُكتب فمن يعتقد أنَّه بإمكانه كتابة المنهج فهو لا يزيد عن كونه واهمًا.

والغرض من تقديم المنهج هو تبيان النقاط المهمَّة والأساسيَّة في استيضاح المعلومات والبيانات؛ حتى لا يضيع جهد من يحاول البحث في التخطيط الواهم الذي تجاوزه العلم الحديث؛ ولهذا تكون للمنهج قواعد علميَّة ينطلق منها البحَّاث ويعودون إليها عند الحاجة دون أن تُجرّدَهم من خصوصيَّاتهم الذاتيَّة وأساليبهم الموضوعيَّة[12].

خصائص المنهج العلمي:

الخاصيَّة هي التي بها يتميّز الشيء عن الشيء الآخر حتى وأن اشترك معه فيما اشترك، وخصائص المنهج العلمي هي التي يجب على الباحث اتباعها إذا ما قرَّر تقصّي المعلومات بغاية بلوغ نتائج موضوعيَّة، ومن هذه الخصائص.

1 – التيقُّن من سلامة المعلومات ومدى مصداقيَّتها (علمُ يقين).

2 – التيقُّن من المعلومة أو التجربة أو المشهد مشاهدةً (عينُ يقين).

3 – التيقُّن من الحقيقة نتيجة مثبتة ليست عن رواية، أو معايشة لتجربة واقعيّة (حقُّ يقين).

4 - الملاحظة العلمية وإجراء التجارب وفرض الفروض لتفسير المشكلات.

5 - استخدام أسلوب التحليل للوصول إلى عناصر أبسط للظواهر والمشكلات التي يدرسها.

---

[12] عقيل حسين عقيل، البحث العلمي (المنهج والطريقة)، القاهرة: المصرية للنشر والتوزيع، 2019، ص 22 – 45.

6 – الاعتماد على أساليب القياس الدّقيق والمعالجة الإحصائيّة للبيانات والمعلومات.

7 – التقسيم الدّقيق والصحيح للحقائق وتصنيفها، وملاحظة الارتباط والتتابع فيما بينها.

8 – استخدام الخيال الخلّاق المبدع في التوصل إلى الفروض العلميَّة أو القوانين العلميَّة.

9 – النقد الذَّاتي وعدم التسليم بالوقائع إلا بعد تمحيصها.

10 – التقييم الموضوعي للمعلومات دون التسليم الذي يتناقض مع متطلبات التقصّي العلمي.

11 – التقويم بعد بلوغ النتائج؛ كونها حقائق ليست اجتهادات شخصيَّة[13].

مرتكزات المنهج العلمي:

1 – يعتمد المنهجُ العلميُّ على اعتقادٍ بأنَّ هناك تفسيرًا طبيعيًّا لكلِّ الظواهر الملاحظة.

2 – يفترض المنهجُ العلميُّ أنَّ العالمَ كونٌ منظَّم لا توجد فيه نتيجةٌ بلا سبب.

3 – يرفض المنهجُ العلميُّ الاعتماد على مصدر الثقة، ولكنَّه يعتمد على الفكرة القائلة بأنَّ النتائج لا تعدُّ صحيحةً إلا إذا دعَّمها الدليل.

---

[13] أبو ذراع أبو القاسم، منهجية ومناهج البحث العلمي وتطبيقها في القانون، 2008، ص 128.

4 – التنبؤ: وتتعلق هذه الغاية بالتعرف على طرق الأحداث والظواهر الطبيعية والاجتماعيَّة وسيرها؛ بهدف التأثير عليها أو تجنب آثارها على الإنسانية والأمثلة على ذلك تتمثل في التنبؤ بمواعد الخسوف والكسوف، وتطور الأحوال الجوية، ومعرفة تقلب الرأي العام سياسيًّا واجتماعيًّا، وغير ذلك من الأمور التي يمكن التوقع والتنبؤ العلمي بحتميتها؛ وذلك لأخذ الاحتياطات والإجراءات العلميَّة لتفادي الآثار الجانبية[14].

الطُّرق البحثيَّة للمنهج العلمي:

هناك لبسٌ وسوءُ فهم لدى بعض البحاث أو أساتذة الجامعات؛ كونهم لا يميّزون بين الطّريقة، والمنهج، والأسلوب، والمقرر؛ ولذلك وجب كشفه وتوضيح تلك الملابسات والغموض من خلال ما تمَّ عرضه من المنهج ثمَّ عرض مفاهيم كلٍّ من (الطريقة والأسلوب والمقرر) بشكلٍ ولو كان موجزًا، وهي:

الأسلوب:

مع أنَّ المنهج هو كما تمَّ تبيانه وإيضاحه فإنَّ البعض لا يميَّز بينه والأسلوب، والطريقة، والمقررات الدراسيّة، وها نحن بصدد إظهار الفوارق في المفاهيم الخاصَّة بكل منها.

فالأسلوب هو الكيفيَّة التي بها تُعرض الأفكار وتُراجع المعلومات وتُصاغ المواضيع وتُقدَّم النظريّات للآخرين، وهو الذي به يتعامل الأفراد بما يُمكِّنهم من التوحُّد والتفاعل والتوافق أو يجعلهم في حالة فرقة وصدام.

---

[14] المصدر السابق.

إنَّه يختلف من فرد إلى آخر ومن جماعة إلى أخرى، ومن موضوع إلى موضوع ومن زمان إلى زمان، ومن مكان إلى مكان؛ ولهذا لكلّ مكان مقام، ولكل مقام مقال.

والأسلوب عندما يحتوي عناصر التشويق فيه يشدُّ المستمعين إلى متابعة النصّ أو الخطاب، أو المشهد، وعندما يفتقد ذلك يجعلهم في حالة استرخاء، ويشعرهم بالملل حتى يفقدهم رغبة المتابعة.

والأسلوب تفنّن ومهارة في الإنصات والقول والعرض بما لا يُقلق الآخرين أو يَمس مشاعرهم وأحاسيسهم بأمرٍ سالب، مع المحافظة على ذلك بوافر التقدير والاحترام والاعتبار.

ولذلك لا يُعد الأسلوب هو المنهج أو الطريقة كما يعتقد البعض؛ فالمنهج قواعد فكريَّة بها يتمّ تفكيك المعلومة وتركيبها، والطريقة لها خطوات علميَّة تتّبع من جميع البحَّاث عندما تستند على قواعد المنهج، ولكن الأسلوب يرتبط بالباحث وخصوصيّته اللغويّة والأدبيّة والفكريَّة والثقافيَّة.

والأسلوب يتمدّد في النُّعومة مثلما يتمدّد في الخشونة، أمَّا الأسلوب العلمي فهو الأسلوب الموضوعي الذي لا ينفصل عن الباحث وموضوع بحثه ومتطلبات جمع المعلومات وقواعد تحليلها تفكيكًا وتركيبًا وعرضًا.

ولأنَّ الأسلوب يرتبط بخصوصيّة الباحث فعندما يبحث أكثر من باحثٍ في موضوعٍ واحدٍ، نجد أنَّهم علميًّا قد استخدموا أو اتبعوا نفس الخطوات العلميّة الممكِّنة من التقصِّي والبحث، ولكن لا يمكن أن نجدهم قد تطابقوا في ذات الأسلوب؛ إذ نجد من استخدم التعابير الإنشائيَّة في التحليل، ومن استخدم

الأساليب الأدبيَّة في التحليل، ومن استخدم وسائل الإيضاح، ومن لم يستخدمها، أو استخدم بعضًا قليلًا؛ وبهذه الكيفيَّة لا يمكن أن يكون المنهج هو الأسلوب.

ومع أنَّ الأسلوب العلمي ليس بالمنهج ولا الطريقة، فإنَّه لا إمكانيَّة لعرض المنهج أو اتباعه إلّا بأسلوبٍ، ولا أسلوب علمي موضوعي إلّا ومتبع لطريقة من طرق البحث العلمي.

المقرر:

المقرر هو مجموع المفردات وما كُتِبَ عنها في محتوى علمي يناسب مرحلة عمريّة ومستوى نضج عقلي.

إنَّه المادَّة المناسبة للتحصيل المدرسي أو الجامعي أو التعليمي بشكل عام، وهو ما يؤسّس على نظريّات تربويّة ولا يكتبه إلَّا خبراء متخصّصون، ولهم من المقدرة ما يُمكِّنهم من معرفة علم القياس الذي من خلاله يتمكّنون من تحديد المقرر المناسب لكلّ مرحلة عمريّة وتعليميّة.

فالطفل الذي بلغ من العمر ستّ سنوات أصبح مؤهّلًا عمريًّا لدخول المدرسة مع نظرائه من التلاميذ إن كان سويًّا، ولكي يصوغ له الخبراء والمتخصّصون مقرَّرًا تعليميًّا يناسب قدراته وإمكاناته العمريَّة والعقليَّة عليهم أن ينزلوا بمستوى الخبرة والمستوى العلمي الذي هم عليه إلى مستوى عمري وعقلي يساوي ستّ سنوات وإلَّا لن يتمكّنوا من صياغة مقرَّرٍ يفيد ويرفع من مستوى التلاميذ المتعلّمين في السّنة الأولى من المرحلة الابتدائية، وإذا أرادوا أن يصوغوا مقرَّرًا إلى المرحلة الثانية من التعليم الابتدائي فعليهم أن يرتقوا بتفكيرهم سنة أخرى عن تلك السّنة التي بها كتبوا مقرَّرًا للسّنة السّادسة؛ بحيث يصبح مستوى صياغتهم العلميَّة مناسبًا

لحاجة التلميذ في السّنة الثانية من المرحلة الابتدائيّة وهي سبع سنوات، وهكذا ينمون مع نمو أعمار التلاميذ والمتعلمين وعقولهم في كل مرحلة من مراحل التعليم إلى أن يبلغوا مراحل التفكير المجرَّد في التعليم الجامعي وما يساويه وما بعده في التعليم العالي.

هذه هي المقرَّرات التي هي الأخرى لا تكتب إلَّا على منهج أو به، وإلَّا لن تكون مناسبة لمراحل التعليم والمتعلمين؛ ولذا فالمقرّر مع أنَّه المؤسّس على المنهج فإنَّه ليس بمنهج.

أي: لا مقررات تعليميّة إلّا وفق منهجٍ يَنظِمُ مفردات كلِّ مادّة من المواد المقرّرة للتعليم، ولأيِّ مستوى تعليمي، هذا كما أنَّ لكل مرحلة تعليميّة وعمريَّة أسلوبًا لتوصيل المعلومة ترغيبًا لا ترهيبًا، وبالتالي ينبغي أن تكون الأساليب مشوقّة في كلِّ درس أو موضوع، وهي كما تكون ساعة التأليف تكون ساعة عرض المعلومة على التلاميذ والطلبة في أثناء تلقيهم الدروس التعليميَّة.

الطَّريقة: approach

هي مولود المنهج المتكوِّنة من مجموع الخُطوات المنتظمة المتناسقة في ممارسة الفعل، وهي التي تمارس وتُتبع من قبل الذين يلمُّون بها ويجيدون تكرارها، وضبط عناصرها ومتغيّراتها، وتتبّع خطواتها؛ وهي التي تُرتَّب وفقًا للأولويَّات في خطّة منهجيَّة في ضوء القدرات والاستعدادات والإمكانات المتاحة من أجل إنجاز أهداف واضحة ومحدّدة.

ومن ثمَّ فاتباع الطريقة يُمكِّن البحَّاث والأخصائيين من تقصي الأثر الذي تتركه الكلمة، أو المرض والأثر الذي يتركه الفعل والسُّلوك.

توصف كل طريقة علميَّة بالخطوات التي تحتويها؛ فخطوات التجربة هي التي تجعل منها طريقة تجريبيَّة، وخطوات التقصي التَّاريخي هي التي تجعل للتاريخ طريقة، وكذلك خطوات المسح الاجتماعي هي الأخرى جعلت منه طريقة، وأيضًا طريقة دراسة الحالة في مهنة الخدمة الاجتماعيَّة التي تأسّست لها خمس خطوات منتظمة في عمليّات مهنيَّة متناسقة موضوعيًّا جعلت دراسة الحالة طريقة يمارسها أخصائيون مهره، وخطواتها هي:

. جمع المعلومات.

. تحليل المعلومات.

. تشخيص الحالة.

. علاج الحالة.

. عمليَّة التقويم.

وعليه: فالطّريقة هي التي بها يتم سبر أغوار المعلومة وتتبّع مكامنها، وآثارها التي تتركها على الكلمة، أو الفعل، أو العمل، أو السُّلوك، وهي: التي بها يتم التعرّف على ما هو كائن، وبها يتم التطلُّع لِما ينبغي أن يكون؛ ولهذا فالمنهج يُحلّل المعلومة ويُفكّكها ويُركبها، ويؤسّس قواعد، أمَّا الطّريقة فلها خطوات تُتبع وفقًا لتوجهات المنهج الذي يُستمدّ من الموضوع، ولا موضوع مبدع إلّا وحيرته تملأ نفس الباحث، وقد تضايقه لفترة لا ينجو منها إلّا بالفكرة المنقذة.

الطَّريقة التَّاريخيَّة

تتَّضح الأهميَّة البحثيَّة للطريقة التَّاريخيَّة بتحديد مفهوم الطريقة كما سبق أن بينَّا وتحديد التَّاريخ دلالة ومعنى.

التَّاريخ:

التَّاريخ كما ورد في لسان العرب هو: "تعريف الوقت"[15]. وبما أنَّه (الوقت) إذن: فهو المحتوي على الزَّمن الماضي والحاضر والمستقبل، أي: إنَّه الوقت الذي تستغرقه التجارب والظواهر والقضايا والحياة بشكل عام؛ ولذا يُعدّ التَّاريخ السجل العام والميدان الواسع الذي تُسجل فيه الأحداث وهو المستوعب لكل ما يحدث؛ لهذا يكون التَّاريخ ملكًا عامًّا ليس للأحياء فقط بل للماضين والآتين.

والتَّاريخ هو المتضمّن للمواقف والظواهر والأحداث التي نعتز بها ونفتخر بما هو إيجابي فيها ونأسف على بعض المواقف الفرديَّة السلبيَّة التي ارتُكِبت نتيجة الطمع والخوف والتقرب لمن لا ينبغي لنا التقرب إليه زلفى، ومع إنَّها تحتوي على إيجابيّات ذات أهميَّة عالية للحياة الحاضرة عندما تكون محتوية لمضامين العبر فإنَّها لا تخلو من النواقص؛ حيث لا كمال إلا لله تعالى، ولهذا فهي تستوجب البحث في أغوارها لمعرفة المعطيات الإيجابية والسلبيَّة من أجل أخذ العبر لمستقبل أفضل.

والتَّاريخ هو السجل المفتوح للحاضر والمستقبل والمستوعب للماضي، وبذلك يُعدّ ملكًا عامًّا؛ لأنَّه صناعة عامّة، فمهما حاول البعض أن يطمس شيئًا من معالمه أو يزوِّرها فلن يستطيع؛ وذلك لأنَّ البعض الآخر قادر على إبرازها، ولو اتفقت الأغلبيّة على تشويه التَّاريخ تحت أيّ ظرف من الظروف القهريّة، فلن

---

[15] لسان العرب، المجلد الأول، ص 44.

يتفق الجميع؛ ولذا لو بقي شخصٌ واحدٌ على قيد الحياة فإنَّه يستطيع أن يقول الحقيقة التي تبقى ما بقيت الحياة؛ ولهذا فالتَّاريخ الحقّ هو الذي يصنعه النَّاس ولا تصنعه الحكومة مع إنَّها قادرة على الإسهام في صنعه إن كانت ديمقراطيَّة.

وبناء على ذلك يختلف التَّاريخ عن العلوم الأخرى وفق الآتي:

التَّاريخ زمن ووقت، والعلوم الأخرى مادّة.

التَّاريخ مستمر ثانية بثانية، والعلوم مستمرّة بإنتاجها ولم تستمر بوقتها.

التَّاريخ متصل زمنًا وأحداثًا، والتشبيه التقريبي لذلك هو المسبحة، الذي يُعدّ الزَّمن خيطها المتصل وحبّاتها أحداثًا يحملها الزَّمن؛ وبذلك تكون العلوم كحبَّات المسبحة، ويكون الزَّمن الخيط الذي تنتظم به.

ولذا؛ فالتَّاريخ زمن ومحتوى، والزَّمن من دون محتوى يُعدّ فراغًا، والمحتوى من دون زمن استحالة؛ ولهذا الزَّمن كموجود علّة وجود المحتوى؛ فلولا الزَّمن والحركة ما كان المحتوى، ولولا المحتوى ما صُنِعَ تاريخٌ.

إذن: يتكوّن التَّاريخ الذي نقصده من زمن ومحتوى، وفي الزَّمن يحدث المحتوى أو يتكوّن، وبالمحتوى يراجع الزَّمن، وكلاهما (الزَّمن والمحتوى) في زيادة مستمرّة إلَّا أنَّ الزَّمن متّصل، والمحتوى منفصل، ومن الزَّمن والمحتوى تتحقّق الحياة التي هي الفترة المؤقّتة من التَّاريخ بالنسبة إلى الأفراد والجماعات والمجتمعات، ومع وجود علاقة بين الزَّمن والمحتوى فإنَّ النهايات لا تكون ذات علاقة، فالمحتوى يُصنع في الحياة من الأحياء، وعندما ينتهي الأحياء وتقوم القيامة يبقى الزَّمن شاهدًا وحافظًا للمحتوى الذي توقَّف عن الزيادة، وحتى في الحياة عندما تنتهي حياة فرد ما أو جماعة ما فلا تنتهي الحياة بانتهاء حياتهم، ولكن إن كان منهم

صنّاع تاريخ فسيبقون أحياء عند ربهم بما تركوا من محتوى عظيم؛ مصداقًا لقوله تعالى: {وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ}[16].

ولأنَّ الأعمال الخيّرة تبقى فإنَّ صدر التَّاريخ خير حافظ لها، وإنَّ الله تعالى خير مُجْزٍ عليها؛ ولهذا الذين ضحّوا بأرواحهم في سبيل الحقّ هم أحياء عند ربّهم وأحياء في التَّاريخ؛ ولهذا تُعدّ الحياة هي العيش في التَّاريخ.

ومن ثمَّ فقيمة التَّاريخ بما يحتويه من عبر؛ مصداقًا لقوله تعالى: {لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ}[17]، ولكن لمن تكون العبر؟ بطبيعة الحال لأصحاب العقول والضمائر الرّفيعة الذين يستقرأون التَّاريخ ويستمدون منه العبر والمواعظ والفضائل الحميدة.

وقد عرَّفَ هومر هوكيت التَّاريخ بأنَّه: "السجل المكتوب للماضي والأحداث الماضية"[18]؛ ولكن لو اعتمدنا هذا التعريف فسيكون التَّاريخ ماضٍ وقد وقع وانتهى، وكأنَّ السّجل التَّاريخي قد امتلأ بالأحداث وقفل، وإذا سلمنا بهذا يعني: أنَّنا سلّمنا في زمني الحاضر والمستقبل اللذين يُعدَّان من مكونات الوقت الذي عُرِّف التَّاريخ به كما سبق ذكره.

[16] آل عمران: 169 . 171.

[17] يوسف: 111.

[18] Homer. Hockett, the critical. method in historical research and wzition . New York: the mac millan co, 1968, p, 3.

وكذلك إذا سلّمنا بأنَّ التَّاريخ هو السجل المكتوب، فإنَّنا نسلم بأنَّه لم يبق لدينا ما نكتب؛ ولذا فإنَّ التنقيب عن الآثار والبحث عن الحفريات لا زال مستمرًّا، وكل عثور على أيّة بصمات حملها التَّاريخ أو سطَّرها يتم تسجيله في الزَّمن الحاضر مع أنَّه قد وقع في الزَّمن الماضي، ولكن زمن اكتشافه كان في الزَّمن الحاضر؛ ولهذا التَّاريخ لم يكتمل اكتشافه، ولم ينته زمن صناعته، ولم تعقم أمهات صُنَّاعه ولن.

إذن: لا داعي بأن نُعرِّفَ التَّاريخ بأنَّه السجل المكتوب للماضي والأحداث الماضية، وبما أنَّ الدنيا لم يقفل سجلّها، إذن: بالضّرورة لم يقفل سجل التَّاريخ، ولا تنتهي الأحداث، وبما إنَّها كذلك فإنَّ التَّاريخ لم يكن سجلًّا مقفلًا، بل التَّاريخ هو السجل العام المفتوح، والميدان الواسع الذي يستوعب الأحداث في زمن وقوعها، سواء أكانت هذه الأحداث قد وقعت، أم تحت القيد، أم لم تقع بعد، وسواء أكانت مكتوبة، أم لا زالت في صدور الرّواة، أم إنَّها لم تُكتب بعد؛ ولذا فالتَّاريخ هو حاضر الزَّمن الماضي والماضيين فيه، وإذا تساءل البعض كيف؟

تكون الإجابة: ما ندرسه نحن كماضٍ يُعدّ للماضيين حاضرًا، وهكذا يُعدّ للحاضرين ماضيًا وهكذا سيظل التَّاريخ حيًّا.

ويقول ابن خلدون: "يُعدّ التَّاريخ معمل التجارب الهائل الذي تسجل فيه تجارب الإنسانيَّة، والمتحف الطبيعي للظواهر في مختلف درجات تطورها"[19]، يوضح هذا التعريف مرونة التَّاريخ ورحابة صدره في تقبل النقد والتفسير لما يحتويه سجله المليء بالتجارب والظواهر الماضية وعلاقتها بالمشاهدات والتجارب الحديثة

[19] عبد الرحمن ابن خلدون، المقدمة، ص 17.

بفتح صفحاته أمام الاكتشافات الحديثة، إلَّا أنَّ كلمة معمل صغيرة جدًّا على التَّاريخ، إنَّه أوسع من ذلك بكثير؛ لأنَّه ميدان الحياة وسجل نتاجها وإنَّه الزَّمن والمحتوى والحياة.

وللتّاريخ بصمات يمكن مشاهدتها والتعرّف عليها وعلى ما وراءها، فدلائل التَّاريخ كثيرة، ومن خلالها يمكن معرفة الوقت الذي أنتجت فيه، والعهد الذي تدل عليه، والفن الذي تميّزت به. وإذا عدّدنا شواهد التَّاريخ فإنَّها لا تحصى، فمنها: الآثار، والحفريات بمختلف أنواعها، والمخطوطات والتماثيل والنقوش، والزّخرفة والكتب والمطبوعات، وكلّها دلائل يمكن دراستها وملاحظتها والاستشهاد بها؛ فإذا أخذنا المساجد كشاهد في أيّ منطقة من المناطق أو إذا عثرنا على آثارها في أيّ بقعة من العالم فعلى ماذا تدل؟

إنَّها تدل على انتشار الدين الإسلامي وأن هناك مسلمين في تلك البقاع، أو أنَّهم كانوا؛ ففي روسيا بعد الماركسية منعوا المسلمين من الصَّلاة في المساجد إلا أن المساجد بقيت ماثلة يمكن مشاهدتها علامة دالة على انتشار الإسلام، وفي ألمانيا الشرقية سابقا عندما كانت تحت الحكم الشيوعي منعت هي الأخرى الصَّلاة في المسجد وحولت مأذنته إلى خزانٍ للمياه، ومع ذلك بقي إلى اليوم علامة دالة على أنَّه كان مسجدٌ، وبقي شاهدًا بطابعه الإسلامي وشاهدًا على عدم مقارعة الماركسية له التي طويت صفحاتها من التَّاريخ دون أن تجد من يتأسف عليها، وبقي الجامع معلمًا إسلاميًّا يدلّ على وجود مسلمين في مدينة برلين الشرقية[20].

[20] المصدر السابق، 134.

ويصدق قول ابن خلدون: "إنَّ التَّاريخ في ظاهره لا يزيد عن أخبار الأيّام والدّول والسّوابق من القرون الأولى، تنمّق لها الأقوال، وتصرف فيها الأمثال، وفي باطنه نظر وتحقيق وتعليل للكائنات وعلم بكيفيّات الوقائع وأسبابها"[21].

وعليه نتساءل:

هل هناك فرق بين التَّاريخ والمنهج التَّاريخي؟

نعم، هناك فرق:

التَّاريخ كما بينَّاه ميدان عام تنهل منه كل العلوم، وفيه تُسجَّل، وتعتمد على سجله في البحث والدراسة، وهناك فرق في هذا الخصوص بين التَّاريخ، والدراسات التَّاريخيَّة المتخصّصة.

فالتَّاريخ ملك عام لكل العلوم فهو الميدان الذي يستوعبها وتثريه ويثريها، أمَّا الدراسات التَّاريخيَّة المتخصّصة فتستهدف التعرّف على فترة أو فترات حسب اهتمامات البحّاث، وكثيرًا ما تكون دراسات للأحداث والمواقف الفرديَّة والجماعيَّة، وكل الدراسات التَّاريخيَّة عبارة عن جزء من بقية العلوم التي تشكل جزءًا من التَّاريخ، وعادة يتم التنقيب في الدراسات التَّاريخيَّة من أجل الآخرين قيما وعِبرًا وفضائل؛ ليتّعظوا، ويعتبروا، ومع ذلك فقد يكون المؤرخ ناقلًا يسرد الأحداث دون أن يوظّفها خدمة للعلاقات الاجتماعيَّة والإنسانيَّة إلّا أنَّ القراء قادرون على استيعاب العِبر من مصادرها، وقد يحدث التحريف لبعض المعلومات من قبل بعض البحاث؛ لأسباب ذاتية، أو أسباب سياديّة، أو نتيجة تأثير أداة الحكم على المعلومات أو على الباحث، وهنا قد تحدث محاولات لتزوير التَّاريخ لكنّها

[21] المصدر السابق، ص 71.

صعبة وغير ممكنة؛ لأنَّ التَّاريخ لا يمثله أحد فهو الملك العام الذي لا يقتصر على الحاضرين، بل يمتد من الماضي إلى الحاضر ثمَّ إلى المستقبل في حلقات متّصلة لا تنفصم؛ ولذا فإنَّ الأجيال دائمًا قادرة على تصحيح ما يعلق به.

وعليه:

ما هي الطريقة التَّاريخيَّة؟

الطريقة التَّاريخيَّة هي التي بها تُجمّع وتستقرأ المعلومة العلميَّة تأصيلًا مع مراعاة انتظام المعلومات وفق متغيّراتها الموضوعيَّة والمكانيّة والزمنيَّة أحداثًا وعِبرًا وقِصصًا مع مراعاة الخصوصيَّات الثقافيَّة والدّينيَّة والعرفيَّة التي بها تتميّز كل هويَّة من الهويَّات الاجتماعيَّة.

ولذا؛ فالباحث المتّبع للطريقة التَّاريخيَّة يستهدف المعلومات من مصادرها الموثوقة سواء أكانت بشريَّة أم وثائقيّة ليستقرأ بها ظاهرة أو حالة من الحالات الفرديَّة أو الجماعيَّة أو المجتمعيَّة أو أيّ إشكاليَّة أو مشكلة تستوجب البحث تتبّعًا بتتبّع الظّروف والمتغيّرات التي ظهرت فأثرت على الحالة.

ولأنَّ موضوع هذه الطريقة يكمن في التَّاريخ الواسع، فإنَّ تتبع الباحث لموضوع بحثه أو إشكاليّته البحثيَّة يستوجب تقصّيًا متّصلًا للمشكلة أو الموضوع وإن انفصلت حلقات تماسكه عبر الزَّمن (الماضي والحاضر والمستقبل).

هذه الطريقة لا تقتصر على دراسة علم التَّاريخ، بل هي الطريقة التي بها تُستقرأ العلوم في غير منعزل عن مراحل نشأتها أو تكوينها وتطورها عبر التَّاريخ؛ وذلك لمعرفة أثر كل متغيّر من المتغيّرات التي أثرت فيها تأثيرًا مباشرًا أو غير مباشر.

ولأنَّ لكل شيء تاريخًا زمانيًّا ومكانيًّا، ولكل ظاهرة ومشكلة تاريخًا؛ لذا فكل شيء يمكن أن يتم تناوله موضوعيًّا بالتقصي العلمي لا ينبغي أن يُغفل عن البحث في تاريخه الذي به تأثّر وأثّر.

وقد يتساءل البعض:

لماذا الطريقة التَّاريخيَّة؟

من دون شك نحن لا نعني اقتصارها على الدراسات التَّاريخيَّة (علم التَّاريخ) بل لوضوحها في التَّاريخ العام الذي يُعدّ علم التَّاريخ جزءًا منه، مما جعل هذه الطريقة تُتّبع في البحث والدراسة دون أن تقتصر على علم من العلوم؛ ولذلك الطريقة التَّاريخيَّة هي التي يسلكها الباحث وهو مهتدٍ بنور التَّاريخ إلى غايات المعرفة العلميَّة.

ولهذا تعتمد الطريقة التَّاريخيَّة في تقصيها للمعلومة على الآتي:

1 ـ موضوع أو مشكلة: تستوجب البحث والتقصي العلمي.

2 ـ أدلة: تُثبتُ أو تُبطل ما يتعلّق بالظَّاهرة أو الموضوع أو مشكلة البحث.

3 ـ مصادر: منها تستمدّ المعلومات أو تُستقرأ وتستنبط.

4 ـ أدوات: يتم استخدامها لجمع المعلومات من مصادرها أو مكامنها.

هذه الطريقة لا تعتمد كما يتصوّر البعض على السرد والنقل، بل على التفحّص الدقيق، والقياس المعتمد على قوانين اجتماعيَّة أو طبيعيَّة مما يجعلنا نطلق

عليها طريقة العلوم بشكل عام، وجعل د. سمير نعيم يقول: "إنَّ أيّ بحث مهما كان الأسلوب المتّبع فيه لا يغني عن الاستعانة بمعطيات المعرفة التَّاريخيَّة"[22].

ولأنَّ التَّاريخ مليء بالتجارب والبراهين والحُجج والمعالجات والعبر التي تفيد الباحثين وهم في حاجة لأن يعرفوها؛ فالبحث في أيِّ ظاهرة أو مشكلة في العلوم الطبيعيَّة والاجتماعيَّة والإنسانيَّة لا ينبغي أن يكون منعزلًا عن تاريخها؛ ونتيجة لذلك ظهرت أهميَّة الطريقة التَّاريخيَّة في العلوم بشقّيها: النّظري والتطبيقي.

ولأنَّ لكلِّ ظاهرة أو موضوع أو مشكلة تاريخًا وفي كل العلوم؛ إذن: لا بدَّ وأن تكون من بين طرق البحث العلمي طريقة تتوافق بحثًا في تاريخ الحالات والظّواهر والمشاكل الاجتماعيَّة والطبيعيَّة والإنسانيَّة، ففي حالة البحث في تلك الحالات والظّواهر والمشاكل لا بدَّ من معرفة أسبابها وعللها من خلال التتبُّع الواعي المتمعّن في المعلومة ومتغيّراتها المتداخلة والمستقلّة والتابعة والدخيلة؛ وذلك لإنجاز أهداف البحث وفروضه أو تساؤلاتها الموضوعيَّة.

ولأنَّ لكل طريقة مسمّى فهي لا يمكن أن تتميّز إلّا إذا كانت تسميتها مستنبطة ومستمدّة من الميدان الذي به تُسمى، ولأنَّ الطريقة التَّاريخيَّة مستمدّة من ميادين التَّاريخ الواسعة فهي سميت بهذه التسمية، ولكي تتميّز أيضًا لا بدَّ لها وأن تعتمد المعلومات من مصادرها بوسائل وتقنيات تكون دائمًا في حالة تطوُّر، وهكذا استمدت الطريقة التجريبيَّة من التجربة التي تُعد الميدان الواسع للبحوث العلميَّة وبخاصة في العلوم الطبيعيَّة والتجريبيَّة، واستمدت الطريقة المسحيَّة التي

[22] سمير نعيم، المنهج العلمي في البحوث الاجتماعية. القاهرة، المكتب العربي للأوفست، الطبعة الخامسة، 1992، ص 130.

تميّزت بدراسة المجتمع أو العيّنات المأخوذة منه كما استمدت طريقة دراسة الحالة من ميادين الحالات المستهدفة بالبحث والدراسة.

وعليه: إذا أردنا معرفة الأسباب والعلل لأيّ موضوع أو ظاهرة ينبغي معرفة التَّاريخ؛ لأنَّ في التَّاريخ تكمن الأسباب، وفي الأسباب تكمن النتائج، وفي النتائج تكمن الحلول والمعالجات الموضوعيَّة التي تجعل للتّاريخ عبرة.

هذا، ولم يكن الغرض من اتباع الطريقة التَّاريخيَّة سرد المواقف، وتكرارها من باحث إلى آخر، أو حفظ القصص والروايات ونقلها، بل الهدف هو التعرّف عليها، وتفحُّص عبرها، وتبيانها للآخرين، واستخلاص القوانين الاجتماعيَّة وآليات حركة المجتمع والطبيعة والتغيّرات التي طرأت أو أدخلت عليها وتأثرت بها أو أثرت فيها[23].

طريقة المسوح العلميَّة (المسح الاجتماعي):

إنَّها إحدى الطرق العلميَّة الممكِّنة من اكتشاف العلاقات الناتجة عن تداخل عدد من المتغيّرات التي تؤثّر سلبيًّا أو إيجابيًّا على الظَّاهرة مما يستوجب تقصي الحقائق عنها بإجراء مسح شامل للمجتمع المستهدف بالبحث أو الدراسة، وهو المسح الذي يطلق عليه المسح العام عندما لا تستثني أيّ مفردة من مفردات مجتمع البحث.

أمَّا إذا حدث الاستثناء فيعني أنَّه حدث التخصيص والتحديد الذي ينحصر في اختيار عيّنة من المجتمع؛ ولذا يتضح الفرق بين المسح الشامل والعيّنة؛ من حيث الأهداف، ومن حيث الفلسفة، ومن حيث الأهميَّة.

[23] المصدر السابق، 214.

إنَّ أهداف دراسة المجتمع دون استثناء أيّ مفردة بشريَّة منه، يعني: الاعتراف بأثر المتغيّرات على كل فرد، والاعتراف بأنَّ هناك فروقًا فرديَّة ينبغي مراعاتها، بدراسة المجتمع ككل دون استثناء مما يجعل البحث مستهدِفًا الجميع بالمسح الشامل.

والغاية من البحث العام تدلّ على عدم الاعتراف بالتمثيل السُّلوكي والاجتماعي للأفراد والجماعات؛ ولهذا فلا مبرر لأن يمثل المجتمع بجزء منه وهو قادر على إعطاء الحقيقة دون وسطاء؛ ولأنَّ المجتمع لم يكن غائبًا فكيف لنا بالقبول بمن يمثله أو ينوب عنه؟!

أمَّا التبرير بصعوبة دراسة المجتمع عن طريق الحصر الشامل الذي استوجب تمثيله بالعيّنة فهو تبرير في غير محله، وحتى وإن قبلنا ذلك في بحوثنا على الحيوانات والطيور والأسماك والنباتات والجماد فإنَّنا لا نقبله على مستوى من خلقه الله تعالى في أحسن تقويم، وجعله خليفة في الأرض يصلح ولا يفسدّ ولا يسفك دمًا فيها بغير حقّ.

وبالنسبة إلى الذين يقولون: كلّما كبر حجم العيّنة اقتربت صفاتها وخصائصها من صفات المجتمع وخصائصه، نقول: نعم من حيث اقترابها، ولكن من حيث تطابق نتائجها مع نتائج المسح الشامل فلن؛ وذلك لِما للخصوصيَّة الفرديَّة من دلالة ومعنى حتى وإن تحدثنا عن أوسع مسح لن نجد كيوم الحشر الذي يقف فيه كل إنسان بما عمل، ولا يحق لأحد أن يمثل الآخر فيه، وهذه عبرة ينبغي أن نأخذ بها في تنظيم حياتنا الاجتماعيَّة والقانونيَّة والعلميَّة، وإذا كان ربنا

العظيم الذي يعلم كل شيء لا يقبل بالعيّنة أن تمثل المجتمع فكيف لنا نحن الذين لا نعلم بما في الصدور بقبول أن نغيِّبَ المجتمع ونُعمم نتائج العيّنة عليه؟!

وعليه: إذا أراد الباحث أن يستهدف نتائج علميَّة وموضوعيَّة فعليه بتقصي المعلومة لدى كل مفردة من مفردات المجتمع، وإذا تساءل البعض:

كيف يمكن لنا دراسة المجتمع بكامله؟

نقول:

أنَّ حجم المجتمع يختلف من بحث إلى بحثٍ آخر، أي: إنَّ حجم المجتمع يحدّده الموضوع قيد البحث أو الدراسة، ولم يتحدّد هكذا عفويًّا وفقًا لرغبة الباحث؛ ولأنَّ من أهداف المسح الاجتماعي الرّئيسة التعرُّف على معالم المجتمع ومواقفه وثقافته وأنماط حياته وقيمه، إذن: فمن الذي سيعكس واقع المجتمع إن أردنا معرفة تامة غير منقوصة؟ بالتأكيد لن يكون أحدٌ غير المجتمع ذاته[24].

ولأنَّ كلمة المجتمع كلمة عامّة غير محدّدة فإنّ الباحث سيكون أمام إشكاليَّة في المفاهيم إن لم يحدّد اصطلاحًا أيّ مجتمع يقصد أو يعني، فهل هو المجتمع الإنساني، أم إنَّه مجتمع القرية، أم المدينة؟ أم أيّ مجتمع يقصد من غير ذلك؟

لذا جاءت الضرورة لتحديد المصطلحات؛ حتى يُفك اللبس والغموض الذي قد يعلق في ذهن القراء والدارسين والباحثين.

---

[24] عقيل حسين عقيل، البحث العلمي (المنهج والطريقة)، القاهرة: المصرية للنشر والتوزيع، 2019، ص 173.

وبما أنَّ الباحث لا يمكن أن يتناول بالبحث مجتمعًا مجهولًا إذن: عليه بتحديد مجتمع بحثه كمًّا وموضوعًا وزمانًا ومكانًا، مع تحديد الفترة الزمنيَّة المستهدفة بالمسح الشامل، أو المسح باختيار العيّنات.

وبما أنَّ للبحث موضوعًا، إذن: للموضوع مجتمعٌ، وإذا كان موضوع البحث هو انحراف الأحداث في مدينة طرابلس، فيكون مجتمع البحث هو كل المنحرفين في مدينة طرابلس، وليس كل سكان مدينة طرابلس؛ ولهذا يستهدف المسح الشامل كل المنحرفين ولا يستهدف غيرهم، وعادة يتم التعامل في مثل هذه المواضيع مع الحالات المسجّلة في مؤسّسات الإصلاح الاجتماعي؛ ولذا فمهما كبر العدد ليس من الصّعب دراسته، وإذا كان من الممكن أن يجزأ موضوع الانحراف إلى مواضيع أخرى حسب نوع الانحراف لتكون الدراسة أكثر دقة وعلميَّة؛ وذلك كأن يجزئ الباحث موضوع الانحراف العام إلى مواضيع تتعلق بظواهر انحرافية كحالات السّرقة، وتناول المخدرات، والقتل عمدًا، والهروب من المنزل، وتخريب المؤسّسات العامة، أو هدر المال العام؛ فهذه المواضيع عندما يرتكبها الأحداث تندرج تحت موضوع عام هو انحراف الأحداث، ولكن الانحراف أنواع مما يستوجب تجزئتها وفقًا لكل نوع كما بينَّا[25].

وعليه: دراسة المواضيع الانحرافية السَّابقة بطريقة المسح الشامل تكون متيسرة ومن دون صعوبة، ولو أخذنا موضوعًا آخر وليكن: (حالات الطلاق في سوق الجمعة بطرابلس)، فإن جميع حالات الطلاق مسجلة، ويمكن معرفتها عن طريق المؤسّسات الرسميّة ذات العلاقة، ويمكن إجراء مسح شامل عليها، ومهما كبر حجم مجتمع البحث فلن يكون بحثًا لجميع السكّان، الذين يحصون كل ثلاثة

[25] المصدر السابق، 143.

أو خمس أو عشر سنوات عن طريق المسح الشامل الذي لم يكن هدفه جمع معلومات عن ظاهرة أو مشكلة بقدر ما يهتم بالحصر الكمي الذي أصبح ميسّرًا عن طريق الحاسوب الذي يضاف فيه كل مولود جديد، ويمحى منه كل من انتهت به الأيام إلى طلب الرحمة والمغفرة مع عالم الأموات أو الشهداء.

ولكن إذا كان من الضروري أن يتم اختيار عيّنة للبحث أو الدراسة بناء على الموضوع المحدد للبحث فإنَّ النتائج المتوصل إليها عن طريق العيّنة لا يمكن أن تمثل المجتمع الذي أخذت منه، بل إنَّها تمثل جميع أفراد العيّنة فقط.

ومع ذلك فالنتائج المتوصل إليها عن طريق البحث بالعيّنات تعطي مؤشّرات مهمّة لدراسة المجتمع ككل، أو البحث في مواضيع أخرى ذات علاقة بالنتائج المتوصل إليها[26].

الطريقة التجريبيَّة:

يُعدّ التجريب موقفًا مصطنعًا يُهيئ لإثبات حقائق أو بطلانها أو نفيها من خلال البحث والتقصي الدقيق ملاحظةً ومشاهدةً ومعايشةً، وفي العلوم الاجتماعيَّة والإنسانيَّة تكون الحقائق كامنة وتظهر في التصرفات والسُّلوك والأفعال والأعمال التي تخضع للمشاهدة والملاحظة، ولكن ليس من السهل إظهار الكامن للمشاهدة والملاحظة، وهنا تكمن الصعوبة العلميَّة التي تواجه العلوم غير الطبيعيَّة، فالذي يود الباحث مشاهدته وملاحظته يقع تحت سيطرة المبحوث وظروفه الخاصة التي قد لا يسمح بإظهارها للمشاهدة والملاحظة أو لا يسمح إلا بإظهار جزءٍ قليلٍ منها، وقد يُظهر عكس حقيقة الموقف أو الحالة أو الظَّاهرة التي هو

[2626] المصدر السابق، ص 216.

عليها؛ وذلك لاعتبارات تستوقفه أمام الآخرين وفي هذه الحالة تكون المعلومات المتحصل عليها عن طريق أداة الملاحظة والمشاهدة غير صحيحة وبالتَّالي غير علميَّة.

حتى التجريب عن طريق المجموعة الواحدة أو المجموعتين أو أكثر إذا اعتمدنا فيه على المشاهدة والملاحظة قد تكون أحكامنا غير صائبة مائة في المائة؛ لأنَّ المجموعة أو المجموعات التجريبيَّة والضابطة وإدخال المتغيّرات عليها أو على بعضها يجعل المجرَّب عليهم تحت تأثير مباشر من الباحث، وهنا قد يتصنَّع بعض المبحوثين أو حتى جميع المبحوثين إظهار التزام أو انضباط مبالغ فيه أمام الباحث، وهذه ليست بحقيقة؛ مما يجعل الباحث إن احتكم فقط بما يشاهده يقع في أخطاء تكون ضارة بالبحث؛ وذلك بأسباب السُّلوك المصطنع من قبل المبحوثين أو بعضٍ منهم.

ولذا؛ فإنَّ تعميم نتائج البحوث التي تتأثر بما سبق ذكره على مجموعات أخرى لم يتم اختيارها من ضمن المجموعات التجريبيَّة ولا الضابطة قد لا يفيد في معالجة المشاكل الاجتماعيَّة والنفسيَّة التي تتطلَّب مراعاة كل خصوصيَّة وما يتعلّق بها من ظروف موضوعيَّة.

وبما أنَّ دراسة الإنسان من حيث مشاعره وأمانيه، واستعداداته، وحبّه، وأمله، وكرهه مسألة يصعب التحكّم فيها والتأكد منها؛ لذلك من الصّعب إخضاع كل ذلك للتجريب المباشر؛ ولهذا لا يمكن إخضاع المشاعر للتجريب والمشاهدة، مما يجعل البحَّاث يلتجئون إلى استخدام الأساليب الإسقاطية لفهم النفس وما تكنّه من معلومات تفيد دراسة الحالة وتحليل المعلومات المتعلقة بها،

وكذلك تفيد تشخيصها من خلال معرفة العلل ومكامنها والأسباب وما يترتَّب عليها؛ لأجل التوصّل إلى النتائج وبلوغ مرحلة العلاج المؤسّس على العلم والمهارة.

ولأنَّ الإنسان عاقل ومجادل فإذن: بطبيعة الحال يكون قادرًا على أن يخفي ما في نفسه ولا يعلمه لأحد؛ ولهذا يكون الجدل والنقاش والمقابلة من أفضل الوسائل في الحصول على المعلومات من البشر؛ مما يجعل للمقابلات العلميَّة أهميَّة كبرى في مجالات العلوم الاجتماعيَّة والنفسيَّة؛ ولذا فإنَّ التجربة الاجتماعيَّة تحتاج إلى ظروف زمنيَّة ومكانيّة تختلف عن ظروف التجارب المعمليَّة وتجارب المختبرات التي تُجرى على الحيوانات والنباتات والأسماك والطيور وغيرها كثير.

فتجارب المعامل والمختبرات قد تعطي نتائج فورية، أمَّا تجارب البشر فتحتاج إلى زمن أطول كي تعطي حقائق وأدلة يحتكم بها أو يتحكم إليها، أو حتى لمجرد أن يتم التعرّف عليها، كلنا نريد الخبز ساخنًا، ولكن هل يمكن الحصول عليه من دون فترة تخمير؟ فما بالك إذن بالتجارب الاجتماعيَّة التي تحتاج إلى زمن أطول من زمن التخمير لتكون جاهزة للتعرُّف عليها استحسانًا واستئناسًا أو استغرابًا وتجنبًا؛ ولهذا تُعدّ الحياة في السّجن تجربة للسجين، ومن أراد من البحاث أن يعرف تلك التجربة فعليه أن يتوجّه إلى السّجن ليتعرَّف على حياة السجناء من خلال التجربة التي لم تُصطنع اصطناعًا كما هو حال التجارب في المعامل والمختبرات.

وكذلك العزوبيّة تجربة تتطلَّب البحث من قبل من يرغب أن يتعرَّف على ما فيها من إيجابيّات وسلبيّات وقضايا وهموم[27].

[27] عقيل حسين عقيل، فلسفة مناهج البحث العلمي، مالطا: دار الجآ، 1995، ص 141.

والزواج تجربة، يمكن التعرّف على ما فيه من ميز في أثناء التراضي والتوادد، وما فيه من عيوب في أثناء الغضب واستعراض المزايدات بين الزوج والزوجة.

وهكذا الطلاق مع أنّه حلّ فإنَّه تجربة مُرَّة، وأسبابه اختلاف، وعدم تقدير، أو فقدان ثقة، والأضرار المترتّبة عليه كثيرة، قد تلحق الأبناء، وقد تمتد لعداوات بين الأسر.

والكفر تجربة، والإسلام تجربة، والهروب من المدرسة تجربة، والبطالة تجربة، والعمل العام تجربة، والعمل الخاص تجربة تختلف عن تجربة العمل العام، والاستعمار تجربة، والجهاد تجربة، وعبادة بالنسبة إلى المسلمين إذا توافرت شروطه ومعطياته، وكذلك الحكم تجربة والنظم الاقتصاديَّة والسياسيَّة تجارب عندما تنتظم المجتمعات وفق فلسفتها، والحريّة تجربة، والعبوديّة تجربة، وفترة التعلّم والتعليم تجربة، والالتزام تجربة، وهكذا الحياة الاجتماعيَّة والإنسانيَّة مليئة بالتجارب التي تستوجب البحث والبحاث غافلون عنها.

وهكذا تتعدّد التجارب الاجتماعيَّة وتتجدّد وتتنوّع، وهي أفضل ميدان ومادة تجريبيّة لمن أراد أن يُقدِّم جديدًا، أو أراد أن يتقدَّم به في ميادين العلوم الاجتماعيَّة والإنسانيَّة، إنَّها التجارب العظيمة التي تُثري كل التخصصات العلميَّة وتمد المتعلمين بالخبرة والعبرة[28].

إنَّ احترامنا للعلوم الطبيعيَّة والاعتراف برسائلها العلميَّة يزداد؛ وذلك لالتزامها بإجراء التجارب في ميادينها، وهي تهدف إلى بلوغ كل ما من شأنه أن يُطوِّر الإنسان ويرفع من شأنه اقتصاديًّا وعلميًّا ومهنيًّا وحرفيًّا.

---

[28] المصدر السابق، ص 225.

أمّا العلوم الاجتماعيَّة فهي ما زالت متأخرة؛ لإن لم تلتفت إلى ميادينها المليئة بالتجارب؛ لتخصّها بالبحث حتى تكون لها هويَّة كما هو حال العلوم الطبيّة التي أصبحت لها هويَّة بها تتميّز وبها تعتزّ.

ومع أنَّ لكل علم ميدانه الخاص به وطريقته الخاصة به ومنهجه الخاص به فإنّ الغاية من البحوث العلميَّة هي الإنسان في كل العلوم والميادين البحثيَّة والجامعات ومراكز البحث العلمي، أي: كل التجارب والبحوث التي تُجرى تكون نتائجها من أجل الإنسان، فعندما تجرى التجربة على أرنب أو حمامة أو شجرة أو طائر أو سمكة أو نبات، أو بالمطلق كل ما يخضع للتجريب لم يكن هو المستهدف لذاته مع أنَّه المجرَّب عليه (الضحيّة)، فالإنسان قيمة رفيعة لا يُجرب عليه بما يُعرِّضه للخطر، بل يخضع للتجربة التي فيها يجد أهميّته واحترامه وتقديره ومكانته؛ وبسبب احترام العلوم الطبيعيَّة للإنسان وتقديسها له لم تخضعه للتجربة ولم تعرّضه للخطر.

ولهذا إذا أردنا للعلوم الاجتماعيَّة والإنسانيَّة أن تتقدّم فعلينا بالبحث والدراسة في التجارب الحياتيّة للمجتمعات والشعوب، وأن نُسخِّر العلوم لخدمة الإنسان لا للتجريب عليه.

ولذا؛ فمهما يحاول البعض أن يفضّل العلوم الطبيعيَّة على الاجتماعيَّة لا يتحقق له ذلك، وما الفصل الظَّاهري بينهما إلا لتبيان المسار المنهجي لكل منهما في ميادينه التي فيها يتميَّز؛ فعلى سبيل المثال: مجتمع كان عدد سكّانه قبل عشر سنوات مليوني نسمة، ثم أصبح الآن ستَّ ملايين نسمة؛ نتيجة الزيادة العادية ونتيجة الهجرة إليه من الخارج، وأنّ المستوى الاقتصادي للفرد وللأسرة كان تحت

المقبول نتيجة اعتماده على المجهود العضلي الذي يبذله الفرد في الزراعة، والصيد، والصناعات التقليدية، ثم خلال هذه الفترة (الأربعين سنة) انتقل البلد إلى الإنتاج الصناعي الحديث، مع اكتشاف النفط موردًا اقتصاديًّا كبيرًا، وانتشار المدارس والجامعات ومراكز البحث العلمي وانفتاحه على العالم وما لديه من علوم وتقنيات متقدمة، هذه حالة مجتمع من المجتمعات إن أخضعناه للبحث باستخدام وسيلتي الملاحظة والمشاهدة، نلاحظ الآتي:

ـ زيادة عدد سكان.

ـ ارتفاع مستوى الدخل.

ـ ارتفاع المستوى الثقافي.

ـ ارتفاع عدد المتعلمين ونسبتهم في المجتمع الذي كان يعاني من ويلات الجهل.

ـ التغيُّر السياسي.

ـ التغيُّر الاجتماعي من البساطة إلى التعقيد.

ـ ارتفاع المستوى الصحي، وتحسُّن أحوال المواطنين الصحيَّة.

إنّ مثل هذه الحالة تحتاج إلى بحوث ودراسات علميَّة؛ لمعرفة لماذا لم تستمر البساطة مع التقدّم والتطوّر الذي حدث على حياة المجتمع وظروفه؟

وهكذا ينبغي أن تتوجّه البحوث إلى البحث في تجارب الشعوب من خلال ميادين العلوم الاجتماعيَّة والإنسانيَّة لمعرفة أثر المتغيّرات السياسيَّة والاقتصاديَّة

والقانونيَّة والعلميَّة والصحيَّة والثقافيَّة وغيرها من المجالات الأخرى التي لا ينبغي الإغفال عنها.

ولذا فعلى العلوم الاجتماعيَّة ألا تغفل عن الآتي:

أ – استيعاب العلوم الطبيعيَّة وما وصلت إليه من حيث تأثيرها والنتائج المترتّبة على تطبيقاتها في الميادين الاجتماعية والإنسانيَّة، واستنباط الحلول للمشاكل المترتّبة عليها، أو للظواهر الناتجة عنها.

ب – ملاحظة النمو الاجتماعي ومتابعة والتطوّرات أو الانحرافات الطارئة عليه؛ وذلك لأنَّ حياة المجتمعات قابلة للتغيير والتغيّر حسب المؤثّر؛ ولهذا فالأديان السماويّة تؤثّر على حياة المجتمعات إيجابيًّا، وكذلك للأفكار الوضعية أثرٌ على حياة الإنسان سلبيًّا أو إيجابيًّا فللبوذيّة أثرها، وللكنفوشيّة أثرها، وللماركسيّة أثرها، وللرأسماليّة أثرها، ولا ننس ما للفلسفة من أثرٍ على الفكر الإنساني وسلوكه الثقافي والحضاري؛ إذ بها سادت حضارات ثم بادت وحلّت حضارات أخرى محلّها، وهكذا لن يبقى ثابتٌ إلّا وجه ربّك ذي الجلال والإكرام.

وعليه: كل متغيّر في حياة المجتمعات والثقافات والحضارات ينبغي أن يتوجّه البحاث الاجتماعيين إليه بالبحث والدراسة؛ لمعرفة كنوزه وأخذها قبل أن تزول أو تندثر؛ ولذا فأعظم العلوم تؤخذ من تجارب الأفراد والجماعات والمجتمعات والشعوب بمختلف ثقافاتهم وحضاراتهم وأديانهم وعلومهم ومعارفهم.

إذن: على البحّاث أن يراجعوا ويتفحّصوا تجارب الشّعوب من خلال دراسة الأفراد الذين انعكست على سلوكهم آثار متميّزة سلبيًّا أو إيجابيًّا أو الاثنين

معًا؛ لمعرفة عوامل أو أسباب التأثير الإيجابي والتأثير السلبي؛ لتأكيد الموجب وإبعاد السَّالب عنها أو تخليصها منه.

وإن قال قائلٌ: إنَّه لمن الصعوبة أن نكون متأكدين مما يقوله الإنسان تجاه ما يعمل أو يسلك؟

نقول:

ليست كل الظواهر الإنسانيَّة والاجتماعيَّة مبنيّة على التحيّز وعدم المصداقيّة، فدراسة أثر الدين أو التعليم أو الصّحة أو القانون، أو السجن، أو الديمقراطيَّة، أو الاقتصاد على حياة الأفراد والجماعات والمجتمعات عندما تعيشها تجربة لم يكن بالضرورة متأثّرا بتحايل المبحوث أو إنجازه الشخصاني، فما يودّ أن يعرفه الباحث بالبحث من تجربة السجين هو نظرة المبحوث إلى المؤسَّسة الإصلاحيّة لا نظرته إلى نفسه، أي: إنَّ موضوع الدراسة هو أثر السجن على حياة السجين وليس على السجن.

فلو أجزنا هذه الأسئلة المتعلّقة بأثر السّجن على حياة السجين وفقًا للآتي:

1- هل تحب السّجن؟ ولماذا؟

2- هل أثَّر السّجن في صحتك ونفسك، أم لا أثر له في ذلك؟

3- ما رأيك في نظام الرعاية داخل السّجن؟

4- هل تُفضِّل حياة السّجن على حياة الأسرة بالرّغم من القيود التي تلاقيها فيه؟

5- هل حياتك لفترة حبيسًا بين أربعة جدران تجربة في حياتك العامة؟

6- من وجهة نظرك ما هي الآثار السلبيَّة والإيجابية على حياتك في السجن؟

7- هل تعتقد أنَّ السجن مؤسَّسة إصلاحية أم عقابية؟

8- من خلال تجربتك حياة السّجن وظروفه، هل تنصح بالالتزام والاحترام الذي يُبعد عن دخول السّجن؟

9- يقال: إنَّ السجن للرّجال، هل تصدِّق ذلك القول؟ ولماذا؟

كل الإجابات عن مثل هذه الأسئلة تعبّر عن تجربة نتائجها لا تتأثّر بخصوصيَّة المبحوث؛ لأنَّ موضوع التجربة يتعلّق بالمؤسَّسة الإصلاحيّة ولا يتعلّق بشخصيّة السجين، وعليه إنّ إجابات المبحوث عن المؤسَّسة لا تحتاج إلى تحايل من المبحوث ولا تحايل من الباحث بأساليب إسقاطية على المبحوث، إنَّها تجربة واضحة الأسباب وواضحة الأهداف مما يجعل البحث أو الدراسة للتجربة علميَّة وموضوعيَّة.

أمَّا إذا كانت الأسئلة منصبَّة على شخصية المبحوث رغم معايشته للتجربة الإيوائيَّة (داخل السجن)، فإنَّ هذه الأسئلة المحدّدة من خلال المشاهدة أو الملاحظة أو الاستبيان أو المقابلة التي بها يستهدف الباحث جوهر المبحوث ستكون مختلفة تمامًا عن أسلوب الأسئلة السَّابقة من حيث الهدف والفلسفة[29].

فعلى سبيل المثال: إذا كانت التجربة هي حالة سرقة فتكون الأسئلة على النحو الآتي:

[29] المصدر السابق، 236.

السُّؤال الأوَّل:

ـ لماذا سرقت؟

فقد تكون الإجابة:

ـ لم أسرق، وهذه الإجابة قد تكون على احتمالين:

ـ الصدق.

ـ الكذب.

فإن كانت صادقة يستوجب التسليم بها، وإن كانت كاذبة، يجب معرفة الأسباب التي دعته إلى الكذب، وهذه هي طريقة الأسئلة المباشرة.

ويمكن صياغة السُّؤال عن الظروف:

ما هي الظروف التي جعلتك تسرق؟

ويمكن أن تكون الإجابة عن هذا السُّؤال، بـ: (لم أسرق)، وهذه الإجابة هي الأخرى تحتاج إلى التأكد منها، وهذا النّوع من الأسئلة المباشرة أيضًا.

وقد يصاغ السُّؤال بشكل آخر:

ـ هل من حق المواطن أن يسرق إذا لم تُشبع حاجاته؟ أو إذا لم تتوافر له فرص العمل؟

هذا السُّؤال لا يُعد سؤالا مباشرا؛ وذلك لعدم توجيهه لحالة المبحوث الخاصة.

فإذا كانت الإجابة: بلا، ينبغي أن يلحق هذا السُّؤال بسؤال آخر هو: ما هو الحلّ من وجهة نظرك؟

السُّؤال الثاني: أن تكون الإجابة:

(بنعم) أو (لا) .... نعم لا

-إن الالتزام الديني لا يشجع على السّرقة. [ ] [ ]

-إن البطالة تشجع على السّرقة والانحراف. [ ] [ ]

-أُفضّل البقاء في السّجن عن الحياة خارجه إذا لم تحل المشكلة.[ ] []

-أفضل الخروج من السّجن عن البقاء فيه. [ ] [ ]

-الحياة الطبقيَّة تستوجب من الفقير أن يسرق. [ ] [ ]

-القتل حق إذا تحكَّم آخر في حاجاتك. [ ] [ ]

-السّرقة لا تُعبر عن الاحتياج دائمًا. [ ] [ ]

-الاعتراف بأنّني سارق يعني: لا أخلاق لي. [ ] [ ]

-السّرقة أقصر طريق لتوفير متطلبات الحياة. [ ] [ ]

-السّارق يجب أن تقطع يده [نعم] [لا] ولماذا؟

-أنا لا أحترم السرَّاق [نعم] [لا] ولماذا؟

-سرقة المواطن عيب [نعم] [لا] ولماذا؟

-سرقة الحكومة جائزة [نعم] [لا] ولماذا؟

هذه الأسئلة وما يماثلها تعد إسقاطية، ويمكن أن يتحايل فيها الباحث، ويتحايل فيها المبحوث على السّواء؛ إذ يتلاعب الباحث من حيث صياغة الأسئلة، ويتلاعب المبحوث من حيث إعطاء الإجابات؛ فتكون النتيجة كلها مبنية على التحايل، والتلاعب.

لهذا يتّضح الفرق بين أهداف التجارب في المثال السَّابق في كلتا الحالتين، لقد جرَّب الإنسان حياة السجون، إلّا أنَّ الأسئلة التي وجهت إليه تُمكِّن الباحث من معرفة نتائج التجربة بموضوعيَّة بعد معرفته للأسباب والعلل الكامنة وراءها، ويمكن إيجاد الحلول والمعالجات العلميَّة والعمليَّة لها.

أمّا التجربة التي تستهدف جوهر الإنسان في وجود عقاب وقوانين لا تحمي المغفلين كما يقال؛ فإنَّ الإجابات المتحصّل عليها يحفّها الشّكّ من كل جانب، فلا يستأنس لها، وعليه: يتعذَّر وصف نتائج تجربتها بإنَّها علميَّة سواء اعتمدنا على مشاهداتنا أم ملاحظاتنا أم مقابلاتنا أم استبياناتنا أم أساليبنا الإسقاطية أم لا؛ لذا فإنَّ مُعظم نتائجها موضوع شك، وبالتالي: الإدعاء بالتصديق التجريبي فيما يقوله المبحوث أو يلاحظه الباحث مسألة لا يمكن الركون إليها، ولا التسليم بها، وبما أنَّ الجوهر لا تراه الأبصار ليكون تحت سيطرة المشاهدة، والإنسان جوهر فكيف نسلم بالشّكل ولا نسلم بالجوهر؟

وعليه: فإنَّ السُّلوك الظَّاهر يمكن أن يكون مصطنعًا ولا يُعبِّر عن طبيعة الموقف أو الظَّاهرة المنعكسة في الفرد أو الأفراد.

وإذا تساءل البعض:

هل تكون أسباب الظَّاهرة أو المشكلة في طبيعتها تماما كالأسباب المحققة للموقف الاصطناعي؟ وبصيغة أخرى: هل هناك فروق بين الطبيعة والاصطناع؟

فإذا كانت الإجابة بنعم.

إذن: لماذا الاحتكام إلى التجريب على مواقف لا تستوجب ذلك؟

الاحتكام إلى التجريب من أجل أن يُحكم على الظواهر الطبيعيَّة موضوعيًّا بطبائعها؛ ولذا لا ينبغي أن يُحكم على ضمائر النَّاس بنوايا الباحث أو البحّاث، بل الحكم عليها بها وليس بخارجها.

وإذا كانت الإجابة بلا، فإنَّ النتيجة تكون طبيعيَّة أو اصطناعيّة لا الاثنين معًا، وفي هذه الحالة لا يوجد اختلاف، ويبيّن الفيلسوف توماس هوبز ذلك بقوله: "إنَّ الطبيعي هو ما نجده على ما هو عليه، أمَّا المصطنع فهو ما يقع داخل حدود الفعل البشري"[30].

وإذا تحدثنا عن السُّلوك الفردي، أو الثنائي، أو الجماعي، أو المجتمعي يكون حسب ما يتراءى لنا، وهذا ليس بطبيعي، ويكون السُّلوك صناعة وأحيانا افتعالا؛ ولهذا لا يمكن أن يكون الفعل هو المفتعل، فالطبيعي هو الموجود الحق وكما هو عليه لا كما يجب أن يكون حسب رؤية الباحث في الفعل الاجتماعي والظواهر الاجتماعيَّة.

والفرق بين الطبيعي والاصطناعي:

إنَّ الطبيعي يوجد أوَّلا ويكون التفكير فيه ثانيًا.

---

[30] إمام عبد الفتاح، توماس هوبز فيلسوف العقلانية. دار الثقافة للنشر والتوزيع، 1985 م. ص 293.

أمَّا المصطنع فيكون التفكير فيه أوَّلا ثم يحدث ثانيًا؛ ولهذا فالطبيعي سواء أكان ظاهرة، أم سلوكًا، أم موقفًا مثيرٌ، أمّا إذا كان مصطنعا فتكون الظَّاهرة أو السُّلوك، أو أيّ فعل هو مثارٌ، أي: إنَّ الأولى مثيرة بذاتها، أمّا الثانية فمثارة من خارجها.

طريقة دراسة الحالة:

إنَّها الطّريقة العلميَّة المتّبعة في دراسة الحالات الفرديَّة والجماعيَّة والمجتمعيَّة، وهي التي تهتم بالبحث في أعماق الظّواهر الاجتماعيَّة التي تظهر في كل وقت من الأوقات، وهي الطريقة التي تولي اهتمامًا خاصًّا بتشخيص كل حالة من الحالات المبحوثة والمدروسة؛ ولذا تركّز عمليَّة التشخيص على المعلومة وتحليلها مع مقابلة عناصر الحالة لأجراء التشخيص مباشرة على الحالة، ومن يعاني من تأزُّمات.

وقد تكون الحالة موضوع البحث والدِّراسة خيرة، من أجل أخذ العبرة واستنباط المبادئ التربوية والاجتماعيَّة التي تُسهم في تنظيم المجتمع وبناء شخصيته المتكاملة، وقد تكون شريرة مما يجعل التركيز عليها والاهتمام بها مسألة ضرورية من أجل إصلاح العناصر التي انعكست الحالة في سلوكهم المرفوض اجتماعيًّا؛ ولهذا فالحالة كما عرَّفها اللغويون هي: "ما عليه الإنسان من خير وشر يقال: حال وحالة"[31].

إذن: طريقة دراسة الحالة لم تقتصر على دراسة الحالات المشينة، أو السّيئة فقط، بل كذلك تهتم بدراسة الحالات ذات المضمون الإيجابي الذي هو الآخر يؤدّي إلى بلوغ نتائج جليلة تفيد الفرد والأسرة والمجتمع.

[31] شرح ابن عقيل: الجزء الأول، المكتبة المصرية، بيروت: 1988، ص 568.

وتوصف الحالة الفرديَّة بأنَّها سيرة متكاملة ومتلاحقة يمكن التعرّف عليها من خلال مراجعتها وتتبّع مراحل تطورها، أو تعقدها، وتحديد عناصر القوَّة والضّعف من خلال معرفة مضمونها والمنظومة القيميَّة والأخلاقيّة التي انتظمت عليها، وأظهرتها إلى مستوى الحالة الخيرة، أو الشريرة.

ومع أنَّ الله تعالى قد خلق الإنسان في أحسن تقويم فإنَّ البعض بأسباب وعلل تستوجب البحث والدِّراسة ارتدّ عن طبيعة خلقه، وعن الفضائل الخيّرة، والقيم الحميدة التي ينتظم المجتمع عليها، وارتضى أن يكون في أسفل السَّافلين.

وبما أنَّ الله خلق الإنسان في حُسن تقويم، فلماذا لم يحافظ على حُسن تقويمه؟

بالتأكيد مجموعة أسباب وعلل تتداخل في حالته؛ لتدفعه بعد ضعفٍ إلى مواطن الفساد والدّونية، ومن بين هذه العلل: الطّمع فيما ليس له فيه حق، وكذلك الحاجة وشدة ضغوطها، والجهل بالأمر (أي أمر)، والانقياد إلى الرَّغبة والشَّهوة، وسوء التربية، والتشويش من قبل الغير، والانحرافات السياسيَّة والاقتصاديَّة في البلد، وضعف المناهج والمقررات التعليمية، وغفلتها عن الرِّعاية، والوقاية، والتوجيه، والإرشاد.

ولذا اهتم الأخصائيون الاجتماعيون والقانونيون كثيرًا بدراسة حالات الأفراد؛ من أجل إعادتهم إلى سماحة المجتمع التي تستوعبهم أفرادًا وجماعات فاعلين، ولأجل إخراجهم من المستويات السُّفليَّة التي ارتضوا الرّكون إليها، ثمَّ الارتقاء بهم إلى المستويات العليا التي تُحدث لهم النُّقلة إلى المستقبل الأفضل؛ ولهذا فإنَّ باب

التوبة مفتوحٌ للذي خُلق في أحسن تقويم، والقوانين الموضوعيَّة تسن لذلك وبما لا يتعارض مع الأعراف المواكبة للنُّقلة الإنسانيَّة.

فالإنسان مُعرَّض للإصابة البدنيّة، والإصابة النفسيَّة، والصحيَّة، وفي كلّ الحالات هو مُعرَّض، مما يستوجب رعايته والعناية به، فكانت مهنة الخدمة الاجتماعيَّة مهنة سبَّاقة في خوض هذا المجال بمهنيّة وتفنن، بهما تدرس الحالة، وتستوعب عناصرها سواء أكانت حالة فردٍ، أم جماعة أم مجتمعٍ. مهنة تأسست على قاعدة: (ليس عيبًا أن يغفر المجتمع لأفراده أخطاءهم، وليس عيبًا على الأفراد أن يكفِّروا عن سيئاتهم)؛ قال تعالى: {فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ}[32]، وقال تعالى: {وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ}[33].

هذه سُنَّة الحياة والله تعالى غفور رحيم، فلماذا لا يكون العباد على هذه السُّنَّة الحميدة يغفرون ويتراحمون؟!

ولأنَّ الله الذي خلقنا جميعًا قادرٌ على أن يغفر الذنوب جميعًا فما بالك نحن الذين نخطأ ونصيب، ولِمَ لا نغفر لمن يهتدي إلى الحق والله تعالى يقول: {وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى}[34].

فمهنة الخدمة الاجتماعيَّة والعلوم القانونيَّة تؤمن بأنَّ الإنسان لا ييأس، ولا يقنط حتى وإن وقع تحت ظروف قد جعلته منحرفًا؛ لأنَّ الاستسلام لظروف

---

[32] المائدة: 39.

[33] الأنعام: 54.

[34] طه: 82.

الحالة هو نتيجة ضعف الإيمان بإمكانيّة الإصلاح، والعلاج الذي بأسبابه تتغيّر الأحوال من سيئة إلى حسنة، وكثيرٌ من الذين انحرفوا تابوا من انحرافاتهم إلى الطّريق القويم وأصبحوا من المفلحين مصداقًا لقوله تعالى: {فَأَمَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَعَسَى أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ}[35].

ولأنَّ الله تعالى خلق كلّ فردٍ بذاته؛ إذن: الله جعل لكل فردٍ خصوصيَّة بها يتميَّز عن غيره ولو كان توأمه، ومن هنا انطلقت مهنة الخدمة الاجتماعيَّة إلى دراسة الحالات الفرديَّة حالة بحالة، وهي متيقّنة مهنيًّا أنّ لكلٍّ خصوصيته من حيث: المشاعر، والأحاسيس، والقدرات، والمهارات، والخبرات، والاستعدادات، ومن حيث: أثر التعلّم والتعليم، والثقافة، والدين، والعرف، والقيم، والفكر، والمعلومة، مما يتطلَّب عدم التعميم، أي: إنَّ أخطاء كثيرة، وغير مفيدة، وقد تكون ضارة إن تم تعميم الخصوصيَّات على الآخرين، أو تقييمهم وفقًا لمعطياتها[36].

إذن: ينبغي لنا مراعاة خصوصيَّة الفرد، أو الجماعة، أو المجتمع نتيجة وجود فروق فرديَّة؛ بأسباب القدرات، والاستعدادات، والأحاسيس، والمشاعر، والأديان، والأعراف، والقيم، والثقافات، والتعاليم التي تختلف من بيئة إلى أخرى. فقد تكون المشكلة واحدة، كأن تكون حالة سرقة اشترك أفراد كثيرون في ارتكابها، لكن الأسباب التي دعت للسرقة ليس بالضرورة أن تكون واحدة، بل تختلف من فردٍ إلى آخر، مما يجعل دراسة حالة كل فرد تختلف عن حالة الآخر؛ ولهذا فدراسة كل حالة تتطلَّب معلومات وافية عن كل حالة، وكذلك تتطلَّب تحليلًا موضوعيًّا لمتغيّرات كلّ حالة من الحالات المدروسة، ثم تشخيصًا وافيًا للحالة مباشرة؛ تفاديًا

[35] القصص، الآية 67.

[36] المصدر السابق، ص 264.

للتغييب، أي: يجب تحليل المعلومات وفقًا لكلّ خصوصيَّة؛ تجنبًا لأخطاء التعميم، ومن ثمَّ يكون التشخيص للحالة من خلال مقابلات مباشرة مع الفرد، أو الأفراد ذوي العلاقة بالحالة قيد البحث والدِّراسة.

وطريقة دراسة الحالة لا تتوقف عند حد تجميع البيانات والمعلومات وإبداء المقترحات، أو التوصيات التي قد يؤخذ بها، وقد لا يؤخذ، بل هي طريقة تستهدف الإصلاح والعلاج بما تستند عليه من تعمُّق، وتتبع في أثناء البحث، وبما يتوصّل إليه من حلول ومعالجات.

والإصلاح هنا ليس تقديم المساعدة، فتقديم المساعدة هو من صميم عمل المؤسَّسة، أو الجهة المسئولة، ولتبيان ذلك نفترض أنّنا سندرس حالة مجتمع طبقي، وليكن هذا المجتمع مسلمًا باعتبار أن موضوعه يحتوي على عناصر الإصلاح فيه، فتكون الزَّكاة هي الوسيلة الإصلاحية، ولم تكن من أجل استمرار الحاجة، وتقديم المساعدة، وإذا تساءل البعض:

لماذا؟

يجاب عليهم بإنَّها: الحق المعلوم، وبما إنَّها الحق المعلوم فهي لم تكن مساعدة، أو منّة من أحد، بل ركنًا من أركان رسالة الإسلام الحنيف، فإذا أنهدم هذا الرُّكن اختل التنظيم الاجتماعي السليم، وأصبحت حالة المجتمع تحتاج إلى دراسة، وتحليل، وتشخيص، وعلاج.

يتضح من الفقرة السَّابقة أهميَّة فلسفة الزَّكاة، ولكن إذا تساءل آخرون:

لماذا لم يتحقّق الإصلاح مع وجود فريضة الزكاة؟

نقول:

لم يتحقّق ذلك: نتيجة عدم الالتزام بإعطائها، فلو التزم المسلمون بإخراج الزكاة من بداية ظهور إسلامهم لما وُجِدَ اليوم بينهم فقير وغني، بل يكون المجتمع الإسلامي مجتمع المساواة التي تستهدفه فلسفة الإصلاح الاجتماعي التي نحن بصدد الكتابة عنها في طريقة دراسة الحالة؛ لأنَّ الإصلاح علاج لِما أعطبه الدّهر ظلمًا، أمَّا المساعدة فهي التلفيق المؤقت الذي أهلك المدن والقرى عبر التَّاريخ، قال تعالى: {وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ}[37].

ولذا؛ فالإصلاح يؤدّي إلى الاعتماد على النّفس، أمَّا المساعدة فتؤدّي إلى الاعتماد على الغير.

وعليه: فطريقة دراسة الحالة تعتمد إصلاحًا على البدء مع الحالات الفرديَّة من حيث هم، وكما هم عليه؛ وذلك لأجل بلوغ ما ينبغي لهم أن يكونوا عليه وهو الأفضل والأحسن والأجود.

وبما أنَّ الباحث يود أن يكون المبحوث أو المدروس حالته متعاونًا، إذن: ليس له بدٌّ إلّا أن يبدأ معه من حيث هو؛ حتى يشعر ويحسّ بأهميته من خلال مراعاة الباحث، أو الأخصائي الاجتماعي لظروفه الخاصَّة التي أوقعته في الانحراف إن كان من المنحرفين.

وفي دراسة الحالات ينبغي للباحث أو المتخصّص الاجتماعي والقانوني أن يكون فطنًا ومتيقظا؛ حتى لا يقع في الفخّ الذي ينصبه له أولئك الذين انحرفوا ذكاءً في غير محله، فهؤلاء بذكائهم قد يقعون البحث فيما يبعده عن نواميس

---

[37] هود، 117.

المهنة: مبادئها، وأهدافها، وأخلاقياتها التي تستوجب من الباحث أن يكون فطنا بما حوله من مظاهر وسلوكيّات، وأساليب التوائية قد ينتهجها المنحرفون في أثناء إجراء عمليات الدِّراسة معهم.

ولذا؛ فعلى الأخصائي الاجتماعي والقانوني أن يكون مرنًا في تعامله مع المبحوثين والعملاء، مستوعبًا لهم ولما يعانونه من هموم، فلا يستخدم معهم كلمات قد تؤدّي بهم إلى التخندق حول أنفسهم، كأن يقول لهم: إنكم مخطئون، أو منحرفون، أو سُرَّاق، وغيرها من الجمل التي تجعل الباحث وكأنَّه طرفٌ وخصمٌ.

ومن ثمَّ فالأخصائي الاجتماعي والباحث القانوني الماهر يعرفان أنّ هذه الصّفات لم يولد الإنسان بها، ولم يُخلق عليها، ولكن عندما تحدث تكون من ورائها أسباب كثيرة تستوجب البحث من أجل الإصلاح، والعلاج، وإحداث النُّقلة إلى الأجود النافع[38].

إذن: من البداية ينبغي للمعاملة المهنيّة بين الباحث والمبحوث أن تكون علميَّة وإنسانيَّة وفنيّة؛ من حيث التعامل القانوني والانتباه لكل المتغيّرات التي قد تظهر في أثناء الدِّراسة، وتجميع المعلومات عن الحالة.

وهذا الأمر يستوجب مراعاة مستويات المبحوثين، أو المدروسين: العقليَّة، والصحيَّة والاجتماعيَّة والتعليميّة والاقتصاديَّة؛ لكي تكون نقاط انطلاق في اتجاه إصلاح الحالة وعلاجها.

وتهتم طريقة دراسة الحالة بتثبيت الإرادة التي تعدُّ هي القوَّة الدّافعة للفعل، أو السُّلوك المرتكب الذي قد يكون إيجابيًّا، أو يكون سلبيًّا، مما يجعلنا نقول: إنَّه

[38] المصدر السابق، 271.

ليس كل فعل مرتكب بإرادة حرّة يعبر عن أعمال خيِّرة، فالفرد قد ينحرف بإرادته، وقد ينحرف بمؤثّرات خارجيّة؛ ومع ذلك حتى ما يرتكبه الفرد في يوم من الأيام قد يأتي يومٌ آخر فينكره، وهذه ميزة بها يتراجع الفرد عمَّا ارتكب أو اقترف، وفي مثل هذا الأمر يقول: أوتوران: "كل إنسان يريد وفي الوقت نفسه ينكر ما يريد؛ لأنَّه ثمّة شعور بالذّنب يصاحب الإرادة عادة"[39].

ومع أنَّ الإرادة كما عرّفها العلماء السوفييت هي: "التصميم الواعي للشخص على تنفيذ فعل معيّن، أو أفعال معيّنة"[40]، وبالرّغم من إنَّها التصميم الواعي لارتكاب الأفعال، فإنَّ إنكارها في ظروف معيّنة يمكن تحقيقه بإرادة صاحب الإرادة، (الفرد المرتكب للفعل).

وعليه:

في الوقت الذي ينبغي لنا فيه مراعاة إرادة المبحوث، أو المبحوثين عند دراسة الحالات، وبخاصّة ذات التأثير السَّالب على حياة الفرد، أو المحيط الاجتماعي له، في الوقت ذاته على الباحث أو الباحثين العمل على تهذيب إرادة المبحوث سواء أكان فردًا، أم اثنين، أم أكثر؛ فتهذيب الإرادة يؤدّي إلى التطابق بين ارتكاب الفعل والاعتراف به؛ ولذا فتهذيب الإرادة يؤدّي إلى تصحيح السُّلوك؛ ولهذا الاعتراف بالفعل لم يكن إدانة في العلوم الاجتماعيَّة والنفسيَّة مع أنَّه إدانة قانونيّة.

وعليه:

---

[39] محمود حسن، مقدمة الخدمة الاجتماعية، دار النهضة العربية، بيروت، ص 143.

[40] الموسوعة الفلسفية، وضع لجنة من العلماء الأكاديميين السوفيتيين، إشراف، م. روزنتال، ب. يودين، " ترجمة: سمير كرم، بيروت، دار الطليعة، الطبعة الخامسة، 1985، ص 17.

تُعدُّ مهام البحَّاث القانونيين والأخصائيين الاجتماعيّين والنفسيّين إنسانيَّة؛ غايتهم الإصلاح وليس العقاب، فالمبحوث أو العميل عندما يعي بحاله وبمخالفته للفضائل والقيم الحميدة التي ينتظم مجتمعه عليها يستجيب للإصلاح والعلاج المستهدف من قبل الباحث؛ ولهذا من المهم أن يُشرِك الأخصائي الاجتماعي المبحوث في تشخيص حالته؛ ليكون متقبّلا من بعده لِما يؤدّي إلى الإصلاح والعلاج؛ ولأجل ذلك ينبغي على الأخصائي الاجتماعي أن يراعي عند تناوله الحالات بالدِّراسة تداخل الإرادة مع بناء الذَّات المتكون من قيم المجتمع وتاريخه المنعكس على شخصية الفرد.

والذَّات هنا لا يقصد بها شخصيَّة الفرد، بل تلك القيم التي تشربها الأفراد وقد تميزوا بها ثقافةً وسلوكًا، أي: إنَّ الذَّاتيَّة هي المتكوِّنة من ثقافة المجتمع ودينه وأعرافه وقيمه وفضائله؛ ولهذا إذا ضعف البناء الاجتماعي والتربية الاجتماعيَّة ضعفت الذَّات عند الأفراد والجماعات، وإذا ضعفت الذَّات ضعف الانتماء الودّي مع المجتمع (مع متطلباته، وأوامره، ونواهيه) فتكون العلاقة الفرديَّة مع المجتمع علاقة نفعيَّة، وليست علاقة قيم وأخلاق مما يؤدّي إلى الانحراف المتحقق من الانسلاخ عن الذَّات والتمسك بالأنا التي تمركز كل شيء عليها، ولا ترتضيه للآخرين، ولنا وجهة نظر بأنَّ الأنا تختلف عن الذَّات، فالأنا شخصانية، أمَّا الذَّات فاجتماعيَّة، والأنا فرديَّة والذَّات عامّة، ولقد تمَّ فكّ هذه الملابسات المتداخلة في مؤلَّفنا:(خماسي تحليل القيم).

ولكي تستمر الذَّات قويَّة في تكوين الأفراد، ينبغي لنا العمل على ديمومة العلاقات الاجتماعيَّة في الاتجاه الموجب، وإذا شعر الفرد بتلك الأهميَّة ازداد تمسّكا بها، وإذا ازداد تمسّكا بها دامت حالته الخيرّة في اتجاه المحافظة على سلامة الذَّات

التي تتطلَّب وضوح المبادئ، ووضوح الأهداف، وهكذا يتحقّق العلاج ويستمر، ولكن إذا ارتبط الإصلاح بالماديّات فإنَّه قد ينعكس بانتهاء المصلحة الماديّة ولا يكتسب صفة الديمومة، أمَّا إذا ارتبط بقيم خيّرة تتعلّق بالفرد والمجتمع الذي ينتمي إليه يصبح للإصلاح صفة الدّيمومة ما دامت القيم والفضائل بين النَّاس أفرادا وجماعات ومجتمعات.

إنَّ بناء الإرادة وتحقيقها، وديمومة الإصلاح لا يتحقّقان إلّا بوجود تفاعل مسبق يتم بين الباحث والمبحوث، ثم بين المبحوث والموضوع؛ لأنَّ التفاعل هو الذي يحقّق التفاهم ويؤدّي إلى التفهُّم؛ فمن دون تفاهم وتفهُّم لا تبنى الذَّات، ولا تتحقّق الإرادة، ولا يتم الإصلاح والعلاج.

ولا ننس دور الخبرة في دارسة الحالة التي بها يتمّ استيعاب المبحوث وموضوعه الذي فيه تكمن الظّروف والأسباب؛ فبالخبرة يتم تقبل المبحوث أو العميل (هو كما هو)، والعمل على إصلاح حالته وعلاجه من همومها، والوصول به إلى ما ينبغي له أن يكون عليه، مع فتح آفاق المستقبل أمامه؛ حتى تتحقّق له النُّقلة من الحالة السَّابقة إلى المستقبل الأفضل.

طريقة تحليل المضمون:

تحليل المضمون: طريقة علميَّة لها خطوات منهجيَّة تنطلق من إشكاليَّة بحثيّة، وتهدف إلى معالجات وإصلاحات، بغرض تغيير الأحوال وتحسين الظروف وفقًا لِما هو أفضل وأفيد وأنفع، وبغاية صناعة المستقبل المتجدّد والمتطوّر.

فتحليل المضمون يُمكّن من معرفة المتغيّرات ذات العلاقة بالمشكلة القانونيَّة، أو الإشكاليَّة البحثيَّة، وفرز عناصرها، ومكوّناتها، وتكراراتها وفقًا للنوّع، والصّنف،

والقيمة، والفكرة، والخاصيّة، والصّفة، والدَّور الذي تلعبه هذه المتغيّرات، والأثر الذي تتركه، سواء أكان أثرًا سلبيًّا أم إيجابيًّا، وصولًا إلى نتائج قابلة للقياس والتفسير.

والمضمون دائمًا يحمله المحتوى العام للنصّ أو الخطاب أو الوثيقة والمخطوطة، والمؤلف أو القوانين والتشريعات التي تُسنّ والمبادئ التي تُقرّ، والأهداف التي تُرسم، والقرارات التي تُتخذ؛ ولذا فالمضمون الظَّاهر تحمله الكلمة والفكرة والقيمة، ويتجسد بالعمل والفعل والسُّلوك.

فالمضمون مكمن الشيء، وروح القانون ومركز ظهوره واختفائه، وهو الذي يكمن في الكلمة، والفكرة، والجملة التي ينقلها المحتوى، وبتكرار الفكرة، أو القيمة، أو الكلمة، يتمّ التأكّد بحثًا من الاتجاهات الفكريَّة، والسياسيَّة، والاقتصاديَّة، والاجتماعيَّة، والتربويّة التي يحتويها النصّ، ويرفعها المضمون سواءً أكانت ذات اتجاهات سلبيَّة أم إيجابيَّة، والمضمون الذي يحمله النصّ كمحتوى، هو ما يدور عليه الحديث، أو الكلام، أو ما يُعبَّرُ عنه في الخطاب؛ ولهذا يحمل الكتاب مضمونه في عنوانه، ويحمل الكتاب ما يحتويه في صفحاته؛ ولهذا فالمضمون الكيفي لا يشاهد، ولكن يُدرك إدراكًا من المشهد، والصّورة، والارتسام، والحركة، والمعنى، والفعل، والسُّلوك، مما يجعل المضمون كامنًا في الكلمة، والفكرة، والموضوع، كما يكمن الزّيت في حبَّة الزيتون، ويكمن الكائن الحي في الخليّة، ويكمن الزبد في اللبن.

ولتحديد المضمون دلالة ومعنى، ينبغي لنا تحديد المحتوى؛ إذ إنَّ البعض يظن أنَّ المضمون هو المحتوى، وهنا أقول:

المضمون شيء، والمحتوى شيء آخر؛ فالمضمون كما سبق تحديده، هو الذي يتوحّد في الكلمة، والجملة الناقلة له مع الفكرة والمحتوى في وقت واحد، مثل: توحّده في رسالة رسول الله محمَّد عليه الصَّلاة والسَّلام إلى هرقل ملك الرُّوم: (أسلم تسلم) هذه الرِّسالة محتوى متكوّن من كلمتين: وفي الكلمتين يكمن المضمون، وفيهما تُحمل الفكرة وتتجلَّى، ولكن ليس دائمًا يحدث مثل هذا الأمر، بل في مُعظم الأحوال ينتشر المحتوى في خطابه، أو نصّه الذي فيه يكمن المضمون كما يكمن الزبد في اللبن؛ فالمضمون يُدرك، ويُستنبط، ويُستقرأ استقراءً حتى يُستدلّ عليه معرفة، أمَّا المحتوى فغير ذلك.

فالمحتوى content: هو ما يشتمل عليه النصّ، أو الخطاب، أو الكتاب، أو الموضوع، فمحتوى الكتاب من الغلاف إلى الغلاف، ومحتوى الخطاب أو النصّ من أوَّل كلمة قيلت أو كُتبت إلى آخر كلمة قيلت أو كتبت، مما يجعل تحليل المحتوى يتمركز على التكرارات اللفظية للكلمة، أو الجملة، أو الفكرة، أو الموضوع[41].

والمحتوى غير المضمون؛ فالمضمون هو ما يتمركز عليه المحتوى من فكرة عامَّة، أو أفكار متجزئة، والمحتوى هو ما يمتدّ بالكلمة من خطاب أو نصّ حتى يشاهد ويُلاحظ؛ ولذا فالمحتوى بلا مضمون كالحديث من دون معنى، والتنظير من دون دلالة.

وعليه: يتكوّن مصطلح تحليل المضمون content analysis من جزأين:

[41] عقيل حسين عقيل، منهج تحليل المعلومات وتحليل المضمون، مالطا: دار الجأ، ص 140.

ـ الأوّل: التحليل.

ـ الثاني: المضمون.

وكلمة تحليل تعني: تفحُّص عن وعي وانتباه يُميِّز بين الدقيق والأدق منه، والمضمون هو المكمن الدلالي الذي تتمركز عليه الفكرة، أو القيمة، أو النصّ والخطاب وما يحمله من معنى للمفاهيم التي يتمّ عرضها، أو قولها، أو كتابتها؛ ولذلك فالتحليل العلمي عندما يستهدف الدَّلالة على وحدة الموضوع وبؤرة اهتمامه يكون منصبًّا على المضمون، ويتمّ التعرّف على المضامين من خلال التعرّف على محيطها الذي استوعبها، ومن خلال الإطار العام الذي يحتويها، والذي يميّزها عن غيرها من المواضيع، وتعدُّ المواضيع ذات أهميَّة إذا كانت لها مضامين، ويعدُّ المضمون هو لبّ المحتوى، وبؤرة اهتمامه، وعلّة وجوده؛ ولهذا ينبغي أن يحلّل المضمون في إطار محتواه الموضوعي.

في بعض الأحيان يعتمد تحليل المضمون على المعلومات الجاهزة، كالوثائق، والمطبوعات، والخطب، والأحاديث، وفي البعض الآخر يتجاوز ذلك لدراسة الشخصيَّة التي تُمكِّنه من ربط الظَّاهر بالباطن (القول بالفعل، أو بالسُّلوك والعمل)، وكذلك ليربط الثابت بالمتحرك، وهذا الأسلوب هو الذي يجعله طريقة إنتاجية تكشف الجديد، وتعمل على تطويره؛ لأنَّ اقتصار البعض له على تحليل المعلومات الجاهزة، دون متابعتها وربطها بالفعل والسُّلوك، هو الذي يجعل طريقة تحليل المضمون طريقة استهلاكية.

وطريقة تحليل المضمون لا تسلّم بالمعلومة هكذا وكأنَّها مطلقة، بل تخضعها للاختبار، والقياس، والتجريب؛ من أجل التأكّد من إنَّها على الصواب، أم إنَّها

على غير ذلك؛ ولذلك فإنَّ اختبار المضمون يتعلّق بربط المشاهد بالمجرَّد (ربط الفعل بالمضمون)؛ لكي يتمّ الوقوف عند المصادق والحجج المثبتة نظريَّة، أو قانونًا؛ لأنَّ القول الذي يحمل المضمون فيما يقال قد لا يكون له مصادق، ومن ثمَّ يكون في حالة الشّكّ الفاقد إلى البراهين التي تجعله حقيقة بالإثبات[42].

إنَّ تحليل المضمون خطوة من خطوات طرق البحث المنهجة؛ لأنَّه لا يمكن أن يصل أيّ باحث وفي أيّ علم من العلوم، وفي أيّ تخصّص من التخصّصات إلى النتائج ما لم يَعرِضْ المعلومات والبيانات التي تمّ تجميعها للتحليل الموضوعي؛ فالمعلومات مهما بلغ حجمها وكبر ولو كانت أطنانًا مكوّمة فهي لا تفيد شيئًا إلّا بعد أن تخضع لتحليل مضامينها تحليلًا إحصائيًّا، وبيانيًّا، وعلائقيًّا.

وعليه: بتحليل المضمون يتجسدّ المنهج في المعلومة التي تحمله لتنتظم به في نسقٍ علمي مع المعلومات الأخرى ذات العلاقة، وبه تُفكّك معلومات وبيانات أخرى من الكلِّ إلى الجزء، إلى المتجزئ منه، وبه تُركّب أيضًا من المتجزئ، إلى الجزء، إلى الكلِّ الجديد المفيد.

إنَّ تحليل المضمون فن من خلاله تُفرز المعلومات فرزًا، وتتجرّد في أرقام، وأعداد، وكميات بيانيّة وإحصائيّة، وتُصنّف وفقًا للنوّع والجنس، والمكان والزّمان، والدّرجة والقيمة التي عليها، أو الفكرة التي تحملها، أو الجنسيّة والدين، فتقارن شبيه بشبيه، ومختلف مع مختلف، حتى يتمَّ كشف أثر المتغيّرات بعضها على بعضٍ في إظهار المشكلة، أو الظَّاهرة قيد البحث العلمي والموضوعي[43].

---

[42] المصدر السابق، 156.

[43] عقيل حسين عقيل، منهج تحليل المعلومات وتحليل المضمون، مالطا: الجا للطباعة والنشر، 1996، ص 34.

ولأنَّ تحليل المضمون مستهدف الظَّاهرة أو المشكلة بالتحليل؛ فهو الذي من خلاله يستطيع الباحث أن يندمج في موضوع بحثه بكلِّ وضوح، ومن بعدها يصبح قادرًا على الفهم، والاستيعاب، والإدراك للخفايا والقضايا التي سبق له أن صاغ لها فروضًا مفسّرة للمشكلة، أو الظَّاهرة المبحوث فيها من قِبله.

فتحليل المضمون يُمكّن الباحث من فكّ المعلومة المركّبة، وتفصيل متغيّراتها، والانتقال إلى البسيط (المتجزئ)، وهكذا الانتقال من المباشر إلى الجوهر، ومن الظَّاهر إلى الكامن، وكشف القوانين والمبادئ التي ربطت المتجزئ بالجزء حتى جعلت منه كلًّا مركّبًا.

أمَّا التحليلanalysis : فهو عمليَّة تتبُّع وتقصٍّ دقيق للمتغيّرات المستقلة، والتابعة، والمتداخلة في الموضوع، مع اكتشاف العلائق ومؤثّراتها السَّالبة والموجبة على الحالة قيد البحث والدِّراسة؛ فهو يرتبط بالمعلومة المؤثّرة على الفعل والسُّلوك، وعلى القاعدة والاستثناء؛ وهو المؤدّي للتبيُّن والتعرّف والاستكشاف عن وعي، وبدلائل وحُجج مثبتة، وفقًا لدائرة الممكن (المتوقَّع وغير المتوقَّع).

والتحليل العلمي للمضمون يحدّد الأفعال، والأقوال، والسُّلوكيَّات، وتكراراتها، وعلائقها السَّالبة والموجبة حتى يتمّ بلوغ النتائج المبدئية، وعرضها في جداول، وأشكال بيانية؛ لإظهار الحقائق التي تستدعي التعميم، والتي في حاجة للتقييم والتقويم.

وفي مهنة الخدمة الاجتماعيَّة والقانونيَّة والدراسات النفسيَّة والسُّلوكيَّة تُعدّ عمليَّة التحليل من عمليات دراسة الحالة، وهي الحلقة التي تتوسَّط عمليتي: جمع المعلومات، وتشخيصها؛ ولذا يقوم المتخصّص الاجتماعي، أو القانوني، أو

النفسي المتمكّن بمهارة وفن باستقراء العلل، والأسباب التي تكمن فيها حالة العميل، أو المبحوث؛ حتى يتمكّن من اكتشاف العلاقات بين متغيّراتها المستقلة والتابعة والمتداخلة من خلال تفكيكه للمعلومات المتوافرة، والمتاحة بين يديه.

إذن: لا قيمة للمعلومات، والبيانات إذا لم تُحلّل وتُفسَّر نتائجها وفقًا لمنهجٍ علمي واضح؛ لأنَّ تكديس المعلومات من دون تحليلها لا يحقِّق نتائج تجيب عن تساؤلات الباحث، أو فروضه العلميَّة التي صاغها وفقًا لأهداف بحثه التي استمدها من مشكلة البحث، أو إشكاليته بموضوعيَّة.

ومع أنَّ المنهج العلمي ضرورة في نظم المعلومات وتتبُّعها وسبر أغوارها تفكيكًا وتركيبًا فأنَّ فرض منهجيَّة معيّنة على القرّاء والمتعلّمين قد يجعلهم نُسخًا كأوراق السَّحب، وهذا الأمر يخالف القاعدة التي تنصّ على أنَّ المنهج: (تنوّع من أجل تفكيك المتنوّع وتركيبه)؛ ولذا لم يكن المنهج قالبًا جاهزًا، وثابتًا لا يتغيّر، فإن كان كذلك لا بدَّ أن يجعل من العقل البشري مستهلكًا للمعلومات لا مستثمرًا لها ولا منتجًا؛ وعليه: فإنَّ المناهج الجاهزة كثيرًا ما تهتم بتكديس المعلومات وعرضها في جداول، وأعمدة ومنحنيات تلزم الآخرين باتباعها كما قُدّمت لهم، مما يجعلها مناهج عنعنة (نقلية)، ودعاية ساكنة، وكأنَّها غاية في ذاتها.

أمَّا الذين يعتمدون في دائرة الممكن المتوقَّع وغير المتوقَّع منهجًا لتحليل المعلومات دون انغلاق على رؤية بعينها وكأنَّها مسلمات مطلقة لا تتأثّر بالتطوّر والتغيّر العلمي والحضاري والثقافي؛ فهؤلاء هم الذين يستطيعون إحداث النُّقلة من واقعٍ أدنى إلى مستقبل أفضل يمكن قياسه بعد مقارنات موضوعيَّة.

وعليه: إنَّ تحليل المضمون إنتاجيًّا يُمكّن البحّاث من إضافة الجديد المفيد والنافع من خلال توليدهم المعلومة من المعلومات، ومن خلال تحقيق أهداف البحث العلمي التي لا تقبل أن تكبل القيود العقول البشريَّة، ولا تقبل بقولبتها، ولا وضع إشارات (قف) أمام التفكير الإنساني.

ولأنَّ البحث العلمي يعتمد على قاعدة الإضافة التي تنصُّ على: (المعلومة تُحلل من أجل إضافة الجديد وكشف الحقيقة)؛ لذا لا إضافة لجديد إلّا بعد تحليل موضوعي لتلك المعلومات والبيانات التي تمّ تجميعها من أجل معرفة تضاف للمعارف السَّابقة.

إنَّ تحليل المضمون يؤسّس علميًّا على فروض مؤسَّسة على قاعدة تنصُّ على الآتي: (يصاغ الفرض العلمي على توافر جزء من المعلومات وفقدان الجزء الآخر منها)؛ لأجل معرفته بعد جهدٍ من تجميع المعلومات من مصادرها الرّئيسة، وتحليلها بمعاملات إحصائية، وتجربة، وملاحظة، وتشخيص للحالة قيد البحث بعد إجراء مقابلات موضوعيَّة.

وعليه: لا يمكن أن تتحقّق أهداف البحث العلمي في العلوم الطبيعيَّة، والاجتماعيَّة، والإنسانيَّة إلّا بعد تحليل علمي مقنّن؛ ولهذا لا يُعدُّ التحليل العلمي مرحلة مستقلّة بذاتها، أي: لا يمكن أن ينفصل عن المعلومة التي يكمن فيها؛ ولذا فالحقيقة دائمًا تكمن في المعلومة الصّادقة.

وعليه، نتساءل:

. هل يستطيع الباحث أن يفصل تفكيره التحليلي عن المعلومات التي يجمعها؟

ـ هل من الأفضل أن يهتمّ الباحث بهذه التحليلات في وقتها أم يتركها إلى النّهاية التي تهدّدها بالنسيان؟

ـ هل التحليل في أثناء تجميع المعلومات يسهم في اتساع مدارك الباحث على الموضوع، أم يحدّ منها؟

ـ ألا يكون تحليل المضمون دليل إثبات غياب الجزء الرَّئيس من المعلومة المستهدفة بالبحث؟

ـ ألا يكون تحليل المضمون دليل إثبات أنَّ الحقيقة في دائرة الممكن المتوقَّع وغير المتوقَّع ميّسرة لمن يَجتهد في التفتيش عنها والتعرف على مكامنها وأماكن ظهورها؟

ـ ألا يكون تحليل المضمون دليلًا لمعرفة واعية عندما تتوافر معطياتها لدى الباحث، ومن ثم من خلالها يتمكّن من كشف الجديد؟

ـ ألا يكون تحليل المضمون دليلًا على أنَّ المعلومات أصبحت تحت السيطرة والتحكّم الذي به يتمّ الوقوف على الحقائق الغائبة والمفقودة؟

ولأنَّ الإجابة محمولة إيجابيًّا في هذه الأسئلة، إذن: ألا يكون منهج تحليل المضمون حلقة من حلقات التفكير التي تهدف دائمًا إلى معرفة المستقبل وتُحفِّز على صناعته؟

ولهذا يُعدّ تحليل المضمون عمليَّة متّصلة، ومترابطة من الكلِّ إلى الجزء إلى المتجزئ؛ من أجل إضافة منتجة جديدة؛ وذلك بإثرائه عقل الباحث الذي اختار أن يخضع معلوماته إلى التحليل؛ ليكشف عمّا تحمله من أسرار تؤثّر تأثيرًا موجبًا

أو تأثيرًا سلبيًّا على علاقات الأفراد والجماعات والمجتمعات، أو على علاقاتهم مع عناصر الإنتاج، أو علاقاتهم مع وسائل التقنيّة، أو علاقاتهم مع القيم والفضائل الخيِّرة.

ولأنَّ طريقة تحليل المضمون طريقة ديناميكيَّة تُولِّد معلومة من معلومة، ونتيجة من نتيجة، وحركة من متحرّك من خلال كشف حلقات الترابط، ودرجاتها، ومرتكزات التركيب التي هي عليها، وحلقات التفكّك والانشطار؛ فهي طريقة إنتاجيّة ترشد إلى ما يجب من أجل حياة إنسانيَّة وعلميَّة متطوّرة.

إذن: كلّما تمكَّن الباحث من توليد حركة من متحرك، كان له إنتاجًا جديدًا قابلًا للقياس والتقييم، وكذلك التقويم الذي به تعاد الأمور إلى ما يجب أن تكون عليه.

وعليه: تحليل المضمون طريقة منهجيَّة لكشف العلاقة بين الزَّمان والمكان والموضوع الذي يُعد حلقة الوصل بينهما، ومع أنَّ الزَّمان متغيّر مستقل بذاته، والمكان متغيّر مستقل بذاته، والموضوع متغيّر مستقل بذاته، فإنَّه لا انفصال للزّمان عن المكان والموضوع الذي ظهر أو حدث فيهما، ولكن لكلِّ موضوع ومكان وزمان خصوصيَّة إذا تمكّن الباحث من معرفتها أنتج جديدًا يؤدّي إلى الإصلاح، أو التصحيح، والتصويب، أو العلاج، أو كشف حلول لمشكلات ظهرت بمسبّبات وعلل؛ ولهذا يزداد الإنتاج العلمي بالتحليل العلمي للقضايا والظواهر والمشكلات، ومع أنَّ الزَّمان متّصل برهة ببرهة، وثانية بثانية، وساعة بساعة، ويومًا بيوم، وشهرًا بشهر، وسنةً بسنة، وعامًا بعام، ودهرًا بدهرٍ، فإنَّ الإنتاج العلمي

عبر الزَّمن منفصل إنتاجًا عن إنتاج، وإن كان الإنتاج السَّابق علّة، وسبب تطوير اللاحق عليه، أو اللاحق بسببه.

ومع أنَّ العلوم المنتجة تستوعب أثر تغيّر الزّمان والمكان على الموضوع الواحد، فإنَّ نتائج التحليل في الزّمن الماضي تؤسّس قاعدة موضوعيَّة لعلوم اليوم والغد، ولا أمل أمام تحليل مضمون الماضي إلّا اليوم والغد، وهكذا تستمر الصّلة بين مواضيع البحث العلمي وإن فرّق الزّمن بين الذين تعلّقت المواضيع بهم وقضوها تجارب فرديَّة، أو جماعيّة، أو مجتمعيّة بثمنٍ، أو من دون ثمن.

ولذلك؛ لا قيمة للمعلومات المجمّعة إلّا بتحليلها؛ ولهذا ستظل المعلومات ناقصة منقوصة إن لم تُحلّل بوسائل مقنّنة، ولا يمكن أن تنجز نتيجة إلّا بعد تحليل مضمونها، وبتحليل مضمونها يتمّ التعرُّف على المجهول الذي لم يكن معروفًا من قبل.

ولأنَّ تحليل المحتوى منتج للمعلومة؛ فهو بزيادة البحث العلمي إنتاجه لا ينقطع؛ ولذا حيثما وُجد بحث علمي وبحّاثة ماهرون وواثقون أنَّ الحقيقة واحدة سعوا في زيادة الإنتاج المعرفي والمادّي الذي به تتطوّر أدوات التقنية التي بها تزداد حركة الإنتاج إنتاجًا آخر.

وعليه أتساءل:

. هل يمكن أن يتمّ تحليل المضمون من دون استخدام وسيلة مشاهدة، أو ملاحظة، أو مقابلة، أو استبيانةٍ، أو تصنيفٍ قيمي؟

إذا كانت الإجابة: (بنعم).

يكون الأمر كمن يقول: يمكن أن يتمّ التحليل العلمي من دون استخدام للحواس، وهذا أمر غير ممكن.

وإذا كانت الإجابة: (بلا).

إذن: اعترفنا بأنَّ تحليل المضمون طريقة، ولم يكن وسيلة كما يعتقد البعض.

ولأنَّ طريقة تحليل المضمون تهتم بالنصوص، والوثائق، والخطب، والأحاديث، والمطبوعات، وأخبار وسائل الإعلام كمصادر للمعلومات في دراسة الشخصيات، والأفعال، وردود الأفعال، والمواقف، والاتجاهات، والثقافة؛ لذا يمكن أن تكون طريقة استهلاكية، ويمكن أن تكون طريقة إنتاجية؛ فهي من حيث كونها استهلاكية إذا درست النصّ أو الخطاب وكأنَّه غاية في ذاته.

ومن حيث كونها إنتاجية، إذا درست وبحثت في النصوص، والخطابات، والوثائق، وكلّ المصادر التي يمكن أن تعود إليها وهي مُوجَّهة إلى صناعة مستقبل أفضل؛ وذلك بأخذ العبر التي بها يتمّ تفادي السلبيّات، وأخذ العبر التي بها تُحدث النُّقلة ويُصنع المستقبل.

إذن: تحليل المضمون هو الذي يستوعب الماضي ويحلِّله علميًّا، ويُشخِّصه بموضوعيَّة من أجل معرفة ما اشتهر به من إيجابيّات، وما علق به من سلبيّات، وكيفية الاقتداء بالموجب، والابتعاد عن تكرار السَّالب دون إنكار لجهود السَّابقين، مع مراعاة العصر وما وصل إليه من تقدُّم، ولكيلا يكون الباحث مقتصرًا على ما هو سابق، أو أن يكون الباحث باسم المعاصرة تاركًا للمعطيات الموضوعيَّة ذات الأهميَّة العالية في زمن السَّابقين الأكارم، ومن ثمَّ فعليه أن يكون

منتقدًا لكلِّ ما من شأنه أن يؤدّي إلى خللٍ في الفضائل والقيم الحميدة، في كلّ زمن من الأزمنة، وكذلك عليه أن يعرف أنَّه لا فرق بين الماضي والمعاصر إلّا الزَّمن (الماضي والحاضر)؛ لأنَّ كلًّا منهما يحلّل معلوماته بمنظور التقليد فقط؛ فالأوَّل: مقلّد للسلف بما هم عليه من سلبيّات وإيجابيّات، والثاني: مقلّد للعصر بما هو عليه من سلبيّات وإيجابيّات؛ ولهذا كلٌّ منهما مقولب بأحكام مسبقة، وكأنَّهما مبنيتان على الكمال ولا نقصان فيهما.

إنَّ استمرار العلوم والبحوث العلميَّة في الزَّمن الحاضر بنظرة الماضي قد لا تؤدّي إلى مستقبل متطوِّر، وإنَّ انفصال الحاضر عن نظرة الماضي قد يؤدّي إلى الانسلاخ عن الأصالة العريقة؛ ولهذا فالمعاصرة لا تعني الانسلاخ عن الأصالة، بل إنَّها تعني: استيعاب المعاصر دون إغفال عن أهميَّة السَّابق المتخلّص من سلبيّات الماضي العقيمة، والمستوعب للجديد الذي فيه أصالة؛ ولهذا الأصيل بالضرورة يكون معاصرًا؛ لأنَّ الأصالة لا تنتهي، بل إنَّها المستمرّة.

ولذا؛ فالتحليل الإبداعي للمضمون لم يكن تحليلًا دفاعيًّا لمجرد الدفاع، بل تحليلًا موضوعيًّا نقديًّا محاججًا (حُجّة بحُجّة)، ولم يكن استسلاميًّا يخضع لسيطرة الآراء الجاهزة، وعليه: فالتحليل الإبداعي للمضمون يتناول المواضيع بما تطرحه من قضايا، وبما تتضمّنه وتشير إليه من متغيّرات؛ ولهذا يعتمد تحليل المضمون على الأحكام المسبقة، وهو المتتبّع لخطوات البحث العلمي المنهجة دون ترويم أيٍّ منها للأخرى[44].

---

[44] المصدر السابق، 147.

إنَّ التحليل الإبداعي للمضمون هو التحليل المتفحِّص للموضوع، والواقع دون تحيُّز للأنا، ودون انسلاخ عن الذَّات: (ذات المجتمع، أو الأمّة المنتمي إليها).

وبنظرة تحقيق الأمل (تحقيق المستقبل) يسعى الباحثون إلى كلِّ ما من شأنه أن يؤدّي إلى الاكتشاف والاختراع، وتسعى الشّعوب إلى تنشئة الأجيال المستفسرة المتسائلة عن كلّ ما يتعلّق بها من أمر، سواء أكان أمرًا سياسيًّا أم اجتماعيًّا أم اقتصاديًّا أم معرفيًّا، ويتساءلون عن الخطط التي ينبغي أن توضع له؟ وما هي البدائل والسُّبل التي بها يُختصر الزَّمن والتكاليف، ويتحقّق الأمل؟

بطبيعة الحال: هذا الأمر لا يتحقّق بتجميع المعلومات والتوقف عندها، بل يتحقّق بتحليل المعلومات والبيانات، وتبيان نقاط ضعفها وقوّتها، وما تنصُّ عليه مضامينها ومحتوياتها، وهذا أيضًا لا يتحقّق إلّا إذا كان الباحث حرًّا؛ ومن هنا فإذا أردنا مجتمعًا مبدعًا، أو أمّة مبدعة، أو باحثًا مبدعًا فعلينا بإزالة الأغلال التي تمنع أو تحدّ من حركتهم، أو تفكيرهم؛ حتى يُمكَّنوا من ممارسة حقوقهم، وأداء واجباتهم، وحمْل مسئوليَّاتهم بإرادة.

ولهذا؛ فالتحليل الإبداعي للمضمون يسعى دائمًا إلى معرفة النهايات الموضوعيَّة، مما يجعل له استمرارية واتصالًا من الكلِّ، إلى الجزء إلى المتجزئ (فكرة، أو نصًّا، أو خطابًا، أو قيمة ومبدأ)، وعليه: فإنَّ التفكير في النهايات والبحث عنها يؤدّي إلى الإبداع، أمّا التفكير فيما لا نهاية فهو تفكير منفصل لا حقائق من ورائه، وبالتَّالي: لا يؤدّي إلى الإبداع، مع أنَّه يؤدّي إلى التكرار الذي لا يؤدّي إلى الجديد؛ ولأنَّه كذلك فهو لا يؤدّي إلى الإبداع.

والتحليل الإبداعي للمضمون لا يتوقّف عند دائرة الممكن المتوقَّع فقط، بل يمتدُّ إلى دائرة الممكن غير المتوقَّع؛ ولذا لم يكن التحليل الإبداعي مُنهجًا على التسليم، بل على الشّكّ من أجل اليقين، والأخذ بالقياس، والاختبار، والتجريب، والجودة المعياريَّة.

ولهذا؛ لا تسليم إلا بمسلَّم مثبت أو مطلق مما يجعل التحليل والتفكير الإبداعي تحليلًا لا ببغائيًّا؛ ولكنّه تحليلٌ استيعابيٌّ، يستوعب الموضوع ويعرِّضه للقياس، والنقد الدّاخلي، والخارجي، ولم يكن مثل آلة التصوير التي تصوّر الموسوعات والمؤلفات دون أن تحتفظ بمعنى يفيد؛ ولهذا فالباحث الذي يتَّبع كلّ أمر واقع دون أن يَتبيَّنَ ذلك الأمر، وأسراره، والحكمة التي من ورائه، لا يمكن أن يكون باحثًا مبدعًا للمعلومة العلميَّة، ولا منتجًا للفكرة العلميَّة.

ولذلك؛ فإنَّ التفكير العلمي المبدع هو التفكير المنظّم المرن ولا جمود فيه، وهو الذي لا يجعل الباحث يفكّر لغدٍ بنظرة الأمس، ولا بنظرة اليوم، بل من خلال تحليله للأمس واليوم، ومعرفة خصوصيَّة كلّ منهما، ويتمكّن من معرفة الخصوصيَّة لكلِّ زمن، ولكلّ جيل؛ مما يدفعه لأنْ يفكّر بعقليَّة الغد حتى يتمكّن من صناعة المستقبل؛ ولذا فمن يعتقد أنَّ عقل الأمس واليوم كافٍ لتحليل المعلومة التي تصنع المستقبل، سيجد نفسه من دون شكّ متخلّفًا عن حقيقة الغد ومنظوره المبدع.

إنَّ التحليل العلمي للمضمون يستند دائمًا على الحجَّة بالمصادق؛ لأنَّ الحجّة التي تفتقد إلى مصادق هي في حقيقتها حجّة جدباء؛ لافتقارها الحقائق والشّواهد، والتحليل بالمحاجّة هو تحليل تقبل ودحض حجّة بحجّة، وسبب بسبب،

وهذا النَّوع من التحليل يؤدّي إلى التغيّر، والتغيير؛ تغيّر حالة عن حالة، وتغيير موقف بموقف، وفكرة بفكرة، أمّا إذا اقتصر التحليل على العناد نتيجة أفكار أو أحكام مسبقة فإنَّ نتائج التحليل لا تؤدّي إلى تحقيق الأهداف العلميَّة، فتضعف الحجّة عندما تكون مبنيّة على عناد ليس إلّا، أمّا الحجّة التي تُطرح للنقاش والجدل دون تعصّب لن تشكّل عبئًا على المدافعين عنها، من خلال تقديمهم البراهين التي تؤيّدها، وتقبل الآراء التي تعارض تأييدهم من أجل المحاجّة العلميَّة والوصول إلى نتيجة موضوعيَّة؛ ولهذا فالتحليل بالمحاجَّة بين الأطراف المتجادلة قد يؤدّي إلى انسحاب ضعيف الحجّة من ميدان النقاش، وقد يؤدّي إلى انسحاب قويّ الحجّة؛ نتيجة تحامل الطّرف الآخر عليها، أو على صاحبها، مما يؤدّي إلى خروج الجدل والنقاش عن صوابه، فيترتَّب على ذلك انسحاب أحد الأطراف، وقد يكون المنسحب صاحب الحجّة الصادقة، مما يفسح المجال لضعيف الحجّة لأن يستمر في عرض حُججه الواهية على مَنْ تبقى من الذين لا حُجج لهم، أو الذين تمَّ استغفالهم؛ ولهذا ينبغي أن يكون التحليل العلمي والنقاش العلمي لا سيادة فيه إلّا للحجّة بالمصادق.

ويعتمد التحليل العلمي على استيعاب الموضوع بمحتواه الشمولي، ويركّز على مضمونه بشكل خاصّ من خلال تحليل المعلومات والبيانات المتوافرة، أو المعلومات التي يقوم بتوفيرها، ويهتم بالآتي:

أ ـ استيعاب الإيجابيّات، والتأكيد عليها، ونقلها للآخرين بوسائل مبسّطة تمكِّنهم من التعرُّف عليها، وتحفِّزهم على العمل بها.

ب ـ استيعاب السلبيّات، وتحديدها، وإبراز عيوبها، وأسبابها، والعمل على إزالتها، وتبيان الأضرار التي قد تنجم عنها.

وبناء عليه: لم يكن التحليل الاستيعابي إبقائيًّا بالتمام، ولم يكن غرضه تثبيت المعلومات كما هي (سالبها وموجبها)، بل إنَّه تحليل تثبيتي إيزالي، يثبِّت المعلومات الموجبة، ويزيل السَّالبة؛ ولذا فالاستيعاب يتمّ للمعلومات السَّالبة والموجبة من أجل معرفة نقاط الاتفاق والاختلاف، مما يتطلَّب الإبقاء والتثبيت في حالة الاتفاق، ويتطلَّب الإزالة والتصحيح في حالة الاختلاف.

وعليه: يعتمد تحليل المضمون قاعدة: (لا نفي ولا إثبات إلّا لموجود)، ولكلّ من النفي والإثبات جوانب سلبيَّة، وأخرى إيجابيَّة، ويتداخلان في تحليل الفعل الواحد إلى أن يثبت بالمصادق، أو ينفى بها، ويؤدّي التحليل بالنفي والإثبات في أثناء تناول المواضيع والقضايا إلى الآتي:

1 ـ إثبات قضية بالمصادق، يؤدّي إلى نفي الشّكّ عنها، وتكون القضية موجبة.

2 ـ إثبات قضية من دون مصادق، يؤدّي إلى إثبات الشّكّ فيها، وتكون القضية سالبة.

3 ـ نفي قضية بالمصادق، يؤدّي إلى إثبات الشّكّ فيها، وتكون القضية سالبة.

4 ـ نفي قضية من دون مصادق، يؤدّي إلى نفي الشّكّ عنها، وتكون القضية موجبة.

إذن: النفي والإثبات هما كفّتا الميزان اللذان لا يتمّ الوزن إلّا بهما؛ ولهذا كلّ ما يقبل الوزن فهو موجود؛ لأنَّه يقبل الإثبات والنفي، وكلّ مخلوق يعدُّ وجوده برهانًا على أنَّ وراءه خالقًا، وليس كلّ من يفكّر فقط، والفرق بينهما: أنَّ الذي يفكّر يستطيع أن يبرهن على وجوده، أمّا الذي لا يفكّر فإنَّه يحتاج لمن يبرهن عليه، ونتيجة تداخل الإثبات والنّفي، والسّلب والإيجاب يتمّ التعرُّف على القضايا والمواضيع، ويتمّ إزالة اللبس عنها.

وعليه: لا نفي ولا إثبات إلَّا لموجود، ووراء كلٍّ منهما فاعل.

ومن ثمَّ: يهتمّ تحليل المضمون بالمعلومات الظَّاهرة وفقًا للبيانات المشاهدة، والمحسوسة سواء أكانت سلوكًا أم شكلًا أم كما؛ ولذا فالظَّاهر يمكن التوقُّف عنده من أجل التعرُّف عليه، مع أنَّه ليس كل ظاهر واضحًا، بل معظم الظواهر تحتاج إلى توضيح، سواء أكانت ظواهر طبيعيَّة، أم اجتماعيَّة، والتوضيح هو تبيان ذلك الظَّاهر بما ظهر به عن الكامن، وبما ظهر عنه من أفعال، أو أقوال، أو إنتاج، فالإنسان كقيم كامن في الإنسان كشكل، والسُّلوك كتصرُّف ظاهر من الشّكل، أي: ظاهر من الظَّاهر، فعلى سبيل المثال: الانحراف السُّلوكي خروج عن الكامن بالظَّاهر[45].

وعليه: فالإنسان كشكل ظاهر يصعب الحكم عليه بأنَّه خيّر أو شرير إلَّا بعد التعرُّف عليه عن قرب بالمشاهدة والملاحظة، وعند قيامه بسلوك، وأفعال يمكن التأكّد منها سلبيًّا أو إيجابيًّا، وكثيرًا ما يكون الظَّاهر نتيجة للكامن، ووسيلة للتعرُّف عليه؛ ففي التحليل النفسي يكون الظَّاهر وسيلة للتعرُّف على الكامن،

[45] المصدر السابق، ص 182.

ويكون الكامن غاية لإصلاح الظَّاهر؛ ولهذا يتمّ التعرُّف على الكامن بالظَّاهر، ويتمّ إصلاح الظَّاهر بالكامن.

ومع أنَّ الظَّاهر لم يكن هو كلّ شيء في العلوم النفسيَّة والاجتماعيَّة، فإنَّه في العلوم الطبيعة يُعدُّ المتغيّر الرَّئيس الذي به يتمّ الاستئناس للمعلومة قبل إخضاعها للتحليل، وبعد إخضاعها للتحليل؛ ولهذا تُجرى التجارب في المعامل والمختبرات على المشاهد المحسوس الذي يخضع للتجريب عليه، لا التجريب من أجله، كما هو حال الحيوانات والطيور والنباتات التي تُجرى التجارب عليها غاية من أجل الإنسان الذي لم يُخضع للتجريب الذي يُعرّضه للمخاطر.

كما يهتم تحليل المضمون بالكامن الذي يحتوي عليه المشاهد؛ ذلك لأنَّ الكامن جوهر الشّكل والصّورة؛ ولهذا فتحليل المضمون يُمكّن من التعرُّف على الأشياء في أثناء تحليلها، ومن ثمَّ فكلّ ظاهر تكمن حقائق وجوده فيه، ومعرفة الظَّاهر علميًّا تتحقّق بالتعرُّف على جوهره، وعلى أسراره وخفاياه؛ ولهذا فالإنسان يكمن في جوهره كما يكمن في بصماته؛ ولهذا فالبحث في القضايا والأفكار الكامنة، والقيم الخفيّة في العلوم الاجتماعيَّة والنفسيَّة لا تكون غاية في ذاتها، بل الغاية فيما وراءها.

ولذا؛ فإنَّ تحليل البصمات (الظَّاهرة) لم تكن الغاية التعرُّف عليها، بل الغاية معرفة صاحب البصمة، ثم معرفة علاقته بالفعل المرتكب، وكذلك معرفة العلل والأسباب التي دفعته إلى ارتكابه، وهنا تكمن الحقيقة موضوع البحث.

إذن: فعندما يختفي الشيء عن الحسّ ولم يتمّ التعرُّف عليه بالمشاهد، يكون في حقيقة أمره كامنًا في الشيء ذاته. وليس معنى ذلك أنَّ الكامن هو الذي لا

يشاهد، بل كثيرًا من الأشياء الكامنة يمكن مشاهدتها، ولا يمكن التعرُّف عليها إلَّا بعد معرفة مكمنها، فعلى سبيل المثال: السّارق قد يقوم بفعل السّرقة، ولم يتمّ القبض عليه، وقد يكون بيننا عند بحثنا عن السَّارق وآثاره؛ لكي يبعد عنه شبهة ارتكاب الجريمة، أي: وكأنَّه لم يكن سارقًا، وبعد إجراء عمليَّة المقارنة البصمتية، يتمّ القبض عليه سارق إثباتًا.

إذن: الإنسان كظاهر يكمن في بصماته، كما يُكمن المطر في السُّحب، وكما يكمن الزّيت في حبّة الزيتون، وهكذا يكمن الكائن في النُّطفة، وتكمن السُّنبلة في البذرة، وبناء على ذلك: قد يكون الكامن مشاهدًا، وقد لا يكون، ولكن من أجل المعرفة العلميَّة، ولكي تكون متكاملة ينبغي في أثناء تحليل البيانات والمعلومات أن يُربط المشاهد والملاحظ بالكامن حتى لا تكون المعرفة قاصرة.

مع أنَّ الباحث العلمي يستخدم أدوات مهمة في تجميع المعلومات والبيانات كالمشاهدة، والملاحظة، والمقابلة، والاستبيان، والتصنيف القيمي المعياري، فإنَّه لا يثق في كلِّ ما هو ظاهر إلّا بعد التأكّد منه؛ وذلك بإخضاعه للقياس، والتحكّم العلمي، سواء أكانت تلك المعلومات معطيات، أم براهين؛ لأنَّ الباحث ينبغي أن يتعرَّف على الأشياء بيقين لا بسذاجة؛ ولذلك يبحث عن أسباب التسليم فيها، فالشّكّ على سبيل المثال: عمليَّة عقليَّة واعية ووسيلة علميَّة في البحث والتقصّي الفطن، والتتبُّع الدقيق من أجل التعرُّف بقناعة وانتباه؛ ولهذا لا يمكن استخدام هذه الوسيلة عند ضعاف القدرات العقليَّة، مما جعل الواعين متميّزين بها، وجعل الباحثين مهتمين وغير غافلين عنها، ويستمر الشّكّ العلمي إلى أن يصل الباحث إلى الثّقة في المعلومة التي بها يتقصّى حقائق وجودها، أو

إثبات عدم وجود ما يدلّ عليها، أو بطلانه؛ فنحن نعرف أنَّ الإنسان متميّز عن غيره من الكائنات بالعقل والصّورة، ولكن، هل كلّ إنسان عاقل؟

إذا كان تحليلنا للمعلومة وفق المنطق الأرسطي المعتمد على مقدّمتين ونتيجة فإنَّا تصاغ وفقًا للآتي:

كلّ إنسان عاقل

عبد الودود إنسان

إذن: عبد الودود عاقل.

أقول: ليس بالضرورة أن تكون النتيجة علميَّة وموضوعيَّة حتى وإن كانت منطقيَّة؛ ولهذا لا ينبغي أن نحكم بالمطلق وفقًا للمقدّمتين السَّابقتين والنتيجة الأرسطيَّة التي تستوجب وفقًا لشروطها أن يكون عبد الودود عاقلًا؛ ولهذا يكون الشّكّ سائدًا في مدى تطابق عقل عبد الودود مع النتيجة الأرسطيّة، وسيظل هذا الشّكّ إلى أن تتمّ مقابلة عبد الودود، أو مقابلة من هم على معرفة به، مع مراعاة إخضاع القول إلى التأكّد بالمصادق، بعدها يمكن للباحث أن يحكم على صدق النتيجة السَّابقة أو بطلانها، فإذا ثبتت صحة النتيجة السَّابقة كان لها مصادق، وإذا لم يكن لها مصادق كانت باطلة؛ ولهذا يحقّ للباحث أن يشكّ فيما تتضمّنه المقدّمات والنتائج إلى أن يتأكّد من صحة مضامينها، وأن لا يبني نتيجة على مقدّمات ليس لها مصادق[46].

[46] المصدر السابق، ص 152.

إذن: اعتماد الباحث على تحليل المضمون المكتوب، أو المنطوق وكأنَّه مسلّمات قد يؤدّي به إلى نتائج كاذبة؛ وذلك بما يحتويه النصّ من قضايا لا مصادق لها.

إنَّ غياب المصادر المباشرة، كالأفراد، والجماعات والأقوام (كقوم عاد وثمود)، وغياب بعض المفكِّرين والفلاسفة والمجاهدين الأبطال الذين توفاهم الأجل، أو استشهدوا وتركوا لنا تاريخًا، وفكرًا، وعلومًا مُوثّقة، وفي متناول أيدينا، يعدُّ غيابهم حاضرًا من خلال ما تركوه لنا من آثار علميَّة تتطلَّب من الباحث سبر أغوارها، وتحليل مضامينها، لأخذ العبر منها، وتجنُّب ما وقع فيه البعض منهم من انحراف أدّى بهم إلى الهاوية، وهناك من ترك لنا آثارًا مكتوبة، أو مسموعة ومرئية بوسائل الإعلام الحديثة، كالقادة والمفكرين الذين ما زالوا على قيد الحياة، وقد لا يتمكّن الباحث من مقابلتهم؛ لبعد المسافة، أو لصعوبة الاتصال بهم، مما يجعله يولي اهتمامًا بتحليل ما قالوه، أو كتبوه عبر الزَّمن؛ وذلك بهدف دراسة شخصياتهم، أو لمعرفة اتجاهاتهم وما حدث عليها من تغيّرات، أو لمعرفة العوامل التي أثّرت في حياتهم، واتجاهاتهم، وأفكارهم سلبيًّا، أو إيجابيًّا؛ حتى يتمّ الوقوف على العِبر التي تؤخذ.

ويكون لطريقة تحليل المضمون أهميَّة أكبر عندما تسنح الفرصة للباحث بأن يطَّلع على المضمون ويشاهد صاحبه؛ لكي يتمكّن من ملاحظة ردود أفعاله، وإجراء مقابلة معه للاستيضاح عن بعض الاستفسارات التي يرى الباحث أهميَّة الإجابة عنها في إثراء الموضوع.

وتعدُّ وسيلة الملاحظة على أهميَّة عالية لتحليل المضمون، من حيث:

1 . تجميع المعلومات.

2 . تحليل المعلومات.

3 . تشخيص الشخصيَّة، والحالة التي هي عليها.

4 . استخلاص النتائج.

فقد يشاهد الباحث الأشخاص والصّور والأشكال، ولكنّه لا يشاهد معاني الكلمات والجمل، ولا يستطيع أن يميّز بالمشاهدة بين أسلوب الجِدِّ، وأسلوب الهزلِ الذي قد يصاغ الخطاب أو النصّ به مما يجعل للملاحظة أهميَّة في التمييز بين ذلك، وتمكين الباحث من المعرفة بوعي.

فعند مشاهدة الباحث للمفكّر، أو الزعيم والبطل وهو يلقي خطابًا عن موضوع بحثه الذي يتابعه، وليكن: (دراسة اتجاهات الخطيب الوحدويّة) فالباحث من خلال مشاهدته للخطيب وهو يلقي خطابه يستطيع ملاحظة تفاعلاته، ودرجة تحمّسه، وردود أفعاله من أصحاب الاتجاهات الانفصالية؛ ولهذا يتمكّن من استقراء أثر الكلمة، أو القيمة، أو الفكرة على الموضوع قيد المشاهدة والملاحظة، وينبغي ألَّا يكون الخطاب نقطة النهاية، بل يجب على الباحث أن يتابع موضوعه من حيث التعرُّف على ما تمّ تجاهه من إجراءات علميَّة، لتنفيذ ما ورد في الخطاب (موضوع البحث) كإصدار اللوائح، والقوانين والاتصالات مع الأطراف ذات العلاقة لتحريضهم على الوحدة، ودفعهم إلى توقيع الوثائق التَّاريخيَّة، وإلّا لن يكون لمضمون الخطاب مصادق، بل يصبح كما يقولون: عبارة عن حبرٍ على ورق، أو كلمات في أشرطة التسجيل قد تساعد الخطيب على امتصاص غضب النَّاس من النّظام الذي يرأسه.

تحليل المضمون طريقة، ونحن نتفق مع التعريف الذي صاغه الدكتور سمير نعيم بقوله: "تحليل المضمون هو إحدى طرق البحث التي تستخدم من أجل الوصول إلى وصف منظم موضوعي وكمي لمختلف تسجيلات التعبير الرمزي"[47].

المنهج العلمي يُحدثُ النُّقلة:

الإنسان إذا التَفتَ إلى وضعه وقيَّمهُ بموضوعيَّة، وعرف أين هو مما يدور من حوله؛ لأمكنه أن يغيّر من أحواله إذا كانت له أهداف قابلة للإنجاز، وعَمِلَ على إنجازها بكل ما لديه من إمكانات، متحدّيًا للصعاب وإن عظمت، لا شكَّ أنَّه سيحدث نُقلة (فارقًا) في حياته.

وحتى لا ينكسر أمله بصيغ العشوائيّة فعليه بالمنهج العلمي الممكّن من بلوغ النُّقلة وتحدّي الصِّعاب؛ ذلك لأنَّ النُّقلة تُمكِّن من بلوغ المكانة الرفيعة لمن لم يكونوا قد تبوئوها من قبل، مكانة يحسب لها التقدير، وتنال الاحترام من المشاهدين والملاحظين.

والنُّقلة: مفهومٌ يعبّر عمّا حدث من تغيُّر وتغييرات في الزَّمن غير المتوقَّع، وكان لها الأثر الرّفيع في تحسين الأحوال وتجويدها، ونقل أصحابها من المستويات والخانات الدنيا إلى مستويات عليا، وبالمقارنة بين ما كان وما أصبح الإنسان عليه يلاحظ الفرق الشاسع إيجابيًّا؛ والنُّقلة من المعنويّات كالتطوُّر والطفرة؛ لأنَّها الاسم نفسه.

[47] سمير نعيم، المنهج العلمي في البحوث الاجتماعية. القاهرة: الطبعة الخامسة، 1992، ص159.

أمَّا إحداث النُّقلة فهو نتاج ذلك الجهد المقصود بمنهجيّة وغاية بلوغ المأمول ونيله، أي: ذلك الجهد الذي بذل وفقًا لأهداف تنجز، وأغراض تتحقق، وغايات تبلغ، ومأمول يتمُّ نيله.

والنُّقلة غير النَّقلة؛ لأنَّ النُّقلة تطلق على الأثر الرّفيع الذي ظهر على من أصبح معرفيًّا وثقافيًّا على غير ما كان عليه سُفليّة ودونيّة.

أمَّا النَّقلة: فهي ترتبط بالمحسوس المادّي، كنقلة بضاعة، أو نقلة ركّاب، أو أيِّ شيء يمكن أن يُشحن؛ وهي اسم مرّة من النَّقْل، يقول العسكري: "النَّقلة لا تكون إلَّا عن مكان، وهي التحول منه إلى غيره"[48].

ولهذا يلاحظ استخدام كلمة النَّقلة في غير مكانها، أي: إنَّها تستخدم من كثيرين فيما ينبغي أن تستخدم فيه كلمة النُّقلة النوعيَّة.

وأقول لمن يرغب بلوغ النُّقلة: إنَّ تحدّي الصّعاب يحقّق النُّقلة النّوعيَّة، ويمكّن من تجاوز المستويات القيميَّة الثلاثة: (الذاتيَّة والانسحابيَّة والأنانيَّة) إلى المستوى القيمي التطلُّعي والمستوى القيمي الموضوعي، اللذين يعتمد فيهما الإنسان على المنطق والعقل حُجّة في الحوار، وحجّة في استقراء واستنباط الأمور المتعلّقة بالعلائق الاجتماعيَّة والاقتصاديَّة والسياسيَّة، وبالعلائق النفسيَّة والذوقيَّة والثقافيَّة.

ولأنّ تحدّي الصِّعاب يمكّن من إحداث النُّقلة النوعيّة؛ فإنّ النُّقلة تحقّق التميّز والمكانة الرّفيعة والمنزلة العالية لمن يتحدّى الصِّعاب من أجل مأمول عظيم.

48 أبو هلال العسكري، الفروق اللغويّة، دار العلم والثقافة، القاهرة، تحقيق: محمَّد إبراهيم سليم، ص 147.

أمّا الذين يعانون من حالات انسحابيَّة فأمرهم غير ذلك؛ فهم يحتاجون إلى دراسة حالاتهم، وتحديد مستوياتهم القيميَّة التي هم عليها، ثمّ إعادتهم لِما يجب، ثمّ بعد ذلك نقلهم إلى ما يُسهم في تحقيق المستقبل الأفضل والأجود الذي يحفِّزهم على تحدّي الصِّعاب ويحقّق لهم النُّقلة.

فدفع الأفراد للتعامل بأسلوب ديمقراطي مع بعضهم ومع الآخرين في كلّ ما يتعلّق بهم من أمر، سواء أكان هذا الأمر علائق أسرية، أم علائق جيرة، أم عملًا، أم سياسة داخلية أو خارجية، أم أمر سلم أو حرب أو أيّ أمر من أمورهم الاجتماعيَّة يمكّنهم من بلوغ النُّقلة النَّوعيّة، وهكذا يتمُّ تفطين المجتمعات والفئات الاجتماعيَّة إلى أهمية الاستيعاب في تبادل المعارف والعلوم والمكاسب التي تنمو بالجهود المشتركة، والتعاون، والاستيعاب المتبادل مما يمكّنهم من إحداث النُّقلة.

وعليه: فإنَّ إحداث النُّقلة ليس مستحيلًا ولا معجزًا، بل إنَّه في دائرة المتوقّع وغير المتوقّع ممكنٌ، فَلِمَ لا يتم الإقدام على كلّ ما من شأنه أن يحدث النُّقلة ويحقّق الرّفعة ارتقاءً؟

وعليه:

- كن إيجابيا؛ لتنال التقدير والاعتراف.
- كن متفهِّما؛ لتحدث النُّقلة.
- اعترف بالآخرين يتمّ الاعتراف بك.
- قدّر الآخرين تنل التقدير منهم.
- ثق أنّ الاعتراف يحقّق قيمة التقبُّل.

. ثق أنَّ الجحود مفسدة.

. ثق أنَّ قيمة الاعتراف تقابل قيمة التقدير.

. استوعب الغير يستوعبك.

. شارك الغير تحدّي الصّعاب تتيسّر لك الأمور؛ حتى ترى غايتك بين يديك.

وعليه: فمن أجل تحدّي الصّعاب وإحداث النُّقلة ينبغي لنا عدم الإغفال عن:

. تفعيل منطق النّحن بين أفراد المجتمع وجماعات التعلّم والعمل والجماعات الممارسة للمناشط المتنوعة، والجماعات الممارسة للسياسة والاقتصاد، والذين يشتركون في رسم الخطط والإستراتيجيات لمجتمعاتهم.

. تمكين أفراد المجتمع من تكوين إحساس عام مشترك، مفاده أنّهم مفردات أساسية في الدّولة، ولهم حقوق يجب أن تمارس، وواجبات ينبغي لها أن تؤدّى، ومسئوليات ينبغي لها أن تحمل، حتى يصبح منطق الجميع: نحن معًا.

. التركيز على القيم الاجتماعيَّة التي تستوعب الأفراد والجماعات دون استثناء، مع تفطين الأفراد بأهمية هذه القيم الاستيعابية، وحثهم على احترامها وتقديرها والوقوف عندها، والابتعاد عمّا يُبعدهم عنها، فهذا الأمر يجعلهم في الاحتضان الاجتماعي الذي يمدهم بالدفء والطمأنينة.

. حث أفراد المجتمع وجماعاته وفئاته على استيعاب بعضهم بعضا، وتقبلهم كما هم، يُمكِّن من تكوين علائق قيميَّة ذات أبعاد إنسانيَّة.

. وضع خطط وبرامج لتحقيق الألفة والمحبّة والموائمة الاجتماعيَّة والإنسانية بين العاملين والمتعلمين وأفراد الأسر والممارسين للمناشط المتعددة، وأصحاب الحضارات وأصحاب الأديان المتعددة؛ ذلك لأنّ الرّب واحد ولا شريك له.

. دفع الأفراد تجاه الأفعال الاستيعابية التي تُسهم في زيادة قوّتهم قوّة.

. المواءمة بين مطالب الأفراد وحاجاتهم، ومصادر الإشباع المتاحة في بيئتهم الاجتماعيَّة.

. التحريض على ممارسة أساليب الدّيمقراطيَّة بما يحقّق المعاملة الحسنة بين الذين تربطهم علائق قيمية أو بين الذين تربطهم مصالح ومنافع مؤقّتة.

. غرس قيم الشفافيَّة واتباع أساليبها بين المتعلمين والممارسين لحقوقهم، والمؤدّين لواجباتهم، والحاملين لمسؤوليَّاتهم.

. تفطين أفراد الأسرة من غفلتهم عن متطلبات المراحل العمريَّة للأبناء وأثر المتغيرات التي تحيطهم في البيئة الاجتماعيَّة أو في القرية الصغيرة؛ حتى يتمّ الاستيعاب الموضعي وتقدير الحاجات المتطوّرة عبر الزّمن.

. تفطين المجتمعات والفئات الاجتماعيَّة إلى أهمية الاستيعاب في تبادل المعارف والعلوم والمكاسب التي تنمو بالجهود المشتركة، والتعاون والاستيعاب المتبادل.

. مشاركة الأفراد والجماعات في كلّ ما يتعلّق بهم من أمر دون إنابة عنهم في أمر من أمورهم التي يقدرون على القيام بها أو أدائها، ولا داعي للأحكام المسبقة التي تقول: (إنَّهم لن يكونوا قادرين).

. التأكيد على أهمية ممارسة الديمقراطية بشفافية، يزيل الشّكوك التي تظهر بين الحين والحين بين أفراد المجتمع أو جماعته، ويطوي الهوة بينهم إلى أن يجعلهم يدا واحدة في مغالبة الصِّعاب وصُنع المستقبل المأمول.

. التأكيد على أهمية الاستيعاب في تنمية رأس المال الاجتماعي.

. ترشيد الأفراد والجماعات على التَّمسُّك بقيمة الاستيعاب؛ حتى يتمكّنوا من تحقيق مجتمع القوّة.

. تفعيل المشاركة والتعاون بما يؤكّد أهمية كلّ فرد من أفراد المجتمع بالنسبة إلى الآخر وحاجته إليه.

. التخطيط لكلّ ما من شأنه أن يؤدّي إلى توزيع المسئوليّات حسب الاختصاصات والأدوار والصّلاحيَّات؛ لأجل تفعيل مبررات الاستيعاب المثمر.

. المشاركة في المؤتمرات العلميَّة والسياسيَّة والاقتصاديَّة؛ للتعرف على المتغيرات المستحدثة التي تؤدّي إلى نتائج موجبة في العلائق الاجتماعيَّة، والاستفادة منها في وضع البرامج وإعداد الخطط ورسم الإستراتيجيات التي تحقق النُّقلة.

. تشجيع أفراد المجتمع على إقامة صداقات خارج حدود الوطن من خلال شبكات المعلومات الدّولية؛ تحقيقا للتواصل مع الآخر واستيعابه بما يحقّق التقارب وتبادل المنافع.

. ترسيخ لغة ومفهوم: (نحن)؛ حتى لا تسري الشخصانية والأنانيَّة في سلوك بني الوطن وأفعالهم؛ لأنَّ كلمتي أنا وأنت تسمح بمسافة امتداد فراغي؛ لتجذب

مشاعر الخوف إليها، فكلّما زاد تمسُّك الأنا بأناته اندفع الأنت لإعادة حساباته، وهذه تزيد من الظّنون وتقلل من الثقة التي ينبغي لها أن تسود بين بني الوطن؛ ولهذا وجب سيادة: (أنا الفرد ينبغي لي أن أسود بكرامتي، وأنا الحريَّة ينبغي لي أن أعم النَّاس، وأنا الشفافيَّة ينبغي لي أن أكون في السّلوك والفعل، وأنا الوطن يجب أن أكون خالصًا لأهلي، وأنا الأبوّة والأمومة والأخوة والأسرة والجيرة التي لا ينبغي لأحد أن يُحرم أحد من مشاعري وانتمائي، وأنا دين الله الذي كُرِمت به الآدمية. وأنا المنطق الذي يجب أن أسود بينكم إذا أردتم التفاهم والتواصل وتبادل الاحترام، وإذا أردتم الاعتراف والتقدير، وأنا النَّاس كلّ النَّاس الذين لهم حقوق تمارس، وواجبات تؤدى، ومسئوليات تُحمْل، وأنا كلمة حقّ لا بدَّ أن أُقال. وأنت الباطل لابدّ أن تُزال، وأنت العبد يجب أن تتحرّر، وأنت الاستعمار يجب أن ترحل، وأنت القيد يجب أن تُفك بإرادة أو تُكسر بالقوّة، فأنت لم تكن أنا فلماذا لا تفهم؟ ونحن معًا نحن).

من هنا تتضح قيم (النّحن) الاستيعابيَّة، التي تُمكِّن الأفراد من الالتقاء على الحُجَّة والتفاهم، لا على التعصّب بلا حُجَّة ولا برهان.

وعليه:

ـ استوعب النَّاس يتم استيعابك.

ـ اعترف بحقوق النَّاس يتمّ الاعتراف بحقوقك.

ـ قدّر النَّاس تنل التقدير منهم.

ـ عامل النَّاس بشفافيَّة تُعامل بها.

ـ عامل النَّاس بمرونة يمدوك بالاحترام.

ـ اعتمد المنطق حُجّة حتى يصبح قاسمًا مشتركًا.

ولأنّ التمسّك بالمنطق تمسّك بالقواسم المشتركة. إذن: التمسّك بالقواسم المشتركة (قاعدة)، والتخلّي عنها (استثناء).

ومن هنا، ينبغي لنا العمل على تفطين أفراد المجتمع إلى أهميَّة التمسّك بالقواسم المشتركة؛ حتى يتوحّد الجميع على منطق (نحن)، الذي لا يقبل التفرقة والتجزئة والإقصاء.

ولهذا يفضّل أن تتمركز قواعد المنطق على الآتي:

ـ الحُجَّة إقناع واقتناع.

ـ البرهان دليل إثبات موضوعي.

ـ الاستيعاب بإعطاء الهامش.

ـ التوافق تمركز على عناصر القوّة.

ـ التفرّق تمركز على عناصر الضّعف.

ـ التقبّل رضا إرادي.

ـ الاعتراف إقرار بالفضيلة.

ـ الاعتبار إعطاء مكانة للآخر.

ـ التقدير معياري النجاح.

ـ التواصل استمرارية علائقية.

ـ الشفافيَّة وضوح في القول والفعل.

ـ تفهم الظّروف اعتبار ذاتي.

ـ التعامل بالقيم الحميدة تنمية أخلاق.

وعليه: فإنَّ تفعيل العلائق الاجتماعيَّة والإنسانيَّة يؤدّي إلى تحدّي الصّعاب، أمّا إهمالها فيؤدي إلى التراجع والانسحاب والضّعف الذي لا يؤدّي إلّا إلى الخسارة والانهزام[49].

منهج النُّقلة يُمكّن من معرفة المجهول:

العقل العلمي عقل متجدد، كلما بلغ مرحلة من مراحل الارتقاء تقدّمًا ولَّد من بعدها مرحلة أعظم أملًا، ومع أنَّ التحدِّي بأمل إحداث النُّقلة للمعلومِ فإنَّ تحقيق المعلوم أو بلوغه يكشف فسحة من بعده أمام ما كان مجهولًا، ومن هنا يدخل ما كان مجهولًا في مرمى المتحدِّين.

والمجهول هو ما لم يكتشف بعد، أو لم يتمّ التعرّف عليه على الرّغم من وجوده، أي: كلّ ما تمّ التعرف عليه، كان مجهولًا؛ ولهذا فلو لم يكن المجهول موجودًا ما كانت الإمكانيَّة متاحة لمعرفته.

فالمجهول هو ما لم يكن معلومًا بعد، ممّا يستوجب البحث من أجل كشفه والتعرّف عليه؛ ليكون إضافة جديدة للمعارف والعلوم السّابقة، فينبغي للبحّاث إنْ أرادوا معرفة المجهول أن يصوغوا له تساؤلات؛ فالتساؤلات تقود إلى معرفة المجهول في دائرة الممكن، ومن ثمّ؛ فالبحّاث الذين يعتمدون على صياغة الفروض

---

[49] عقيل حسين عقيل، تحدي الصعاب، مكتبة الخانجي، القاهرة، 2018م، ص 6 – 52.

العلميَّة لنا لن يتمكّنوا من معرفة المجهول، بل يتمكّنوا فقط من معرفة النّصف المتبقي من المعرفة المتوافرة لديهم، فالفروض وإن عظمت نتائجها لا تصاغ إلّا ونصف المعلومة غير مجهول، وللضّرورة هم يبحثون بهدف معرفة ما يتمّم نصف ما لديهم من معرفة.

أمَّا التساؤلات فهي أسلوب بحثي معمّق يمكّن أصحابه من معرفة الجديد المجهول: {عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ}[50] فقوله: (عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ!) تساؤل، ولم يكن سؤالا، ولم يكن استفسارا؛ ذلك لأنَّ السّؤال دائمًا يلاحق إجابة سابقة عليه، بهدف إعادتها ثانية أو أكثر من ذلك، وكذلك الاستفسار لا يكون إلّا عابرا ومن العموم، أمّا التساؤل فهو يستوجب بحثا علميّا وتقصّيًا دقيقًا من أجل معرفة المجهول.

ولأنَّ المشركين يتساءلون عن المجهول؛ فكانت المعلومة من العليم، أنَّ ما تختلفون فيه، هو: النبأ العظيم الذي يتنزّل تنزيلا، أي: إنّ المشركين كانوا يعتقدون أنّ ما جاء به محمّد عليه الصّلاة والسّلام لا يمكن أن يكون منه، وهنا كانت علامات الاستغراب تدور في أنفسهم كما تدور بينهم، وهم يتساءلون؛ فأنزل الله المعلومة حُجّة: (عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ)، وستكون الشواهد على ذلك متوالية، وسيعلم الكفار بذلك شواهد دالة على أنّه الحقّ المنزّل، (كَلَّا سَيَعْلَمُونَ). أي: إنّ المعجز إن تمّ الاستفسار عنه فلا يبلغ إلّا تنزيلا، أمّا الممكن فلا يبلغ إلّا بحثا معمّقا.

---

[50] النبأ 1 . 5.

ومن منطلق تحدّي الصِّعاب يجب تقدير الشّطحات العلميَّة؛ فهي في دائرة الممكن قد تؤدّي إلى معرفة المجهول، أمّا بالنّسبة إلى ما هو مستحيل فالشّطحات عندما تكون موضوعيَّة تمكّن من معرفته وإن قصرت عن معرفة الكيفيَّة التي هو عليها، ولكن عندما تكون الشّطحات غير موضوعية؛ فهي بلا شكّ ستزيد الهوة اتساعًا بين ما هو مستحيل، وما ينبغي للإنسان أن يتمكّن من معرفته وإدراكه.

ولذلك؛ فالتّطلُّع وتحدّي الصِّعاب يُمكّنان من استقراء المستقبل وصناعته، ثمّ يمكّنان من تجاوزه ارتقاءً، ومن ثمّ، إذا أردنا معرفة المستحيل وبلوغه استحالة فلا ينبغي لنا أن نضع إشارة (قفّ) أمام التفكير العلمي لبني آدم، بل ينبغي لنا أن نفكّر فيما نفكّر فيه حتى ننجزه عملًا متحقّقًا أمام المستحيل وآفاقه البعيدة، والذي بوجوده بعيدا عنّا يفسح لعقولنا مجالات التفكير فيه، والتمدّد تجاهه بلا موانع؛ فينبغي أن نفكّر في كلّ شيء، وبكلّ حرّية مقدّرة، حتى نعجز، وحينها نعرفه مستحيلا، ولذا؛ فلا مستحيل قبل العجز، ومن ثمّ؛ وجب البحث حتى بلوغ العجز الممكّن من معرفة المستحيل عن قرب؛ ولذلك خُلقنا.

ولأنّنا خُلقنا لذلك؛ فينبغي لنا أن نعمل، والمستحيل نصب أعيُننا، حتى ندركه عجزا، وحينها ندرك أنَّ الارتقاء إليه يمدّنا بالثّقة حيث كلّ شيء ممكن حتى وإن كان صعبًا وغير متوقّع.

ولأنّه المستحيل؛ فهو لا يعيق العمل ارتقاءً، بل الذي يُعيق العمل عن النّهوض، وإحداث النُّقلة، وبلوغ الارتقاء قمّة هو العمل الذي ينحدر بأصحابه في دونيّة الأخلاق وسُفلية التخلّف السياسي والاقتصادي والاجتماعي والإنساني والذوقي.

ولكن لأنّ الارتقاء والدّونية يتأثران بالمعرفة والتّخيير تذكّرًا وتدبّرًا وتفكّرا؛ فهما بيد الإنسان مطلبا ورغبة واختيارا، ولذلك؛ ينبغي لبني آدم أن يعملوا كلّ ما من شأنه أن يؤدّي بهم إلى تحدّي الصِّعاب وإحداث النُّقلة الممكّنة من معرفة المستحيل وبلوغه ارتقاءً.

وعليه:

. التعرّف على المجهول يزيد المؤمن ثقة وإيمانا بأنّه لم يؤت من العلم إلّا قليلا.

. البحث عن المجهول يفتح آفاقًا واسعة أمام المعارف الإنسانيَّة وينمّي الذاكرة ويحفّزها على المزيد.

. الانطلاق من المعلوم بحثا علميا يمكّن البحاث من إضافة ما كان مجهولا بالنّسبة إليهم.

. التعرّف على المجهول ليس بتعرّف على مفقود، بل هو التعرّف على الممكن الذي لم يسبق وجوده معرفة من قبل.

. التعرّف على المجهول ممكنٌ؛ فاسع حتى يصبح على يديك إضافة جديدة.

. البحث العلمي يكتشف المجهول، ويضيفه إلى المعرفة جديدًا؛ فابحث حتى تكتشف المجهول.

. التعرّف على المجهول يستوجب صياغة تساؤلات؛ فعليك بها صياغة.

. الشّطحات العلميَّة تؤدّي إلى الاكتشاف العلمي؛ فلا تُقولب عقلك وفكّرك ولا تقبل بوضع إشارة قف أمامك في أثناء قيامك بالبحث العلمي.

ـ فكّر فيما هو غير متاح حتى يصبح معلوما.

ـ ثق أنّ وراء كلّ مجهول كمًّا كبيرًا من المجهولات؛ فلا تقنط.

المنهج العلمي يُمكّن من صُنع النُّقلة:

الأمل حيويَّة التطلُّع إلى المأمول النَّافع، وإحداث النُّقلة لا يكون إلَّا بالعمل الجاد من أجل بلوغ المأمول ونيله؛ ولهذا خُلق الإنسان في أحسن تقويم؛ لكي يتحدَّى الصِّعاب بلا تردد، وأن يعمل على إحداث النُّقلة باستمرار؛ ذلك لأنَّ النُّقلة لم تكن نقطة واحدة معلومة ينبغي بلوغها والفوز بها، بل هي: مجموعة نقاط خلف بعضها تستدعي الإنجاز المتواصل، والجهد المستمر لبلوغ المزيد من نقاط إحداث النُّقلة المتجدِّدة.

ومع أنَّ الإنسان ارتقاءً خُلق مسيّرًا في أحسن تقويم، فإنَّه اختيارًا انحدر في غفلة حتى أصبح أقل شأنًا عمّا خُلق عليه، وعندما لامس القاع سُفليّة أخلاقيَّة أخذته الصّحوة والحيرة تملأ نفسه ندمًا؛ فاستغفر لذنبه؛ فتاب الله عليه، ولكن لم يتمّ ذلك إلّا بعد نفاذ الأمر وهو الهبوط به والأرض أرضًا، ومن هنا أصبحت تلك الحياة الخَلقية، التي خُلق فيها الإنسان الأوّل (آدم) جنّة لم تفارق عقله، وظلّ يأملها؛ حتى جاءت الاستجابة حافظة لأمله في العودة إليها ارتقاءً.

فبعد أن كان آدم قد خُلق على الارتقاء خلقًا، أصبح الارتقاء بالنّسبة إليه مجرّد أمل، ومع ذلك؛ فالأمل لا يتحقّق إلّا عملًا؛ فمن عمل من أجله بلغ مأموله، ومن لم يعمل؛ فلا ارتقاء.

ومع أنَّ الأمل بالنّسبة إلى بني آدم يرتبط بالمستقبل، فإنَّه بالنّسبة إلى آدم يرتبط بذلك الماضي الذي كانت فيه الأرض والسّماوات رتقا؛ ولهذا فالأمل بالنّسبة إلى آدم هو العودة إلى تلك الجنَّة التي فقدت في لحظة غفلة.

ومن هنا؛ فالأمل مع أنَّه من حيث المفهوم واحد، فإنَّه من حيث الدّلالة ليس كذلك؛ ولذا وجب التفكير في الزَّمن وضبطه بين ماض لن يعود وماضٍ يأمله آدم وبنوه؛ الذين يعتقدون أنّ الجنَّة حقيقة على قيد الوجود؛ فتلك الجنَّة التي خُلق فيها آدم وزوجه قبل أن تُفتق الأرض من السّماوات، ظلّت هناك في علوٍّ، أمّا الأمل فظل منقطعا على الأرض التي أهبط بها ومن عليها من المختلفين والمتخالفين دُنيا.

وعليه:

. فكّر فيما تفكّر فيه؛ حتى يصبح أملًا يشبع رغبة مرضية ولا تكون على حساب الغير.

. جمّع قواك العقليَّة والفكرية وخطّط بما يمكّنك من تفادي الصّعاب وأنت تعمل؛ من أجل بلوغ المأمول.

. حشّد الإمكانات، وعدّ العدّة المناسبة لبلوغ المأمول.

. انزع التردّد من نفسك، وتقدّم قوَّة تصنع المستقبل.

. استعن بمن يمدّك قوَّة، تُسهم في اختصار الزَّمن وتقليل الخسائر.

. اعرف أنّك كلّما أنجزت هدفا، وجب عليك تحديد أهداف أخرى أكثر أهمية؛ حتى تحدث النُّقلة إلى الأفضل المرتقب.

ولهذا؛ فالارتقاء قمّة، هو: ما يُمكّن بني آدم من العيش الرّغد في الحياة الدّنيا (الزائلة) وما يُمكنّهم من العيش السّعيد في الحياة العلية (الباقية)؛ فبنو آدم لا يقصرون أملهم على الحياة الزّائلة، التي يصرّون على أخذ نصيبهم منها، بل يربطون أمل عيشهم فيها بأمل العيش في الحياة الدّائمة، ومن هنا؛ فهم يعملون ويسعون إلى بلوغ المزيد المرضي ارتقاءً.

فالإنسان ينبغي أن يعيش والأمل لا يفارقه؛ فإن فارقه الأمل فلا معنى للحياة؛ فالله خلق أبانا آدم في النّعيم؛ ليعيش وبنيه حياة النّعيم، ولكن بأسباب الإغواء والمعصية أفسد حياته الباقية بالحياة الزائلة (الحياة المنقوصة)؛ حيث الفقر والألم والفاقة والمرض والتعرّض للمفاجآت والموت، ومع ذلك؛ وجب العمل الممكّن من بلوغ الحلّ رفعة وارتقاءً.

ولذلك؛ ظلّ آدم وزوجه على الرّفعة الخلقيّة حتى أقدما على عمل المعصية؛ فانحدرا هبوطا من تلك الجنَّة على الأرض الدّنيا، التي جُرِّدت من الصّفات التي كانت عليها عُليا.

ومن هنا، أصبح الصّعود للقمّة مطلبا وأملًا لمن فقد تلك المكانة، وبقي الخَلق الحَسن على ما هو عليه حُسنا، ولكن الأخلاق أصبحت على الاهتزاز تتبدّل من حَسنٍ إلى سيّءٍ، وكذلك من سيّءٍ إلى حَسن؛ {فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ}[51]. فآدم وزوجه شاءا أن يؤمنا وأمل العودة إلى تلك الجنَّة لم يفارقهما، ولكن بنيهما اختلفوا، بل تخالفوا على ما يؤدّي إلى الارتقاء، وما يؤدّي إلى الدّونية، حتى بلغ الاقتتال بينهم أشدّه. ومع ذلك؛ فالإصلاح بين المختلفين

---

[51] الكهف 29.

والمتخالفين لم ينقطع، وكذلك العفو والصفح ظلّا جنبا إلى جنب مع القصاص الحقّ.

فالإنسان ينبغي أن يعمل والأمل لا يفارقه، وعليه أن يعرف أنَّ العمل ارتقاءً وحده يطوي الهوة بين الأمل وصاحبه، وبين الحاجة المتطوّرة ومشبعاتها المتنوّعة.

ومع أنّ آدم قد خُلق في أحسن تقويم، لكنّه قد خسر ذلك الارتقاء بمعصية منه، ممّا جعله استغفارا يأمل الارتقاء عمّا انحدر فيه من سُفلية؛ فغفر الله له وتاب عليه بغاية الارتقاء إلى تلك المقامات العظام، ولكن الأمر لم يعد هينا؛ حيث لا عودة إلّا بالعمل الصّالح الممكّن من الارتقاء إلى تلك القمّة التي أصبحت أمل آدم بعد أن كانت بين يديه.

فآدم بعد أن خسر تلك المكانة القمّة، عمل على الارتقاء إليها ثانية، ولكن ظل الارتقاء إلى تلك القمّة من قِبل بني آدم أملًا وعملًا؛ فمن يعمل صالحا يقترب منها، ومن يعمل باطلًا يبتعد عنها؛ فالإنسان الذي خُلق على الارتقاء بداية، ثمّ انحدر عنه إرادة وشهوة، أصبح ثانية يسعى إلى العودة إلى القمّة، وهو يأمل أن تُرتق الأرض بالسّماء حتى يرى بأمّ عينه ما يأمله ارتقاءً.

وعليه:

.كلّما تكتشف أنّك على شيء من الخطأ؛ فاعرف أنّ معلومات خاطئة قد علقت بك؛ فتخلّص منها؛ فصحّح المعلومات الخاطئة بمعلومات صائبة ولا تتردّد.

ـ الخُلُقُ وحده يمكّنك من الصّمود الموجب، وانعدامه يجعلك في سُفليَّة؛ فعليك بالخلق ولا تفارق.

ـ الأخلاق تجعلك على الارتقاء وتمكّنك من بلوغ ما هو أكثر رُقيّا.

ـ ثق في نفسك إن أردت التحدّي، ولا تلتفت لمن يريد إغواءك عثرة من بعد عثرة.

ـ اعمل والأمل لا يفارقك؛ فالإنسان بلا أمل لا فرق بينه وبين من خُلق في دونية.

ـ ضع الدّروس نصب عينيك؛ ولا تنس ذلك الدّرس الذي تركه لنا أبونا آدم عليه السّلام، فهو بعد أن عصى ربّه بأسباب الأكل من المنهي عنه، عرف أنّ ما يُنهى عنه لا يكون إلّا مخالفا للفطرة الخلقيّة (في غير مرضاة الخالق)، أي: إنَّ المنهي عنه لا يكون إلّا لضررٍ، سواء أكان نفسيًّا، أم صحيّا، أم خُلقيّا؛ فآدم بعد أن أكل من تلك الشّجرة المنهي عن الأكل من ثمارها ندم وتألم، وظل على ما ألمّ به من ندمٍ وألمٍ حتّى غفر الله له ذنبه؛ ومع ذلك صدر عليه حكم الهبوط من الجنَّة ارتقاءً، إلى الحياة الدُّنيا على الأرض الدُّنيا.

ولذلك؛ فبأفعال المخالفة والمعصية يتمّ استشعار الذّنب؛ فيولد النّدم والألم في نفس من يأمل الارتقاء عمّا وقع فيه من معصية، ومن ثمّ، ليس للإنسان إلّا أن يلتفت إلى نفسه استغفارا وتوبة تخرجه من التأزّم إلى الانفراج، وتعيده إلى حيث ما يجب أن يكون عليه ارتقاءً؛ فآدم بعد الهبوط على الأرض الدّنيا لم يبق له أمل سوى أمل العودة إلى تلك الجنَّة التي خسرها بعلل الشّهوة والرّغبة والإرادة.

ومع أنّ الزّمن في أذهاننا مقسّمٌ بين ماضٍ وحاضرٍ ومستقبلٍ، ولكن التفكير تدبّرا في الوقت الآن لا يمكن أن يفصل مستقبل آدم المأمول عمّا نشأ فيه يقينا ولذلك؛ فالزّمن الحاضر كما يربطنا بما جرى ارتقاءً؛ فهو يربطنا بما نأمل الارتقاء إليه، سواء أكان المأمول قد حدث في الماضي، أم أنّه سيعود إلينا ثانية.

ومع أنَّ خلق آدم وزوجه كان خلق قمّة في أحسن تقويم، فإنَّ آدم وزوجه انحدرا عن تلك القمّة باختيارهما، ومع ذلك عندما عرفا أنّ العلّة قد ألمت بهما وكانت من وراء انحدارهما هبوطا دونيّا، ندما واستغفرا لذنبهما؛ فتاب الله عليهما، ومن هنا، نشأ لديهما أمل العودة إلى تلك القمّة الماضية وهي بالنّسبة إليهما الأمل المفقود، ولكنّ هذا الأمل المفقود لا يمكن أن يبلغ إلّا بالعمل ارتقاءً.

وهنا يتداخل الزّمن؛ فما يأمله آدم وبنوه المصلحون هو: تلك الجنَّة التي خُلق فيها آدم وزوجه، ولكن كيف تكون تلك الجنَّة هي الماضي، وتكون هي المأمول ذاته في المستقبل؟

أقول:

الجنَّة خُلقت وجودًا في الكون المرتق حيث لا وجود للأيّام، بل هناك اليوم الواحد: (اليوم الآخر) الذي لا وجود للظُّلمة فيه، حيث لا مجال للشّروق والغروب، ولأنَّه كذلك؛ فلا وجود للماضي والمستقبل، بل الوجود للحاضر، ولا شيء غيره.

فالمخلوق عندما ينتهي من الوجود الحي، ليس له من الأيّام إلّا الزَّمن الحاضر، وكذلك عندما يُبعث حيّا لن يجد شيئا مسجّلا إلّا في الزَّمن الحاضر الذي وحده سيكون الشّاهد الأوّل على الأعمال ثقيلها وخفيفها.

ولذلك؛ فكلّ حياة الإنسان هي زمنٌ حاضرٌ، وكلّ ما يعمله الإنسان فيها، ويتمّ استدعاؤه من الذاكرة لا يكون إلّا حاضرا في الزَّمن الحاضر. أي: كلّ شيء يُفعل أو يُعمل لا بدّ أن تسجله الحياة في صفحاتها حاضرًا.

فالزَّمن دائرة، نقطة بدايتها تتمثّل في كلّ نقطة من نقاطها المتّصلة، التي عندما يوضع الأصبع على أيّ منها تعدّ هي مركز منتصفها، وفي ذات الوقت تعدّ نقطة نهايتها، وهنا، يعدّ الزَّمن كلّه حاضرا، أمّا الأعمال في الزَّمن فهي الشّاهدة على من يقوم بها؛ ولهذا يموت العاملون وتبقى أعمالهم حاضرة؛ حيث لا وجود لماض يقبرها، بل الماضي يحفظها حاضرا.

ولهذا؛ فالآمال هي ما يحتويها الزَّمن كلّه؛ فلا تقصر آمالك على المستقبل وحده؛ فهناك من الآمال ما قد أنجز، ممّا يستوجب الأخذ به عبرة وموعظة، أو العودة إليه كنزًا لا يفنى.

وعندما تتاح لك فرص الاختيار فلا تتسرّع، وكذلك لا ينبغي أن تتأخر؛ فلكلّ حسابه؛ فلا تغفل.

وعليك أن تعرف أنّ زمن تحديد الأهداف ليس زمن حصاد نتائجها، فزمنها زمن الزراعة والبذر؛ ولذلك فالنَّاس يحدّدون أهدافهم، ثمّ يعملون على إنجازها وبلوغ الغاية التي من ورائها، مع العلم أنّ الزّمن بين تحديدها وبلوغها يحتاج إلى أعوام، وهذا يعني أنّ زمن تحديد الأهداف لم يكن هو زمن تحقيقها ولا تحقيق الغاية التي من ورائها، مع أنّ الزَّمن الذي حُدّدت فيه قد أصبح ماض، وهو في ذات الوقت بالنّسبة إلى إنجازها أو بلوغها لا يعدّ إلّا مستقبلًا.

ومن ثمّ؛ فتلك الجنَّة بمقاييس زماننا هي ماض، ولكن إن سلّمنا بذلك، ألا يعني أنّ الماضي سيظل ماضيًا ولن يعود؟ وإذا كان كذلك فلا أمل فيه، ممّا يجعل التسليم به، وكأنّنا نقول: لا وجود للجنّة في المستقبل.

ولهذا؛ فمن يعمل، ثمّ يزداد نموّا وارتقاءً فلن يبلغ جنّة غير تلك الجنَّة التي هي حاضر آدم وزوجه، وهنا نقول:

إنّ الماضي المأمول هو المستقبل بعينه؛ فمن شاء بلوغه فليعمل على مستقبل يربطه بالماضي ارتقاءً، ولكن هذا لا يعني الاجترار، ولا يعني الالتفات إلى الوراء، بل يعني: التقدّم تجاه المأمول نشوء وإبداعا منتجًا لكلِّ جديدٍ مفيدٍ يرتقي بالنَّاس إلى تلك الجنَّة، وحيث ذلك الماضي الذي خُلقت فيه الأزواج، والتي كان آدم وزوجه على رأسها في أحسن تقويم قمّة.

فالزَّمن متصّل بلا فواصل، وما يسمّى بالماضي والحاضر والمستقبل، لا يزيد عن كونه فواصل من عندنا، وليس من عند الزَّمن؛ فالزَّمن هو الزَّمن حاضرا، ولكن الأحداث التي تقع فيه تفصل بينها الأيّام التي بها تُعدّ السّنين، وفيها تُصنّف الأعمال بين من ثقلت موازينه من أجل العودة إلى تلك الجنَّة أملًا وارتقاءً، ومن خفّت موازينه انحدارا؛ حيث لا أمل له في ماضٍ لم يأمله مستقبلًا.

ولذا؛ فَخَلق الكون مُرتقا، ونشوء آدم وزوجه فيه ارتقاءً، ثمّ انحدارهما منه والأرض هبوطا، لا يلغي في دائرة الممكن أمل العودة إلى ذلك الكون متى ما تمّ رتقه كما كان أوّل مرة. {قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ}[52].

---

[52] العنكبوت 20.

فيُفهم من هذه الآية، أنَّ الخَلقَ والنشوء قد أوجدا كونًا أوَّلًا (كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ)، ثمّ أصبح الارتقاء فرصة، ولأنّه فرصة؛ فلا ينبغي أن تضيع من أيدي من سُنحت لهم؛ ولهذا فأوّل المغتنمين لها استغفارًا وتوبة كان آدم عليه السّلام؛ فتاب الله عليه بأمل العودة إلى حيثما كان عليه قمّة.

وبما أنَّ الارتقاء لا يكون إلّا حيثما توجد القمّة المأمولة؛ إذن فلا ارتقاءَ إلّا إلى حيثما هي كائنة، ولأنّها قمّة كائنة وجودا؛ فهي وجود سابق على من يرغبها أملًا لاحقًا، ومن هنا؛ فالزَّمن ليس هو ما نأمله، بل الذي نأمله ما يحتويه الزَّمن وجودا؛ ولذلك فالزَّمن هو الزَّمن، فحيثما كان الماضي يكون المستقبل حاضرًا.

ومن ثمّ؛ فالأهداف التي تصاغ في خِطّة بحثية في الزَّمن الحاضر هي الأهداف المأمول إنجازها في الزَّمن المستقبل الذي يوم أن تنجز فيه يكون هو الشّاهد (الحاضر) على إنجازها، كما كان هو الشّاهد حضورًا يوم تحديدها وصياغتها.

ولأنَّ النّشوء في دائرة الممكن ارتقاءً يُمكّن من بلوغ الغايات؛ فالمزيد من التّأهب إليه يُسرّع حركة إحداث النُّقلة مع تسارع امتداد الكون إلى النّهاية؛ ولهذا لن تستطيع تلك الأنظمة المعيقة للارتقاءِ أن تصمد أمام التسارع ارتقاءً تجاه إحداث النُّقلة المأمولة، بل كلّ الأنظمة التي رَكِب أصحابها المصاعد إلى الأسطح، ولم يضعوا في حسبانهم أنّه لا نزول إلّا من خلالها؛ فهم صَعدوها بلا سلالم، وبقوا هناك إلى أن أُسقِطَ بهم أرضًا.

ومن هنا؛ كان الفأر أكثر فطنة وذكاء من تلك القمم التي صعدت وبقيت هناك حتى أسقط بها أرضا في الزّمن غير المتوقّع؛ فالفأر ذات مرّة سُئل:

لماذا أيّها الفأر عندما تشعر بخطر تبدأ اللعب بذيلك؟

فقال:

ألا يكون من الأفضل لي أن ألعب بذيلي بدلًا من أنْ ألعب برأسي؛ فأنا عندما ألعب بذيلي أفكر، ولكن عندما ألعب برأسي يُلعب بي.

هكذا هي الرّؤوس بلا أمل يُلعب بها، وهكذا هي الفئران تفكّر؛ فتنجو؛ ولذلك فالعيش بلا أمل ممكن، ولكن لا حياة بلا أمل؛ ذلك لأنّ الحياة لا تكون إلّا والأمل يملؤها، أمّا العيش فلا فرق فيه بين حيوان وإنسان، ولكن ما هي الحياة أملًا؟ ومَن هو الإنسان أملًا؟

أقول:

الحياة الأمل هي التي لا يهدّدها الزّوال، وهذه لا تُبلغ إلّا إذا تجسّد الأمل عملًا محفّزًا بالرّغبة والإرادة؛ ولهذا فمن يعمل من أجل بلوغها يصنع لنفسه أملًا لا يموت حتى يورّثه لمن خلفه.

أمّا الإنسان الأمل؛ فهو الذي يولِّد من الفكرة فكرة تخرجه ومن معه من التأزّمات وتصنع لهم مستقبلًا يحدث لهم نقلة تمكّنهم من عمل الخوارق حتى يعرفوا أنّ المعجز معجز.

ولذلك فالواعون دائمًا هم السبّاقون والمبادرون بصناعة الأمل، الذي يقرّبهم من رتق الأرض بالسّماء ارتقاءً.

وعليه:

ـ فكّر فيما يجب قبل وجوبه؛ حتى تكون سبّاقًا قبل غيرك.

. اعرف أنّ الأمل لم يكن غاية، بل الغاية بلوغ المأمول؛ فاعمل من أجله إن أردته حقيقة بين يديك.

. تحدّ كلّ محيّرٍ؛ حتى تتجاوزه معرفةً، وتصبح السُّبل أمامك بلا عوائق ولا معيقين.

. اصنع أملًا؛ فالأمل لا يصنع نفسه، ولا يأتيك من الغير، واعرف أنّ المسافة بينك وبينه وإن كانت بعيدة فهي غير مستحيلة.

. فكّر في نفسك؛ حتى تستكشف نقاط ضعفها؛ لتتجاوزها قبل أن يشار إليك من الغير بما يمكن الإشارة به إليك إحراجا.

. اعمل بحيويّة وتفاعل إن أردت القضاء على الملل المعيق لك من بلوغ المأمول.

. عرّف من لك علاقة بهم أنَّ الصّعوبات لا تصمد أمام الصّامدين في سبيل تحقيق آمالهم، وحفّزهم على التحدّي؛ ذلك لأنَّ قبول التحدّي لما يؤلم يمكّن من بلوغ ما يدخل البهجة.

. تجاوز بهم قصور التفكير عند المتوقّع رتابة إلى غير المتوقّع الذي تملأه الحيوية بما يرشد إليه من جديد أكثر وضوحا.

. لا تصدّق ما تسمع؛ فإنْ صدقت ما استمعت إليه وكأنّه المسلّمات فقد تقع في السُّفلية والدّونية كما وقع فيها أبونا آدم عليه السّلام حينما غرّر به إبليس؛ فكانت النتيجة مؤلمة (خروجه وزوجه من الجنَّة).

. تأكّد أنّ وراء كلّ هدف أهدافا أخرى لا يمكن أن تعرف إلّا بعد إنجاز ما قد حدّد هدفا.

. تأكّد أن وراء كلّ هدف من الأهداف التي تمّ تحديدها غرضًا ووراء كلّ غرض أغراضًا جديدة.

. تأكّد أنّ وراء الأغراض غايات، ووراء الغايات غايات أعظم منها؛ فلا تملّ ولا تقنط.

. تأكّد أنّ التقدّم خطوات؛ فأسرع تقدّمًا دون تسرُّعٍ.

. اعمل على صناعة الأمل؛ فالأمل يصنع بلا يأس.

. تأكّد أنّك على القوّة، ولكن عليك بمعرفة أنّ قوّتك لن تخرج عن دائرة الممكن (المتوقّع وغير المتوقّع)؛ ولهذا فلا إطلاق لقوتك، ومن هنا يكون الضّعف والوهن، ومن هنا يجب الاستعانة بالغير؛ لاستمداد أفعال القوّة الممكّنة من إنجاز ما يفوق القوّة الفردية؛ ولذلك فالآمال العظام تحتاج لتكاتف الجهود، ولا استغراب.

. الأمل دائمًا لا يتحقّق إلّا بتهيؤ الآملين (تهيؤًا نفسيًّا وعقليًّا وبدنيًّا وصحةً وتعليمًا وتأهيلًا وتدريبًا؛ فعليك بمزيد من ذلك إن أردت بلوغ أمالٍ عريضة.

. اعرف أنّ الأمل لا يأتي إليك أبدا، بل الأمل تسعى إليه؛ فاسع فهو ممكن التحقّق، ولكن عملًا.

. بلوغ المأمول يستوجب عدةً وإعدادًا لها؛ فعليك بإعداد العُدة الممكّنة من بلوغ المأمول.

. الأمل يستوجب حوافز ودوافع؛ حتى لا يتسلّل الملل إلى العقل والقلب والنّفس البشرية، وخير الحوافر والدّوافع (الرّغبة) حيث لا عمل ولا أمل بلا رغبة؛ ذلك لأنّ الأعمال من دون الأمل تصبح أمنيات ليس إلّا. ولهذا فالأمنية شيء لا يستوجب الإقدام عملًا، أمّا الأمل فلا يكون إلّا والعمل أداته تخطيطا وتنفيذا مع وافر الرّغبة.

. الأمل عمل يستوجب الاستعداد إليه تأهّبا وعدة وإعدادًا ومن ثمّ استعدادا يُمكن الآمل من بلوغ أمله.

. الأمل يستوجب متأهّبا للإقدام على الفعل الممكن منه أملًا، وذلك من خلال تنفيذ ما رسم من خطّة أو استراتيجية قد أعدت من أجل بلوغه.

ولسائل أن يتساءل:

ألا تكون العلاقة بين الآملِ وأملهِ علاقة غاية؟

أقول: لا.

الأمل لا يزيد عن كونه شعورًا مرغوبًا، ولكنّه في حاجة لما يشبعه، أي: هناك علاقة بين الآمل وأمله، وهذا الأمر يجعل من الأمل حلقة وصل من دونه يكون اليأس هو ما تمتلئ به المسافة بين الآمل وما يمكن أن يكون له من آمال؛ ولذا فإن حدث ذلك أصبح الفرد أو الجماعة في مراحل الأمنيات وليس في مرحلة الآمال.

منهج النُّقلة يُفطّن الذّاكرة:

ولأنَّ المنهج لا يكون إلّا نتاج التدبُّر العقلي وعيًا بما يجب تجاه ما يجب فهو في نهجه حيويَّة تولِّد حيويَّة أعظم، ولكن مع أنَّ الإنسان خُلق مفضَّلًا في أحسن تقويم، فإنَّه بين الحينة والحينة يتعرَّضُ للغفلة، فتأخذه سكونًا، ثمَّ تجرُّه إلى الخلف؛ ولذا ينبغي تفطين الذاكرة بمستفزَّات تثيرها وتعيدها إلى المركز فطنة.

فالذّاكرة محفظة ذهنيَّة تستوعب ما يُخزّن فيها من معارف وعلوم وتجارب وأحداث، وتمكّن أصحابها من التزويد بما يتساءلون عنه وهي تحفظه، ولكن إن لم يكن قد حُفظ فيها فلا إمكانية للتزويد.

ولأنَّ الذاكرة هي مكمن الأسرار ومخزن المعارف والخبرات والتجارب الإنسانية، فهي قابلة لأن تُنشّط بمزيد من الانتباه والدّراية من خلال عمليات التذكّر والتدبّر والتفكّر؛ فينبغي على الإنسان أنْ يفكّر عن انتباه إذا أراد أن لا تضمر ذاكرته، وعليه بتنشيط ملكات عقله من خلال المران الذّهني، وإجراء عمليات المقارنة التي تمكّنه من التمييز بين الدّقيق والأدق منه، ومن ثمّ تمكّنه من التفكير المتوقّع وغير المتوقّع ارتقاءً؛ فالعقول دائمًا في حاجة لأن تُمرّن؛ حتى تمتلك القوّة التي تُلفت الإنسان لنفسه، وتيسّر له مشاهدة الآخرين وملاحظة وردود أفعالهم تجاه الغير.

ومن ثمّ؛ فعلى الإنسان أن يستدعي محفظته من الذّاكرة ويخضعها للتقييم، ثمّ يقوّم حالته؛ حتى يستبصر نفسه وما هي عليه، وما يجب أن يُغيره من أجل نفسه وأجل الآخرين.

فالإنسان إذا أراد ارتقاءً؛ فعليه أن يستوضح نفسه مثلما يحاول استيضاح أنفس الغير؛ حتى يتمكّن من إزاحة النقاط المظلمة فيها، وأن يتنزّه في نفسه حتى يستبصر من هو؟ وما له؟ وما عليه؟ ثمّ يعمل على التصحيح ويتحدّى عقله تفكيرا في نفسه؛ حتى يدرك أسرارها وخفاياها، ومن ثمّ يعرف أنَّ قوَّة البصيرة بقوَّة التفكير فيها، وهي لا تضعف إلّا إذا دخلتها الغفلة وسيّرتها الشّهوة؛ ولهذا فالفكر ارتقاءً يمكّن الآخذين به من التفكير فيما يفكّرون فيه حتى يفكّروا فيما هو أحسن منه.

ولهذا؛ فتفطين الذّاكرة لا يكون إلّا نتاج الوعي بأهميتها للإنسان الذي له من الآمال ما له، وله من ورائها آمال تحدث النُّقلة لكلّ مأمولٍ نافعٍ؛ فتفطين الذّاكرة ضرورة تستوجب حُسن التدبّر الذي يصنع المستقبل المشبع للحاجات المتطوّرة والمتنوّعة، ويُمكّن من بلوغ الغايات العظام التي تجعل من الإنسان قيمة مقدّرة؛ فينبغي الارتقاء فكرا وعلمًا ومعرفة وخُلقا، وأسلوبًا، وإلّا سيجد نفسه في منازل المستهلكين الذين يعيشون ليومهم عالة على جهود المنتجين والمبدعين وأهل الحُجّة والحكمة؛ فهم بهذه الأعباء يُجهدون المنتجين ويَشُدُّونهم للخلف ممّا يجعل الفارق كبيرا بين الجهد المبذول من أجل بلوغ قِمم الارتقاء، والحاصل المنتج الذي تُنتجه الصّفوة العاملة والمتطلّعة أملًا وارتقاءً.

ومع أنَّ الذاكرة حافظة، فإنّها قابلة لأن توسّع معرفة، وتُنشّط تذكّرًا من خلال تمكّنها من معرفة الموروث المعرفي الواسع، وتنشّط تدبّرا من خلال حسن الانتباه والالتفات لما يجب وقت وجوبه، وليس بعد أن يفلت ويصبح ماضيا، كما أنّها تُنشّط بالتفكّر الذي يمدُّها بالحيويّة المحفّزة على بلوغ الأمل ونيل المأمول.

ولأنَّ الإنسان يولد اجتماعيًّا حيث لا إمكانية للعيش منفردا، فهو في حاجة لمن يذكّره ويعلّمه كيف يتدبّر أمره، وأمر من تربطه به علاقات، ومع أنّ هذه قاعدة ولكن كما يقولون: لكلّ قاعدة استثناء؛ فآدم وزوجه لم يمرّا بهذه المرحلة؛ وذلك بأسباب الخَلق الآدمي المتكامل، حيث لا طفولة لهما ولا مراحل نمو قبل النُّضج، فهما قد خُلقا على النضج خلقا، وبالتّالي ليس لهما ما يتذكّران، ولكن بعد أن علّم الله آدم وأنبأه، أصبح لديه رصيدٌ واسعٌ من العلم والمعرفة؛ فيُمكنه أن يتذكّره، لِيُذكّر به الغير: {قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ}[53]؛ فتلك الأسماء التي أصبحت في محفظة عقل آدم، وتمّ استدعاؤها، أنبأ بها الملائكة حجّة؛ فسلّم الملائكة لآدم بعد أن كان الرأي اختلافًا.

ولكن على المستوى البشري من بعد آدم؛ فالتّجارب الإنسانية متشابهة، ويمكن تكرارها، فيكون النّظر إلى تلك التجارب من باب البحث عن حلول علّها تكون ناجعة في معالجة ما يحدث، وهنا تكون النّظرة إلى الماضي من باب البحث عن كلّ ما من شأنه أن يسهم في الوصول إلى حلّ، حتى وإن كان افتراضيًّا؛ لأنَّ كثيرًا من المشاكل تحتاج إلى اتكاءات جديدة تكون قادرة على حلّها؛ فيحدث الانزياح المراد ضمن توليفة يُجمع فيها في بعض الأحيان حتى النقائض التي لا يتوقّع لها أن تجتمع في يوم من الأيام.

وقد يكون الخوف حاضرًا فيها؛ لكونه يمثّل الانطلاقة الأولى، التي يكون على أساسها الوصول إلى الغايات المرجوة؛ فالبحث عن اتفاقٍ وحلٍّ يكمن من خلفه وجود خوف يحفّز ويرشد بطريقة أو بأخرى إلى تجنّب ما يجب تجنّبه، وأخذ ما يجب الأخذ به؛ فيكون الاستشعار في هذا التوجّه قائما على درجة عالية من

---

[53] البقرة 33.

الحذر؛ كي تكون النّهاية ملبّية للخوف المجنّب من الوقوع في السُّفلية ومؤدّيا إلى ارتقاء المأمول.

وعليه:

. الذّاكرة مكمن الأسرار.

. الذّاكرة قابلة لأن تنشّط وعيًا وانتباهًا.

. الذّاكرة قابلة لأن تمرّن بمزيد من المستفزّات العقليَّة والعلميَّة.

. الذّاكرة تنشّط تذكّرا.

. الذّاكرة قابلة لأن تنشّط تدبّرا.

. الذّاكرة قابلة لأن تنشّط تفكّرا.

. الذّاكرة تربط الأفراد بالتاريخ.

. الذّاكرة تربط الأفراد بالفضائل الخيّرة.

. الذّاكرة تربط الأفراد بالقيم.

. الذّاكرة تربط الأفراد بالمبادئ الإنسانية والأخلاقية.

. الذّاكرة تمكّن الأفراد من التمييز بين ما يجب وما لا يجب.

. الذّاكرة تنبّه بالمخيف والمقلق والمستفزّ.

. الذّاكرة لا شيء يضيع، ولكن قد يصعب الاستدعاء.

فالذاكرة محفظة المعارف والخبرات والتجارب الماضية التي يمكن الاتعاظ بها في زمن التدبّر، والوقوف عند هذه التجارب باختلافها يُعدّ وقوفا على إرث إنساني يمثل حقبة من حقب الماضي؛ فالتاريخ بتفريعاته وارتماءاته وتنوّعه يمثّل مجموعة من التجارب الإنسانية سواء أكانت على مستوى الأفراد أم على مستوى الجماعات، وهنا يكون النّظر الحاصل منطويا على الفكرة المطلوبة، فتُصبح بعد ذلك مطلبا من المطالب التي لا يمكن الاستغناء عنها؛ فيكون هذا الطلب فيما بعد حاجة ملحةً تكون حاضرة بشكلٍ أو بآخر في كثير من التفصيلات التي يكون حضورها ملبّيا للبداية الافتراضية التي كانت السبب في هذا الحضور.

إنَّ استدعاء الذاكرة للماضي فيه من الترابط ما يجعل التجارب الإنسانية تسير وفق نسق واحد على الرّغم من العقبات التي يمكن أن تحدث؛ فالتفاعل من خلال كلّ المديات الحاصلة يمثل هذا الترابط، ممّا يجعل البحث الدائم متحقِّقا في كلّ زوايا الماضي؛ ذلك أنَّ الماضي فيه من التحقّق ما يمنح الحياة الآنية والمستقبلية حلولا مهمة، إلَّا أنَّنا لا نعتقد بالتكرار المتطابق في الحياة؛ كون الظروف مختلفة أو غير متماثلة؛ فيكون الاختزال في بعض القضايا متحققا بدرجة بعيدة ممّا يسمح بظهور مديات واضحة يُطرح من خلالها هذا التفاوت؛ فتكون الصّورة المطلوبة في كثير من الأحيان غير مكتملة الأركان ضمن التشكيل المطلوب، وهذا يكون في حالة طلب الماضي ودمجه مع توجّهات الحاضر من أجل الوصول إلى إعادة تفعيل متشابهة تُمكّن الذاكرة وعيًا ويقظةً.

ومع أنَّ في الذاكرة يدخل الماضي حقل التراث، ولكنّه لم يكن من باب الجمود كأيِّ أيقونة ممكن أن تكون، ولكن من باب التبصّر والتمعّن والإيضاح الموقظ لما يجب أن يكون في دائرة الممكن المتوقّع وغير المتوقّع، فالإنسان يمر

بظروف تكاد تتشابه كثيرا على مر العصور؛ فينتج من ذلك نهايات تكون مختلفة ممّا يطرح في الذاكرة وجود آراء مختلفة؛ تجر إلى منعطفات لم تكن في كثير من الأحيان بالحسبان، ولعلّ تحقّق الأحداث العظام في الماضي يمثّل أحد هذه الاختلافات؛ فالإنسان يختلف تصرّفه كثيرا حتى في القضية الواحدة؛ إذ تحكمه كثيرٌ من الظروف التي تتنوّع فلا تقف عن حدٍّ معين؛ فيكون الارتماء ممثّلا بتداعيات مختلفة تطرح من خلالها الحدود المفترضة التي تكون النّهاية عند أعتابها؛ فتنساق الأمور في الذاكرة إلى امتدادات وإن كانت في بعض الأحيان واهية فإنَّها ممثّلة لاتجاهات فكرية كانت وراءها؛ ولهذا لا يمكن أن تكون هناك قطعية في الحلول؛ فالذّاكرة تحمِلُ كثيرًا من الحلول المختلفة ممّا يحيل إلى انتفاء القطعية التي يمكن أن تطرح على أيِّ صعيدٍ، فلم يكن هناك حلٌّ واحدٌ لكثير من القضايا وإن تشابهت هذه القضايا إلى درجة التطابق.

وفي الذّاكرة يكتنف الماضي كثيرًا من التشكيلات التي يمكن الوصول إليها بقراءة واعية بما يسبغ عليها من طروحات؛ ولهذا نجد يوما بعد يوم ظهور تأويلات مختلفة للماضي وقد تكون متناقضة، لكن هذا يدلل على وجود حيّز كبير في الامتداد الفكري الذي يجوب أروقة الماضي ويقف عند محطاته الشّاخصة التي تكون فيما بعد دروسا يستفيد منها من يبحث عن حلّ لما يمرّ به الإنسان؛ ولهذا وجب العمل على تفطين الذّاكرة من خلال تمرينها تدبّرا، وتنشيطها تذكّرًا وتفكّرًا.

ومع أنَّ للذاكرة علاقة بالتّاريخ؛ من حيث إنَّها محفظة أحداثه وقضاياه، ولكن التّاريخ دائمًا يطرح مغايرات مهمّة تكون عند أعتابها نهايات قد تتكرّر، وهذا يُسيّر عجلة الزّمن نحو إيجاد تعالقات متشابهة تكون أكثرها منتمية لبداية سعت دائمًا إلى حلحلت ما يمكن حلحلته في سبيل الوقوف على حدود واضحة

المعالم، وهنا يكون السير في هذا الرّواق منكفيا على تجارب حاضرة وملبّية في الوقت نفسه للتساؤلات التي يمكن أن تُطرح، فتكون التبعات متحقّقة؛ كونها تمثّل امتدادا مطلوبا، والتاريخ فيه من السّعة ما يجعل كثيرًا من المقولات شاخصة في كلّ زمان ومكان، فمقولة: (التاريخ يعيد نفسه) تتكرّر على كثير من الألسنة لكنّها كما نعتقد لا تمثّل تشكيلا عامًّا في هذا النسق الإنساني؛ ولذا وجب تفطين الذاكرة؛ لكي لا يضيع التاريخ ولا يزوّر، ومع أنّ الذاكرة حاوية التاريخ وحافظته، لكنّها لم تكن جزءًا منه؛ ولهذا أحداث التاريخ تتكرر والذاكرة لا تتكرر، فالتكرار قد يحصل لكنَّه هل يحصل كما حصل في الماضي؟

هذا التساؤل يفضي بنا إلى أن نقول:

إنَّ التاريخ يمكن أن يعيد نفسه، لكن هذه الإعادة لا تكون بالتطابق التّام؛ لأنَّ هذا الأمر يكون من الصّعوبة بمكان أن يتحقّق، ومع ذلك فالتّجارب الإنسانية متشابهة ويمكن تكرارها، فيكون النّظر إلى تلك التجارب من باب البحث عن حلول؛ علّها تكون ناجعة في معالجة ما يحدث، وهنا تكون النّظرة إلى الماضي من باب البحث عن كلّ ما من شأنه أن يسهم بشكلٍ أو بآخر في الوصول إلى حلّ حتى وإن كان افتراضيًّا؛ لأنَّ كثيرًا من المشاكل تحتاج إلى اتكاءات جديدة تكون قادرة على حلّها، فيحدث الانزياح المراد ضمن توليفة يُجمع فيها في بعض الأحيان حتى النقائض التي لا يتوقّع لها أن تجتمع في يوم من الأيام.

وأي تشكيلٍ نذهب إليه يكون الخوف فيه حاضرًا في الذّاكرة؛ كونه يمثّل الانطلاقة الأولى التي يكون على أساسها الوصول إلى الغايات المرجوة، فالبحث عن حلّ يكمن من خلفه وجود خوف يحفّزه ويرشده بطريقة أو بأخرى إلى البحث

عن حلّ يكون من بعده سقوط أو تبدّد كلّ المخاوف القائمة؛ ولذا يكون الاستشعار في هذا التوجّه قائمًا على درجة عالية من الحذر؛ كي تكون النّهاية ملبّية للخوف الأوّل الذي كان محفّزًا بدرجة جعلت من آليات البحث عن حلّ خاضعة لهذا الخوف، وما سبقه من أحداث فيها من التشابه ما فيها، وفيها من الاختلاف ما فيها، وفيها من المتوقّع وما لم يكن متوقّعا، ونتيجة لما تحمله الذّاكرة من متناقضات تاريخية؛ فهي دائمًا في حاجة للتفطين والتنشيط؛ حتى لا تُفقد العلوم والمعارف والخبرات والتجارب والعبر والمواعظ[54].

منهج النُّقلة يُمكِّن من بلوغ الغايات:

لا تعد الغايات أهدافًا تنجز وأغراضًا تتحقّق، بل هي المترتّبة عليهما معًا؛ ولهذا يراها بعض النَّاس بعيدة المنال، في الوقت الذي هي فيه لا تخرج عن دائرة الممكن.

والغاية: هي ذلك الشيء الممكّن من بلوغ المأمول، وهي تُبلغ عملًا وجهدًا يبذل في سبيل الإنتاج وقبول التحدّي وتجاوز الصِّعاب بعد مغالبتها بأهداف تنجز وأغراض تتحقّق.

والغاية مع أنّها تُبلغ فإنَّها لا تدرك إلّا من قِبل صاحبها الذي يأمل بلوغها؛ فهي لم تكن هدفًا مشاهدًا، بل هي ذلك المجرّد الذي يدرك ولا يشاهد.

والغاية لم تكن هي المأمولة، بل هي ما يمكّن من بلوغ المأمول، أي: إنَّ المأمول هو ذلك الشيء المراد نيله أو الفوز به، أمّا الغاية فهي الكامنة في العقول

[54] عقيل حسين عقيل، الخوف وآفاق المستقبل، ص 124 ـ 127.

والصدور، والتي في الغالب لا يعلن عنها حتى بلوغها ومن بعدها يتمُّ نيل المأمول الذي كان في الأنفس مجرّد غاية وأمل.

فالغايات لم تكن مثل الأهداف التي تحدّد بوضوح، بل هي في عقل الضامر وضميره، الذي وحده يعرف ماذا يريد؟ أو ماذا يرغب من وراء تلك الأهداف التي حدّدها وثابر على إنجازها؟

فالباحث العلمي على سبيل المثال: لا بدَّ له أن يحدّد أهداف بحثه أوَّلًا بأوّل؛ حتى يتمّ اعتمادها من قِبل الأستاذ المشرف والتصديق عليها من لجنة القبول، أمّا أغراض الباحث وغاياته فهي من وراء نيله درجة الماجستير أو الدكتوراه، وهو وحده الذي يعرف غاياته، ولا يعلمها إلّا الله أو من أخبرهم بها.

ولأنَّها الغاية فهي لا تدرك إلّا ممن يعلمها سرًّا وجهرًا، فعلى سبيل المثال: الغاية من التمدّد المطلق لا يعلمها إلّا العليم المطلق، فمعرفة الغاية من تمدّد الكون متجاوزة لدائرة الممكن، فلا تدرك إلّا من خارجها (من قِبل من بيده العلم المطلق) الذي خلق ويخلق وسيخلق، قال تعالى: {وَالسَّمَاء بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ}55 .

ويفهم من هذه الآية: أنَّ ما اكتشفه علماء الفيزياء من تمدّد كوني، لا مفاجأة فيه لمن يعلم أنّ صفة الخالق هي الخلق بلا انقطاع، فهو الذي خلق الكون (السّماء والأرض)، وهو الذي خلق الأكوان (السّماوات والأرضين)، وهو الذي خلق التمدّد الكوني بلا انقطاع (وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ) وهو الذي بيده نهاية الكون:

---

55 الذاريات: 47.

{كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ}[56]وهو الواحد الذي يعلم الغاية من وراء ذلك، ولا أحد بإمكانه أن يعلمها.

فعلماء الفلك والفيزياء وكذلك المؤمنون على الرّغم من خلافهم على خَلقِ الكون، فإنَّهم يتّفقون على أنّه لم يعد بعد بلوغ الغايات إلّا النّهاية التي لا يعلم الغاية من ورائها إلّا الله جلّ جلاله.

وعليه:

الغاية لم تكن النّهاية كما يعتقد بعض النَّاس؛ ذلك لأنّ الغاية من ورائها مأمول، أمّا النّهاية فمن ورائها العدم، أي: إنّ الغاية تُبلغ ليكون من بعدها المأمول بين اليدين قابلا للتعامل معه حقيقة في ذاته وليس غاية، فالغاية دائمًا تكمن في الصدور والعقول، وهي تتطلّب حُسن تدبُّر حتى تُبلغ، ومع ذلك لم يكن بلوغها في ذاته هو الغاية، بل الغاية هي التي تُمكِّن من بلوغ الشيء؛ ليكون من بعد بلوغه قابلا لنيله أو قابلا للنيل منه أو الفوز به شيئا بعد أن كان مجرّد أمل.

ولهذا فالغاية هي الأخرى قابلة للتجاوز، أي: قابلة للتجاوز بما هو مأمول، فالغاية تُمكّن أصحابها من بلوغ المأمول؛ ولهذا لم تكن هي المأمولة، هي فقط تُوصِّلُ أصحابها عملًا حتى ملامسة المأمول، ولكن كيف ينال المأمول؟ أو كيف ينال شيء منه؟ أو كيف يمكن أن يتمّ الغوص في أغواره؟ فهذا حسب الجهد والأسلوب والمقدرة، وهو أيضًا بعد أن يتمّ بلوغه غاية قابلة لأن تتجسّد في الشيء المشبع للحاجة أو الملبّي للرّغبة أو المقصد أو الطلب.

---

[56] الأنبياء: 104.

إذن: الغاية لم تكن الشيء كما يظن بعض النَّاس حتى يقال عنها: (الغاية هي ذلك الشيء)، بل الغاية للمُشيء (الإنسان)، فالغاية لا تزيد عن كونها ذلك الذي يضمره العقل البشري تجاه ذلك المأمول، الذي يستوجب بعد بلوغه غاية كيفية بها يتمّ التعامل معه أو التمكّن منه أخذا؛ ولهذا سيكون هناك جهد يبذل بعد بلوغ الغاية، وهو التعامل مع المأمول كسبا وإشباعا للرغبة أو الشّهوة أو الحاجة المتنوّعة.

فعلى سبيل المثال: إذا كان للإنسان غاية محدّدة وهي السّفر إلى دولة ما ولتكن: ألمانيا، وتحقّق له هذا السّفر ودخل إلى ألمانيا، فهنا تعد الغاية قد تمّ بلوغها، ولكن ما المقصد من ورائها؟ هل المقصد من ورائها هو العمل أم العلاج؟ أم مجرّد الإقامة والعيش هناك؟ فهذا الشيء لم يكن الغاية، بل هذا الشيء هو المأمول وهو المترتّب على بلوغ الغاية (بلوغ الأراضي الألمانية). ممّا يجعل لمن كانت له غاية السّفر إلى ألمانيا أن يفصح عن مأموله وأن يعمل عليه حتى يتمّ نيله أو الفوز به وفقًا للجهد الموضوعي.

ولهذا فالغاية لا تزيد عن كونها الكامنة في الصّدور والعقول التي ترسم لمستقبلها مأمولات وتسعى إليها غاية تبلغ، ومن بعدها يتمّ نيل المأمول جهدا مع قبول تحدّي الصِّعاب وصبرًا لا يجعل في نفس صاحبه للملل مكانا ليركن إليه.

وعليه:

ـ الغاية تُبلغ فلا تقنط.

ـ الغايات لا تبلغ إلّا تحدٍّ؛ فعليك بالتحدّي الذي يمكّنك منها تيسيرًا.

. الغاية مع أنّها في النفس وتحت سيطرة العقل، فإنَّ الشيء المراد بلوغه قد يكون بعيدا، ومع ذلك قوّة الغاية وتحفّز أصحابها يسرّع من طي الهوة بين مَن يضمر في نفسه غاية والشيء المراد بلوغه.

. بلوغ الغاية يُمكّن من تفحّص المأمول ونيله.

. الغاية تُبلغ ولكنّها لم تكن في ذاتها شيئا، بل الغاية بلوغ الشّيء؛ ليكون من بعد بلوغه عملًا يجعل نيل المأمول الذي تمّ بلوغه ميسّرا.

. الغاية تُمكّن من بلوغ الشيء، ولكنّها لم تكن هي الشيء في ذاته؛ فالشيء يتم نيله أو أخذه، أمّا الغاية فلا تؤخذ ولا يتمّ نيلها، بل نيل الشّيء لا يؤخذ إلّا من بعدها؛ فينبغي للإنسان أن يولّد في نفسه غايات وفي عقله تدبّرًا، ثمّ يعمل حتى يتمّ نيل المأمول الذي لم يكن قبل نيله إلّا مجرّد أمل.

ومن ثمّ؛ فمن يرد أن يبلغ الغايات العظيمة فعليه أن يجعل غاياته درجات سلّم (درجة أعلى من درجة) أي: كلّما وضع الإنسان أحد قدميه على درجة من درجات السّلّم، أهّب قدمه الأخرى إلى الدّرجة التي هي أعلى من التي وضع عليها قدمه الأولى؛ ولذا لا ينبغي لأحد من بني آدم أن يغفل ويضع قدميه معا على درجة من درجات السّلم؛ حتى لا تنكسر بأيّ علّة ويجد نفسه قد وقع على الأرض الدّنيا حطامًا؛ فالقدمان لا يوضعان بسلام وصاحبهما مطمئن إلّا على قمّة استراحة السّلم الذي يرتق الأرض مع السّماء ارتقاءً.

إذن: بلوغ الغايات يستوجب:

. تخمينًا مع حُسن تدبّر.

. وعيًا بالمأمول.

. إمكانية بلوغ المأمول.

. قبول تحدّي الصِّعاب.

. صبرًا لا إحباط من بعده.

. ثِقة لا شكّ يراودها.

. يقينًا لا حياد عنه.

. صمودًا، وإن كانت الصِّعاب تصاحبه مؤقّتا.

. ثباتًا ولا حياد عن تلك الأهداف الواضحة تجاه الغايات المراد بلوغها.

. عملًا مؤسّسًا على التفهّم والتبيّن حيث لا غموض.

. اعمل وأنت تفكّر في كيفية توليد الغاية من الغاية.

ولذا؛ فعلى بني آدم أن يعملوا، وعليهم أن يعرفوا أنّهم سيبلغون السّماء ارتقاءً كلّما عملوا وفقَ غايات يتمّ بلوغها، ولأجل بلوغ الارتقاء قمّة؛ فلا بدَّ من سيادة الفضائل الخيّرة والقيم الحميدة بين بني آدم تقبّلًا، واحتراما، وتقديرا، واعتبارا، واستيعابا، وتفهّما، وتدبّرا، مع مراعاة البدء مع النَّاس من حيث هم، من أجل أن يبلغوا الغايات العظام.

ولأجل ذلك: ينبغي للإنسان أن يكون له غايات قابلة للبلوغ، وينبغي له أن يكون من وراء الغايات التي تمّ بلوغها غايات أعظم من تلك التي قد بُلغت وحقّقت الاطمئنان لآمليها.

وكذلك في دائرة الممكن غير المتوقّع هناك من يحدّد أهدافه بمعزلٍ عن قدراته وإمكاناته المتاحة، ممّا يجعل الأهداف لا تزيد عن كونها قد كتبت على الورق، أو خبّأت في الصّدور، وهنا يقف حمار الشّيخ عند العقبة، حيث لا شيء ينجز، سوى الحديث عن تلك الأهداف المقبورة، وهنا يكمن الوهن والضعف، ولا تتحقّق الغايات التي بنى بعض النَّاس عليها آماله وهمًا وتخيلًا.

ومن ثمّ، ينبغي لبني آدم عند رسم السياسات أن يجعلوا وراء كلّ هدف غرضا، من ورائه أغراضًا تحقّق لهم المكانة والكرامة، أي: تحقّق لهم المكانة الشّخصية قدوة، وتحقّق لهم الكرامة الآدميّة قوَّة ورفعة، وتحقّق لهم العيش السعيد قيمة. ولكن إن لم يعملوا ويفعلوا فلا شيء لهم إلّا البقاء على الرّصيف بين حاجة وشُبهة، وهنا يكمن الانحدار علّة.

ولذا؛ فكلّما أنجز هدف، من ورائه غرض، من ورائه غاية، يتمّ اكتشاف أهداف من ورائها أغراض تحقّق غايات أكثر أهمية، فالحياة الدّنيا لا غاية من ورائها إلّا رتق الأرض بالسّماء ارتقاءً، أي: كلّما وضع الإنسان أحد قدميه على درجة من درجات السّلم ارتقاءً وتحقّقت له الرّغبة المرضية قيمة وفضيلة، يجدّ نفسه أكثر رغبة تجاه الصّعود إلى الطوابق العليا حتى يرى بأمّ عينيه أنّ الأرض والسّماء قد رُتقتا جنّة.

فعلى بني آدم أن يعرفوا أنّهم سيبلغون السّماء ارتقاءً كلّما عملوا وفقًا لأهداف تنجز رغبة، وأغراض تتحقّق عن إرادة، وغايات يتمّ بلوغها عن قوَّة، ولكن إن أحسّ بعضهم بشيء من التّعب فعليهم بوضع أيديهم مع أيدي

الصّاعدين ارتقاءً، وعليهم أن يتأكدوا أنّهم في حاجة لوضع أيدهم مع أيدي الصّاعدين قوّة.

وعليه:

فالغايات هي حيويّة الدّوافع، ومثيرة الحوافز النفسيَّة والذهنية والعاطفية بقوّة الرّغبة والأمل تجاه ما يمكن أن يبلغ في دائرة الممكن المتوقّع وغير المتوقّع. والإنسان بلا غايات هو إنسان بلا آمال؛ ومن ثمّ فلن يكون في عصره من بين صنّاع المستقبل ومُحدثي النُّقلة[57].

منهج النُّقلة يمكّن من نيل المأمول:

بطبيعة الحال كلَّما حدثت نُقلة فتحت بابًا أوسع أمام أملٍ ومأمولٍ أعظم؛ ولهذا فالعلاقة الترابطيَّة قويَّة بين المأمول والنُّقلة، ما يجعل نيل المأمول محقِّقًا للنقلة، وفي المقابل بالتمام يجعل النُّقلة قادرة على بلوغ مأمولٍ أهم وأعظم مما تحقّق من مأمولات.

وعليه: نيل المأمول لا يعدُّ أمرًا هيّنًا، وهذا لا يعني أنّه خارقة، بل المأمول في معظمه عند العظماء عظيمٌ؛ ولهذا لا يمكن بلوغه ونيله إلّا بتحدّي الصّعاب، فالمأمول هو الباعث الذي ولّده الأمل فكرة حتى أصبح شيئا يتم بلوغه ونيله؛ ولأنّه مولود الفكر فهو للآملين مثل الوليد للآباء رعاية وعناية، وحرصًا وعملًا جادًا، تحشّد الإمكانات وتبذل الجهود من أجل بلوغه، ثمّ نيله والحفاظ عليه حفاظا على مولود من الأصلاب، دون أن يوقف الإنجاب من بعده؛ فالابن دائمًا

[57] عقيل حسين عقيل، مبادئ التنمية البشرية، مكتبة الخانجي، القاهرة، 105 . 113.

في حاجة لأخوة، والآباء في حاجة للأبناء رحمة، وهكذا المأمول يتولّد من الفكرة والمشاهد مأمولا من بعده مأمول.

المأمول لا ينجبه الانتظار، بل ينجبه القبول بتحدّي الصّعاب والإقدام على تحديها، ومن ثمّ ينجبه الفكر المنظّم والعمل الجاد، وفي المقابل الانتظار لا عمل، ولا عمل يساوي نتيجة صفرية؛ ولهذا فالمأمول لم يكن المنتظر، بل المتوقّع كما هو، فإذا جعلنا المأمول منتظرًا فلا داعي للعمل، فهو المتوقّع الذي حُددت الأهداف من أجله، وَوَضَحت الأغراض والغايات من ورائه، ورسمت الخطط والإستراتيجيات المؤدية إلى نيله.

ولأنَّ المأمول لم يكن المنتظر؛ فهو أيضًا لم يكن المرتجى؛ فالمرتجى لا سبيل لبلوغه إلّا من خلال الغير الذي قد لا يستجيب لمطلب ولو توسّل المتوسّل، أمّا المأمول فلا انتظار ولا توسّل إلّا لله تعالى، إنّه الاعتماد على النفس والإمكانات المتاحة والتي يمكن أن تتاح إرادة ورغبة وضرورة.

والمأمول لم يكن الجهد المبذول، بل ما يبذل من الجهد من أجل نيله: (إنّه المترتب على الجهد الذي أنتجه شيئا ملموسا) فالفلّاح على سبيل المثال: يحرث ويزرع وأمل الحصاد لا يفارقه، ولسائل أن يسأل:

لم لا يكون الحصاد مأمولًا؟

أقول: الحصاد جهد يبذل، وهو أمل الفلاح، أمّا مأموله فهو أن ينال إنتاجا وافرا. فإن كان وفيرا نال مأموله، وإن كان غير ذلك فسيكون موسمه درسا له لمواسم أكثر أملًا.

وعليه:

الأمل يحرّك الآمل ويدفعه، ونيل المأمول يطمئنه ويحفّزه على المزيد، فالآمل لا يقنط، والحياة الدنيا بالنسبة إليه مدرسة يجب أن يكون فيها ناجحا ومتميّزًا إن أراد أملًا أعظم في حياة أعظم.

والمأمول وإن صعب نيله فنيله ممكن، شريطة القيام بعملٍ موجبٍ، مع صبر على بذل الجهد والمثابرة، ثمّ تحدّي الفشل، مع العلم أنّ الفشل لا يكون إلّا بأيدي اليائسين، ولا يكون إلّا عن إرادة منهزمة لشخصية لا تقبل التحدّي، وهذا لا يعني: أنّ المأمول صعب المنال، بل يعني: فقدان العزيمة (تصميمًا وإصرارًا) على حياة أفضل، والعزيمة لا تمنح، ولا تشترى، بل هي تستمدّ من العقل الذي يفكّر في أمره وتحسين أحواله وضمان مستقبله، وهذه لا تكون إلّا بيد العقلاء؛ فمن له عقل لا يليق به ألا يستثمره ويوظفه فيما يفيد شخصه ومن لهم علاقة به، فالذي اختار أمله غزو الفضاء، قد اختار الصّعب تحدّ، فبلغ الفضاء غزوا ومأمولا، ومن ثم ثبت لنا أنّ الصّعب لا يصمد أمام المتحدّين، أي: إنَّ الصِّعاب لا تستسلم إلّا على أيدي المتحدّين؛ ولذا فلم لا نتحدّى؟

والمأمول مع أنّه باعث خارجي (خارج الفكرة) فإنّه لا يكون إلّا خلقا أي: خلق (الشيء ولا شيء)، أو أنْ يكون مولود الفكرة، فعقل الإنسان لو لم يفكّر ما أنتج الفكرة، ولو لم يكن مستبصرا ما ولّد من المشاهد فكرة.

والمأمول يتعدد ويتنوّع وفقًا للحاجة والمطلب، وهو لا يُبلغ إلّا عن إرادة وجهد يبذل مع القبول بدفع الثمن، وقد يكون المأمول خاصًّا وفقًا للحاجة والشهوة وهو كثير، وقد يكون عامًّا؛ كونه مأمولا عظيما، وكلّ مأمول عام فيه منافسة، وقد يكون عليه الصراع؛ فرئاسة الدّولة مأمولة عند كثيرين، والمنافسة الحرّة

وفقًا للدستور وحدها الحاسمة، ولكن لا يمكن أن يكون رئيس للبلد إلّا فائزا واحدا. ومع ذلك بعض البشر قد يحترم نتائج الدستور وبعضهم قد لا يحترمها، فتنقلب المنافسة الحرّة إلى صراع دام، وهنا تكمن العلّة، وقد تحدث الانقلابات على الدساتير كرها، وهذه في معظمها أساليب لا تُحترم عند أهل الثقافة.

ولأنّ الانقلابات لا تكون إلّا كرها؛ إذ لا دستور، فهي تحمل عناصر فنائها فيها، ممّا يجعل بعد كلّ انقلاب انقلابات.

والتعليم مثال آخر على المأمول العام: فهو مع أنَّه عامّ، لكنّه لا يكون على حساب أحد، وفيه يتنافس المتنافسون.

أمّا الفوز بالجنَّة فيعد المثال الأعظم للمأمول العام، ومع أنَّها مأمول عام، لكنّ بلوغها والفوز بها لا يكون إلّا خاصّا؛ لأنّ نيلها نيل مكانة، مكانة تستوعب الجميع دون أن يكون أحد على حساب آخر. وهنا لا مقارنة بين مكانة رئاسة الدولة التي لا تشغل إلّا مفردة، ومكانة أعظم تستوعب ما خلق مأوى ونعيما ومتعة، قال تعالى: {يَا قَوْمِ اعملوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ}[58].

ولهذا فالجنَّة مأمول ولم تكن أملًا، فالأمل مولود الفكرة، أمّا الجنَّة فخلق الخالق، وهي متاحة لمن يشاء ويعمل من أجل نفسه ونيلها فوزا مع الفائزين.

ومع أنَّ المأمول عام (الجنَّة)، فإنَّه لا يتم نيله إلّا بجهد خاصّ؛ لأنّ العلاقة بين المخلوق المجازَى بها والخالق المجازي بها علاقة خاصّة.

[58] الأنعام 135.

أمّا إذا كان المأمول عامّا والمطلب أيضًا عامّا؛ فالمثال الذي يمكن سوقه افتراضا: أنَّ دولةً ما قد تمّ احتلالها من الأجنبي، ففي هذه الحالة لن يكون لمواطنيها مأمول إلّا تحريرها، ومن هنا يصبح المأمول العام مطلبا عامًّا؛ ولا أمل للشعب كلّه إلّا تحرير وطنهم، فيعملون كلّ ما هو ممكن؛ حتى يتحرر كما أملوه مأمولا.

وهناك ما يماثل هذه الأمثلة، من حيث إنَّ المأمول جمعيًّا والنوايا فردية، كالقيام بفريضة الحج المأمولة من المسلمين، غير أنَّ تأديتها لا تؤسّس إلّا على النيّة، وهذه لا تكون إلّا فردية وكأنَّ الفرد حاج بمفرده، فينوي بنفسه حجّا، ثمّ يتقدّم مع الحجيج لأداء الأركان الأخرى، ومن هنا يندمج الأنا في الذات العامّة.

ولسائل أن يسأل:

أين الأمل في هذا المثال؟

أقول: الأمل: تلك الحيويّة التي هيأت المسلم لإعداد العدّة استعدادا و تأهبا حتى قام بأعمال الحج، وناله من بعد غاية.

والآمل: المسلم المقدِم على أداء فريضة الحج.

أمّا المأمول: القيام بالفريضة على أتم وجه.

فالحج مع أنَّه مأمول عظيم لدى المسلمين؛ لكنّه يعد عملًا يجب القيام به من أجل مأمول أعظم (الجنَّة) حيث النعيم الدّائم، أي: إنَّ المسلمين يميزون بين النعمة والنعيم؛ فهم يعرفون أنّ الدنيا بيت النعم المتعددة والمتنوّعة، وأنّ الآخرة بيت النعيم الدّائم. وللتمييز أقول: النعم فيها الأذواق تتعدد وتختلف وتنقطع، أمَّا النعيم لذة دائمة لا تنقطع، ولا يختلف عليها ولا يتخالف، أي: إنَّ الجنَّة فيها

النعيم بذاته، أمَّا الدنيا ففيها النعم تتحوّل فضلات. وهنا الفرق كبير بين النعيم لذة لا تنقطع، ولا تنقص، ولا تنتهي ولا يتعفّن نعيمها وما يترك زبالة تشمئز الأنفس من رائحتها النتنة.

وعليه: فإنّ المأمول المطلق الفوز بنعيم الجنَّة، أمّا ما دونه فهي مأمولات في دائرة الممكن؛ ولهذا فالمأمول هو المقصود في ذاته دون سواه؛ ليتم نيله استجابة لأمل عن رغبة، سواء أكان نسبيًّا أم مطلقا.

والمأمول لا يكون إلّا معلوما، والقصد إليه ثابتٌ، وإن أخذ العمر كلّه، فالمهم أن يبلغ وينال، فساعة نيله وكأنّه لم يقض ما انقضى من وقتٍ، وساعة نيله وكأنّه كان غير متوقّعٍ على الرّغم من توقّعه.

وعليه فالمأمول:

ـ لم يكن خيالًا مجرّدًا.

ـ إنَّه نتاج العمل الجاد.

ـ يتم نيله والفوز به.

ـ يفتح آفاقا جديدة أمام الآملين.

وعلى الآملين:

ـ التفكير الجاد؛ حتى يولّدوا من الفكرة فكرة.

ـ التعلّم؛ حتى يتعلّموا كيف يتعلّمون.

ـ أنْ يرفضوا؛ حتى لا يكون الرّفض غاية.

ـ أنْ يتقبّلوا دون أن يكون التقبّل مذلّة.

ـ أن يحترموا؛ حتى لا يصبح الاحترام جبنا.

ـ أنْ يتفهّموا ظروف الغير دون أن يجعلوا مأمولاتهم على حسابهم.

ـ أن يتكلّموا دون أن يصبح الكلام ثرثرة.

ـ أن يستوعبوا قبل أن تخلط الأوراق.

ـ أن يحاججوا؛ كي لا تتسع دوائر التُّبَّع.

منهج النُّقلة يُمكّن من بلوغ الخوارق:

مع أنَّ النُّقلة ذات مفهومٍ مجرَّدٍ فإنَّها المتجسِّدة في المشاهد والملاحظ؛ ذلك لأنَّ النُّقلة هي: تبوُّءُ مكانة متقدِّمة بحثًا ومعرفةً وإعمارًا، وبالتَّالي لا توقّف أمام البحث والتطوُّر وفقًا لفرضيَّة المتحدِّين: (كلّ شيءٍ ممكنٌ بما أنَّه ليس مستحيلًا).

تحدّي الصّعاب بحثٌ علميٌّ غير مقولبٍ يتجاوز بالباحثين معرفة ما أَلِفَتْهُ طرق البحث العلمي التي تصوغ فروضا يكون جزءٌ من المعلومة متوافرًا فيها وجزءٌ منها مجهولًا، أمَّا بلوغ الخوارق فهو تجاوز للمقولب بتساؤل: لِمَ لا يكون المتوافر بعكس ما هو عليه؟ كما تساءل نيوتن: لم لا تصعد التفاحة إلى أعلى بدلًا من سقوطها إلى أسفل؟ وبدأ في بحثه وتجاربه حتى اكتشف قانون الجاذبية إضافة جديدة تامّة؛ كونها لم تستمد من نصف المعلومة المجهول، بل اكتشفت معلومة جديدة؛ فكانت إضافة تامّة للعلوم والمعارف الإنسانيَّة.

إذن: الخوارق بها يتمّ تجاوز المألوف والمحتمل في دائرة الممكن غير المتوقّع من خلال تحدّي العقل البشري للكوابح والمعيقات، وهي نتاج المقدرة الذهنية

ذات الرؤية الثاقبة للمشاهد والملاحظ بغاية التعرّف عليه وعلى القوانين التي هو عليها؛ وعلى الكيفية التي بها خُلق حتى التمكّن من معرفة المستحيل مستحيلا.

ولهذا فالخوارق تُصنع وتُبدع؛ كونها على غير سابقة معروفة، فمن بلغها اختراقا (وتجاوز المألوف) وأظهر ما كان مجهولا أو مختفيا لحيّز المشاهدة والملاحظة فقد أضاف جديدا لميادين المعرفة الواسعة. فالخوارق لو لم تكن ممكنة ما كانت، ولأنّها في دائرة الممكن فهي ستتولّد خارقة ومن بعدها خوارق. وما الاستغراب الذي يصاحبها أو المفاجآت التي تلاحق وجودها إلّا بسبب كونها لم تكن متوقّعة.

والخوارق تُصنع؛ لأنّها تأتي عن غير قاعدة، وعن غير معتاد ولا مألوف ولا متوقّع، ممّا يجعل علامات الاستغراب والاستفهام والتعجّب توضع عليها وعلى من اكتشفها أو جاء بها.

أمَّا الصُّنع فهو إظهار ما لم يكن ظاهرا، أو إيجاد ما لم يكن بين اليدين موجودا، أو إظهار الشيء الظاهر على غير ظهوره إبداعا، أو استخراج الشيء من الشيء بطريقة أو أسلوب غير معتادٍ ولا مألوفٍ.

والصُّنع هو أن يتمّ الإتيان بما لم يسبق لأحدٍ الأتيان به، وهو نتاج التفكير المفتوح؛ حيث لا سقف يحدّه ولا موانع تكبحه، أمّا الخارقة فهي بلوغ ما لم يكن متوقّعًا، والخوارق أعمال غير معجزة، أي: لو لم تكن ممكنة ما كانت، ولكنّها غير عامّة فهي تحتاج إلى مقدرة عقليَّة تتجاوز بصاحبها ما يمكن تدبّره إلى ما يمكن بلوغه؛ كونه لم يكن مستحيلا ولا معجزا. والخارقة تقود أصحابها فكرا إلى الإبداع الممكّن من معرفة ما كان مستغربًا.

ومن ثمّ؛ فالفكرة تحدٍّ تقود إلى العمل المبدع، والعمل المبدع بداية قد يصفه بعض النَّاس بالمستحيل على الرّغم من تحقّقه مشاهدة وملاحظة، فالهبوط على القمر، بعضهم كذّبه بداية، ولكنّه لم يصمد في تكذيبه؛ لكونه أصبح حقيقة لا تُخفى.

ومن ثمّ؛ فالصّعود إلى القمر يعد عملًا من أعمال الخوارق التي بإمكان العقل البشري أن يبلغ ما هو أعظم منه، فالإنسان الذي خُلق في أحسن تقويم، هو الإنسان المحقّق للخوارق وفقًا لدائرة الممكن المتوقّع وغير المتوقّع، ولا استغراب، ولا مفاجأة، بل الاستغراب ألا يرتقي عقل الإنسان إلى اقتناص الفكرة الممكّنة من الارتقاء وبلوغ الخوارق.

وهنا، أقول:

الجنَّة بين أيديكم فاعملوا يا بني آدم من أجلها، فاغزوا الفضاء بكلّ الخوارق التي بإمكانكم العمل عليها والعمل بها، فبلوغ الجنَّة غير مستحيل، بل المستحيل ألَّا تعملوا ارتقاءً من أجل بلوغها.

وهنا لا أقول مواعظ، بل لِمَ لا نتعظ، ونتدبّر أمرنا؛ حتى نتمكّن من بلوغ الخوارق ارتقاءً؟! ومن يرى غير ذلك فكأنّه لم يُخلق بصيرا، وليس له من الحواس ما يمكّنه من خَلق الخوارق وتجاوزها بخوارق أكثر ارتقاءً؛ فمن يغفل عن ذلك فكأنّه قد غفل عمّا بنته الحواس، وما ستبنيه من حضارات، فالتذكّر يربط العقل بما أنجزته أيدي النَّاس، وبما غفلت عنه؛ ليتدبّر حاضره، ويفكّر في مستقبل يستوجب رسم الخطط الممكّنة من الخوارق في دائرة الممكن.

وعليه:

فالإنسان مؤهّل للارتقاءً عقلا وحسّا، فهو يتذكّر؛ ليتّعظ ويُصلح، ويتدبّر؛ ليبني وينتج، ويفكّر؛ لإيجاد خارقة بها يصنع مستقبلًا راقيا، يَرتق الأرض بالسّماء.

ومن أراد أن يكون له شأن؛ فليعمل على تحقيق المكانة قيما وفضائل، وإذا أراد الإنسان أن يرتقي قيما وفضائل؛ فليأخذ بمفاتيح العلم، ويبدأ إصلاح حاله من حيث هو، حتى يهيئ نفسه، ويتأهب للعمل من أجل تحقيق ما ينبغي له أن يكون عليه ارتقاءً.

فالارتقاء حركة دؤوبة، يتحقّق عبر التّاريخ بالجهد الرّصين والعمل المتّصل، الذي منه تؤخذ العبر، وتستمدّ المواعظ، وتنقل التجارب النّاجحة شواهد؛ فالارتقاء لا يحدث فجأة؛ فهو مثل الوليد، يولد وهو في حاجة للرّعاية والعناية، ثمّ يكسب قوَّة تدفعه إلى تحقيق ما هو أعظم، وهو كالبناء بدايته وضع حجرة على الأرض، ثمّ يصبح صرحا شامخا وكأنّه يريد أن يفتق الأرض بالسّماء ثانية، فهكذا هو الارتقاء تطلّعا يجسّد الطّموح، ويمكّن من بناء حضارات، أهلُها يسودون ثمّ يفنون، وتبقى الحضارة تاريخا متكئا على الارتقاء علمًا وفكرًا وقيمًا وفنًّا وثقافةً وإعمارًا وبناءً.

ولأنّ التاريخ البشري مليء بالتّجارب النَّاجحة، وكذلك الفاشلة، فهو قد مرّ بنشوء حضارات سادت ثمّ بادت، وحلّت محلّها حضارات أخرى؛ ففي تلك الأحقاب سادت حضارة عاد وثمود، ومن بعدها حضارات الغرب، وحضارة الفرس، وحضارة الإسلام والعرب، واليوم حضارات الشّعوب تتداخل لتسود القرية الصّغيرة، فهي على الرّغم من تنوّعها، فإنّها حضارة أمّة واحدة، إنّها تقدّر

الخصوصيّة، وتُمكّن من الاندماج علمًا ومعرفة، وتقنية وإعمارا، وتؤكّد قيمة الإنسان في ممارسة حقوقه، وأداء واجباته، وحمْل مسئولياته وبكلّ شفافية.

ومع ذلك فالإنسان دائمًا في حاجة للارتقاءً؛ فهو يسعى من أجل حياة أكثر أمنا، وأكثر نعيما، وأكثر عدلا، وأكثر رفاهية ورقيّا؛ فقيمة الإنسان الذي خُلق في أحسن تقويم تستوجب تقديرا عاليا، ورعاية صحية متقدّمة، وتعليما يخلّص من أيّ تأزمات تحدث، ونُظم تُمكّن من التمدّد بكلّ حرّية دون أن يحدث أيّ تماسّ مع تمدّد الآخرين بكلّ حرّية.

ولكن هذه لن تتحقّق ما لم يرتقِ الإنسان عن مثيرات الشّهوة، وإغواءات النّفس، ومغريات الحياة الدّنيا (السُّفلية)، وتفضيلات الأنا على حساب الغير، وألا يتردّد، والخوف ضرورة من أجل مستقبل ناهض وسلامةٍ وأمن يمكّنان من بلوغ الخوارق تحدٍّ للحاضر بما هو أكثر جودة.

ولذلك؛ فالاختلاف لن ينقطع بين النَّاس بما أنّ هناك من يرى القيم والفضائل أساس العمل والتقدّم والارتقاء، ومن يراها لا تزيد عن كونها قيودا ينبغي لها أن تزال متى ما تعارضت مع المصلحة الخاصّة، ومع وجود الاختلاف، فلا وجود لما يعيق ولادة الخوارق، بل الاختلاف هو المحفّز تحدٍّ ومنافسة على ولادة المزيد من الخوارق تحدّ لكلّ الصِّعاب.

ومن ثمّ؛ فالرّغبة في بعض الأحيان تتمركز على (الأنا) أنا ومن بعدي الطّوفان، وهنا تكمن العلّة، وحتى لا تكون الأنانية القاتلة؛ فعلينا بتضافر الجهود والنّهوض معًا؛ حتى نقضي على عوامل الشّد والتخلّف ونرتقي تقدّما ونهضة من بعدها نهوض مع أملٍ ناهض.

وحتى لا تكون العلّة نهاية المطاف فينبغي لنا بلوغ الحلّ الذي يحتوي في مضمونه قبول الآخر (هو كما هو)، والعمل معه (من حيث هو)، من أجل الارتقاء معًا إلى مستقبل مأمول، فالفرد وإن خُلق فردًا فهو لم يُخلق وحيدًا؛ ولهذا لا ينبغي أن يفكّر وحيدا، ولا ينبغي أن يعيش وحيدا، بل ينبغي أن يفكّر حتى يعرف كيف يفكّر جماعيا، وأن يعمل مع الآخرين ارتقاءً بغاية ما يجب.

ولكي يتمكّن الإنسان من اتخاذ قراره عن وعي فعليه بمعرفة العلاقة التي تربط قوّة قراره بقوّة اتخاذه؛ فقوّة القرار تكمن فيما يحقّقه من فوائد، وما يترتّب عليه من ارتقاءٍ مأمولٍ، وما يحدثه من مفاجآت موجبة، ومن ثم؛ فاتخاذ القرار ارتقاءً يُمكّن من إحداث النُّقلة.

ولأنَّ صُنع الخوارق لم يكن مستحيلا فَلِمَ لا تُصنع باستمرار تحدٍّ للعقل بملكاته العقليّة؟! فالعقل دائمًا هو مَكمن الخوارق، فمن بلغ عقله عقلا عن غير توقّع بلغ المعجز إعجازا، ومن بقي في دائرة المتوقّع فلا إمكانية لبلوغ الخوارق التي في النّهاية لا تكون إلّا في دائرة الممكن.

ولكن لكي تصنع الخوارق فهي في حاجة لمناخ مناسب؛ حيث لا قيود على التفكير الإنساني ولا موانع ولا تخويف من أحدٍ، بل المكتبات مليئة بالمصادر والمراجع والدّوريات العلميّة، والمقرّرات المدرسية والجامعية معدّة على قاعدة: "كلّ شيء ممكن ولا استغراب"، ثمّ إنّها تحرّض المتعلّمين على التحدّي وقهر الصِّعاب. وإلى جانب ذلك فالتحفيز يسرّع من إدارة العجلة تجاه التقدّم وإحداث النُّقلة وإيجاد ما لم يكن متوقعا.

وعليه:

. بلوغ الخوارق مُمكن فلا تستغرب.

. فكّر فيما تفكّر فيه حتى تبلغ خارقة.

. لا تستسلم للمتوقّع فقط وتغفل عن غير المتوقّع الذي يخرجك من زمن المفاجئات.

. لا تُوقِف تفكيرك عند حدود المألوف؛ فالتوقّف عند حدوده لا يمكّنك من بلوغ الخوارق إضافة معرفيّة.

. لا خارقة إلّا بمقدرة عقليَّة؛ فانتبه لنفسك ولما حولك ولما يجب حتى ولو تجاوزت المألوف بما هو موجب.

. الخوارق يتمّ اكتشافها بين الفجأة والانتباه؛ فانتبه واعلم أنَّ السّرحان مضيعة للوقت؛ فلا تعوّد نفسك وعقلك الخوض فيه ضياعا.

. اكتشاف الخوارق أو بلوغها يُمكّن من معرفة قوانينها تاليا، أي: إنّ الخوارق تكتشف أوَّلًا ثمّ بعد الاكتشاف يتمّ التعرّف على القوانين التي هي عليها.

. معرفة الخوارق تمكّن العقل من التحدّي والبحث عن المزيد.

. معرفة الخوارق تحدٍّ للصّعب وقهره.

. معرفة الخوارق تمكّن من معرفة المعجز تسليما.

. معرفة الخوارق تمكّن من معرفة المستحيل والوقوف دونه مستحيلا.

. صُنع الخوارق لا يكون إلّا تجاوزا للقولبة والتمنهج وأساليب الرّتابة المملّة.

. صُنع الخوارق يظهر أو يوجد ما لم يكن ظاهرًا أو موجودًا معرفيًّا.

. صُنع الخوارق صور تُنتج على غير هيئة مسبقة.

. يعد استخراج الشيء من الشيء على غير مألوف خارقة عقليَّة.

ولهذا ينبغي للإنسان أن يعوّد نفسه على الأخذ بالمنهج العلمي؛ ويفضّل أن يتجاوزه معرفة بما هو أكثر تيسيرا حتى وإن كان نتاج وقته، وعليه بقبول الصِّعاب والعمل على تحدّيها حتى تُهزم[59].

منهج النُّقلة يُمكّن من ترسيخ المكانة:

المكانة رفعة لا يتبوّؤها إلَّا من بلغها نُقلة، وترسيخها لا يكون إلَّا عملًا وسلوكًا، أي: إنَّها لا تبنى بالكلمات، بل تبنى بالأفعال والأعمال الراقية.

ولهذا فتحدّي الصِّعاب لا يكون إلّا بقبول دفع الثَّمن جهدًا وعطاءً وعملًا جادّا ومنتجًا، ومن يقدم على ذلك ينال مكانة بين النَّاس تقديرًا واحترامًا، والمكانة تبوء مقام على الرّفعة المأمولة من أهل الدّراية والمعرفة، وهي ما يبلغ بالكلمة الحجّة والعمل المنتج والخُلق الرّفيع، وهي التي تنال التقدير والاعتبار من قِبل النَّاس، والنَّاس تأملها وتسعى إلى ترسيخها قيمة.

والمكانة لا تكون إلّا على الرّفعة، ولا تترسّخ ارتقاءً إلّا بها، ومن ثمّ؛ فمن أراد أن يكون له شأن فليعمل على تحقيق المكانة قيما وفضائلَ، وإذا أراد الإنسان أن يرتقي قيما وفضائل فليأخذ بمفاتيح العلم، ويبدأ إصلاح حاله من حيث هو، حتى يهيئ نفسه ويتأهب للعمل من أجل تحقيق ما ينبغي له أن يكون عليه ارتقاءً مأمولا.

[59] عقيل حسين عقيل، صنع المستقبل، مكتبة الخانجي، القاهرة، ص 85 . 118.

ولكي يبلغ الإنسان مأموله قيما وفضائلَ فعليه أن يكون قدوة حسنة لبني جنسه، فإذا حكم عدل، وإذا شهد شهد حقًّا، وإذا عاهد أوفى، وإذا قال صدق، وإذا عمل أحسن عمله، وإذا تعلَّمَ علَّمَ، وإذا كال أو وزن أوفى، وإذا رأى فتنة بين النَّاس أصلح، وإذا غضب تملّك نفسه، وإذا ذُكِر بخيرٍ فعليه بالمزيد، وإذا ذُكر بسوءٍ فليصفح وليعفو، وهنا بالتمام يكمن التحدّي الذي يجعل للإنسان مكانة مقدَّرةً بين النَّاس.

ولذلك؛ فالتمسّك بالقيم لكونها قيما لا يفيد، بل المفيد العمل بها قولًا وسلوكًا؛ ولهذا ينبغي أن يتشرّبها النشء تربية وتعلُّمًا وتعليمًا حتّى يجسدوها سلوكًا؛ كما جسدها أهل المكانة.

فأهل المكانة دائمًا في علوٍّ قيمي قولا وسلوكا، علوٍّ عن الرّذيلة وما يؤدّي إلى ارتكاب أفعالها وأعمالها التي ترفضها القيم الحميدة والفضائل الخيّرة.

ولأنَّ الكبرياء تعظيم شأن؛ فهو لا ينال إلّا بالتحدّي لكلِّ معيب بما هو محبّب ومفضّل، وفي المقابل من لا يكون على الكبرياء قيما وفضائل لا يكون إلّا في دونية وسُفلية؛ ولهذا فبعض النَّاس من أجل الكبرياء يتحدّى الصِّعاب، وفي المقابل فإنَّ بعضهم يقدّم المزيد من التنازلات حتى يصبح خاضعا لأمرٍ واقع.

إذن: المكانة والكبرياء تعظيم شأن؛ فالكبرياء كونه قيمة حميدة لتعظيم الشأن فهو الذي به يتمّ بلوغ المنزلة العالية والمكانة الرّفيعة، في مقابل آخرين لا ينزلون إلّا في الأماكن الدّونية التي لا تليق بأصحاب مكارم الأخلاق.

ومن بلغ المكانة العالية بلغ الرّفعة التي يأملها من خُلق في أحسن تقويم ولم يخالف، ومن بلغ المكانة عملًا وسلوكا نال الاحترام والتقدير والاعتبار من قِبل

الغير؛ ولهذا فالمكانة تعظيم بما هو عظيم، ورفعة قدرٍ بما هو رفيع، فأهل المكانة يتّعظون بما هو عظيم ويأخذون العبر من كلّ عبرة ومعتبر.

ولذا؛ فأهل المكانة لهم من الكبرياء ما لهم، فأصحابها يتكبّرون عن كلّ ما من شأنه أن يسيء للقيم والأخلاق والأعمال والأقوال الصّائبة، فالكبرياء تعالٍ عن كلِّ ما يؤدّي إلى الفتنة، أو يسيء للنّاس، ممّا يجعل الكبرياء هو المحقّق لرفعة المكانة المقدّرة والمعتبرة، ويجعل لصاحبها شأنًا بما اختار أن يكون عليه تحدٍّ وبذوقٍ رفيع.

وعلينا أن نميّز بين قيمة التكبُّر والاستكبار؛ فالتكبّر قيمة حميدة لتعظيم الشأن بعدم النزول في منازل السّافلين، كالتكبّر عن القول الزّور، وعن أيِّ نعوت لا حقائق تسندها، وهو التكبُّر عن الأفعال التي لا تليق بمكارم الأخلاق، وهو الإخلاص في العمل مع وافر الأمانة، وهو السّلوك المثال الذي لا يقدر عليه إلّا من له مكانة مقدّرة. أمّا الاستكبار فهو الاستعلاء عن الحقيقة والجحود لمبرراتها ومعطياتها وهو معاندة بدون حُجّة دامغة، فالمستكبر يقف على الحقيقة ويغض النّظر عنها؛ بعدم اعترافه بأنّها الحقّ، مع العلم أنَّ هذا الأمر لا يُنقِص من شأن الحقيقة، بل يُنقص من شأن المستكبر عليها بغير حقٍّ.

وهذا يعني أن للتكبّر صفتين:

الصفة الأولى: هي التكبُّر بالحقّ، عن المظالم وعن الأعمال الوضيعة التي تقلِّل من شأن مرتكبيها، وهذه من صفات الذين يقولون الحقّ، ويعملون على إحقاقه، أي: إنّهم الذين يتعالون عن المكر والكيد وسفك الدّماء في الأرض بغير

حقّ، وإذا حكموا بين النَّاس حكموا بالعدل، وإن قالوا صدقوا، وإن عملوا أصلحوا، وإن عاهدوا أوفوا.

الصفة الثانية: التكبُّر عن الحقّ، بالحياد عنه والميل كلّ الميل إلى ما يؤدّي إلى إخفائه ومغالبته بالباطل، والمتكبّرون عن الحقّ هم الذين يقومون بأعمال الوضاعة التي تقلِّل من شأن مرتكبيها، بما يقدمون عليه من أفعال لا تُرضي النَّاس، وهؤلاء هم الذين إن قالوا كذبوا، وإن عملوا أفسدوا، وإن عاهدوا أخلّوا ونقضوا.

وعليه: فإنَّ للتكبّر مبرراته؛ لكونه قيمة حميدة؛ ولهذا تُحرّف القيم وتقوّض من قِبل أولئك الذين ضلُّوا فأفسدوا فظلموا فطغوا وتكبّروا كما طغى وتكبّر من قبلهم المتكبّرون بغير حقّ، ولكن دائمًا التَّاريخ يمدّ بالعبر فمن أراد أن يعتبر فعليه بالتَّاريخ؛ لأخذ العبر منه، ومن لم يرغب في ذلك فالحاضر يكفيه درسًا حيًّا.

ولذا؛ فالمفسدون همّ الذين يتكبَّرون عن الإصلاح، أمَّا المصلحون أهل المكانة فهم الذين يتكبَّرون بفعله، قال تعالى: {وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآَدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ}[60]، إنَّ استكبار إبليس كان استكبارا عن الحقّ، أمَّا تكبُّر الملائكة فكان تكبرا بالحقّ، وهنا فالسّجود يدلُّ ويُعَبِّرُ عن الطَّاعة وبلوغ المكانة الرّفيعة التي تؤمل من الخيِّرين.

والمتكبّر بظلمٍ هو الذي يعرف الحقيقة ويأبى إظهارها، ولا يأخذ بها، أمَّا المتكبّر بالحقِ فإن دعي لنقيصة تكبَّر عنها، وإن دعاه سائل استجاب وفق استطاعته، وإن لم يستطع فلا ينهر؛ ولذا فالتكبّر صفة محتملة للإيجاب والسّلب، فتكبُّر العبد عن ارتكاب المظالم وارتكاب المعاصي قيمة إيجابية، وفي المقابل ارتكابه

---

[60] البقرة: 34.

للأفعال الذميمة والمفسدة في الأرض قيمة سلبية؛ ذلك لأنَّ الكبرياء لا يكون إلّا نقاء وصفاء مع الأنا الذي فيه كبرياء المخلوق ورفعة مكانته، والذَّات التي فيها كبرياء المجتمع، وكبرياء الضّمير الذي فيه تُقدَّر الإنسانية؛ ولذا ينبغي للإنسان أن يتكبّر عن:

الجهل:

فالجهل أساس كلّ داء يصيب المجتمع الإنساني تخلّفًا؛ لأنَّ الجهل من شأنه أن يؤدّي بالإنسان إلى الانحطاط في أماكن الرّذيلة والمفاسد، والذين يتمسّكون بالجهل بأسبابه، هم في حاجة لمنقذ يخرجهم من ظلماته إلى نور الإيمان والعلم والمعرفة التي بها يرشدون.

ولأنَّ الصّراع من البدء الخلقي هو صراع بين جهل وعلم (شرّ وخير)؛ لذا فبالعلم تتحسّن الأحوال وبالجهل تسوء؛ ولأنَّها كذلك فالصّراع بين الخير والشرّ لم يحسم أمره بعد؛ فهو باقٍ ما بقي الجهل في مضادة العلم؛ ولهذا فالذين يجهلون حقيقة أنّ استقرار أمن الوطن يكمُن في حقوق تمارس وواجبات تؤدّى ومسئوليّات تحمل، لن يناموا ساعةً واحدةً نومًا هادئًا وهنيئًا، والذين يعلمون حقيقة ذلك ينامون في أوطانهم نوما آمنا هنيئا بمشاركة النَّاس فرحتهم بالممارسة الفعلية للحقوق والواجبات والمسئوليّات مع توسيع دوائر المراقبة والمحاسبة والمساءلة للجميع؛ إذ لا قمّة سلطانية إلّا من الشّعب، ممّا جعل الحكّام في دول ممارسة الحريَّة بأسلوب ديمقراطي يختارون عن إرادة لفترة محدّدة دستورا، وهم بذلك يقبلون ولا يتجاوزون قرارات الشّعب ودستوره قمّة؛ ولهذا لا وجود للمؤامرات ولا الانقلابات ولا المظالم التي تدور رحاها في أوطان التكميم.

الشّهوات:

إنّها الشّهوات التي خلقها الله تعالى فينا، ولكنّ بعض العباد لم يحسن فهمها، وتهذيبها، وضبطها، والسّيطرة عليها، ممّا جعلها هي المسيطرة والقائدة للباطل والمفاسد، قال تعالى: {زُيِّنَ لِلنَّاسِ حبّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ}[61]؛ فالشّهوات متوافرة في الحياة الدّنيا، ولكنّ البشر تفاوتوا في التعلّق بها؛ فمنهم من اشترى الحياة الدّنيا بما تحويه من هذه الشّهوات، ومنهم من اشترى الآخرة بما فيها من خير عظيم وفوزٍ دائم، ولأنّ الإنسان خلق ليكون إنسانا بحقّ في هذه الحياة الدّنيا، فلا ينبغي له أن يقصر شهواته على الدّار الآخرة كما لا يقصرها على الدّار الدّنيا؛ ذلك لأنّ الخالق خلق الإنسان في أحسن تقويم؛ ليكون وارثا في الدّارين؛ ولهذا لا ينبغي للإنسان أن ينسى نصيبه من الدّنيا، ولكن لا ينبغي له أن يتجاوز الحدود القيمية والفضائلية التي أقرَّ لها الخالق حدودًا؛ ليكون فائزا في الدّارين.

وعليه: نلاحظ عندما تبدأ الدّعايات الانتخابية في أوطان المتقدّمين علمًا وثقافة تُكشف الأوراق من قِبل الجميع؛ حتّى لا يكون الرّئيس المنتخب متّهما بارتكاب المفاسد الأخلاقيّة والسياسية والاقتصاديَّة؛ ولهذا يكون الاختيار بين الأفضل ومن هو أفضل منه، والأقدر والأكثر مقدرة، أمَّا في بلدان الغير فغير ذلك؛ الحاكم يورّث حكمه أوَّلًا لأبنائه، وإن لم يكن له أبناء فلإخوته، وإن لم يكن له إخوة فالأقربون الأقربون، وهكذا حتّى بلوغ القبيلة والعصبيّة.

---

[61] آل عمران 14.

إذن: عندما يقبل الإنسان أن تسيّره الرّغبة فبصيرته تعمى، وتقوده نحو الانحطاط؛ لذلك لا بدَّ للإنسان من الترفّع عن هذا الانقياد الأعمى للشّهوات، ورفض سيطرتها عليه، وأن يتكبّر عن هذه المفاسد المدمّرة، فبتكبّره الإيجابي هذا سينال المنزلة الرّفيعة والمكانة العالية، وسينال احترام نفسه، واحترام النَّاس من حوله، فالشهوات عندما تجعل الإنسان عبدا لها لا يملك لنفسه شيئا أمامها سوى الضّعف والوهن والقبول بالانقياد أمام ما يشبع الشّهوة، ولو كانت مفاسد بيّنة[62].

ولأنَّ أمر المكانة متعلّق بالرّفعة وتحقيق الأمل فمن يبلغ المكانة بلغ الأمل الذي لم يبلغه الغير، ومع ذلك وراء كلّ مكانة مكانة لآمال أرفع[63].

منهج النُّقلة يكسر القيد:

إحداث النُّقلة يُمكِّن النَّاس من تجاوز مستويات المعيشة الدنيا إلى مستويات أكثر تقدُّمًا ونفعًا، وبهذا التقدُّم يُكسر قيد الجمود والسُّكون لديهم، فيلتفتون إلى أنفسهم وعقولهم وأهميَّة حريَّتهم بعد أن كسروا القيود التي كانت تكبِّلهم.

ولأنَّ القيد يعيق الحركة الحرَّة، فهو يجعل المتحرِّك في حالة عدم توازن؛ ولذلك فالقيد الذي ينبغي أن يتمّ تكسيره هو ذلك القيد الذي أنتجته المظالم والإقصاءات التي تحرم بعض المواطنين من ممارسة حقوقهم بإرادة، وهو نتاج تلك الإجراءات التي تغيّب العدالة وتُقَوِّضُ الفضائل الخيّرة والقيم الحميدة، وتُمكّن بعض المواطنين من الهيمنة على ممارسة السّلطة واحتكار الثروة في مقابل حرمان بعض المواطنين منها.

---

[62] عقيل حسين عقيل، تقويض القيم من التكميم إلى تفجّر الثورات، ص 60 ـ 66.

[63] عقيل حسين عقيل، منابع الأمل، مكتبة الخانجي، القاهرة، ص 131 ـ 138.

ولذا؛ فكلّ ما يُقيّد حرّية الإنسان يعد قيدا (فينبغي أن يُكسّر)، ومثل هذا القيد لا يكون إلّا بعلل أفعال المظالم وأعمالها، ومن ثمّ: يعد القيد استثناء، في مقابل القاعدة التي لا ترى الإنسان إلّا حرّا؛ ولهذا فكسر القيد يدعم القاعدة ويقوّض الاستثناء.

والقيد مع أنّه مولود الفكرة، فإنَّه لا يعدُّ قيمة، بل الذي يعد قيمة ومنبعا لتحقيق الآمال هو كسر القيد؛ ومع ذلك لو لم تكن الفكرة ما كان القيد؛ فالإنسان عندما لم يستطع ضبط نفسه عن إرادة، فكّر حتى أوجد قيدا لضبطه، وبعد أن قُيّد به، بدأ يبحث تفكيرا في كيفية فكّه وبكلّ ما يتيسّر له من حيل، ومع ذلك بقيت حياته بين القيد وفكّه؛ ولذا فإذا أراد الإنسان الحريَّة بلا قيود فعليه أن يقبل التنازل عن عقله؛ كي يستطيع في دائرة الممكن أن يفعل ما يشاء متى ما يريد، ولكنّه نهاية سيعرف أنَّ للحرّية ثمنا، وهكذا إذا أرد الاثنين معا فعليه أن يقبل بحياة المساجين الأحرار التي يشار إليها بالقضية:

(كل أ ليست أ)

فنحن بني آدم لولا العقل وما نفكّر فيه ما عرفنا المرغوب والممنوع، ولا المحلّل والمجرّم، ولولا العقل والفكرة ما استعملنا كلمتي: (قف، وسر)، ولا كلمتي: (لا، ونعم)، ومن ثمّ؛ فإن لم يقيّد الإنسان نفسه عقلا، سيجد نفسه مقيّدا من قِبل الغير، بفكرة القيد التي أنتجها عقله، ومع أنَّ السّجن هو السّجن فإنَّ تدبّرا إن وَضع الإنسان نفسه في قيد عقله فهو على الأقل أصبح يمتلك الإرادة، ولكن إن وُضع القيد في يديه كرها؛ فهل يمكن له أن يكون على شيء من الإرادة؟

وإذا سلّمنا أنّ العقل الإنساني هو الذي يقيّد نفسه، ألا نسلّم بأنّه قادر على فكّ قيده عن نفسه ارتقاءً؟!

لا شكّ أنّه سيكون قادرا إذا قبل التوقّف عند حدوده، ولا يتمدّد على حساب حدود الغير، ولكن إن تمدّد؛ فسيجد نفسه سجين تلك الفكرة التي أنتجها قيدًا لا أملًا.

ولمتسائل أن يتساءل:

هل الأبوة والأمومة قيدان أم أنّهما منبعا ولادة الإرادة الحرّة؟

الأبوّة والأمومة منبعا إشباع العاطفة، وهما المأمولان في الذّاكرة الإنسانية، وهما مكمن ولادة المحبّة، وهما الحضن الدّافئ للأبناء، وهما القيد الذي لا ينبغي كسره قال تعالى: {وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا}[64].

ولهذا وجب طرح السؤال: هل (لا) تُعدُّ قيدًا أم إنّها مجرد أداة ناهية وغير ملزمة؟

أقول:

لقد ورد معنى (لا) في الآية السّابقة نهيا قاطعا: (فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا) أي: لا حرّية لك في أن تقول لوالديك: (أفّ)، وهذا يعني: أنّها قيد، وفوق ذلك فهي تعني: ليس لك إلّا القبول، وليس القبول فقط، بل يجب أن

[64] الإسراء: 23، 24.

تقول لهما قولًا كريمًا: (وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا) بمعني: لا مجال للرّفض إلّا القبول، وفوق التقبّل أن تقول لهما: (قَوْلًا كَرِيمًا)، وفوق القول الكريم أن تخفض لهما جناح الذّل من الرّحمة: (وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ)، وفوق ذلك أيضًا أن تسأل الله أن يرحمهما: (وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا).

إذن: تعد (لا) قيدًا يستوجب الاحترام والتقدير بعد الأخذ بما نهت عنه، ومع ذلك لا يعد القبول مطلقا، وفقًا: (لكلّ قاعدة استثناء)، والاستثناء جاء في قوله: {وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا}[65].

ولأنّ (لا) ناهية وقاطعة؛ فهي ناهية لما تنهى عنه استثناءً، وبمراجعة النهي السّابق نلاحظ أنّها تنهى عن معصية الوالدين، وتوجب طاعتهما، وفي هذه الآية نلاحظ أنّها تنهى عن طاعتهما في معصية أمر الله النافذ: (وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا) ومع أنّه لا يجب طاعتهما في أمر المعصية، ولكن يجب مصاحبتهما في الدّنيا معروفا حتى وإن ارتكبا فعل المعصية: (وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا).

ومن ثمّ؛ فالتساؤل: هل (لا) تُعَدُّ قيدا، أم إنّها مجرد أداة ناهية وغير ملزمة؟

أقول:

إنّ (لا) الملزمة غير ملزمة، أي: إنّ (لا) التي يكون أمر نهيها ملزما، فأمر نهيها لا يكون إلّا استثناءً، بمعنى: لو لاحظنا أمر الأبوة والأمومة للاحظنا أنّ القاعدة هي: طاعة الوالدين، والاستثناء هو: عدم طاعتهما، ولأنّ لكلّ قاعدة ما

[65] لقمان: 15.

شَذَّ عنها، فمن لا يطيع والديه يعد خارجًا عن القواعد القيمية المقدّرة، وبالتّالي يجب أن ينهى عن الخروج عنها، إلّا استثناء بعلل المخالفات المنحرف أصحابها.

ولهذا؛ فدائمًا (لا) النّاهية لا تأتي إلّا استثناءً، ولأنّها لا تكون إلّا استثناءً فهي قيد لا يجوز إلّا استثناءً. ومن هنا، تعد (لا) قيدا لا يكون إلّا في وجوبه (وفقًا للقاعدة)، وفي المقابل، من يستخدم (لا) في غير وجوبها، ينبغي أن تكسّر؛ حتى لا تكون عائقا بين الإنسان وما يمكّنه من بلوغ الآمال التي تحقّق له الرّفعة والمكانة.

أمّا التساؤل: هل الدّين قيد أم إنَّه منبعُ قيم ممارسة الحريَّة؟

أقول:

الدّين هو المغذي للقلب (طمأنة وسكينة)، والمغذّي للرّوح (أخذا وتجنّبا ونهيا)، والمغذّي للذاكرة بما يجب أن تكون عليه (تذكّرا وتدبّرا وتفكّرا)، وهو ما لم يخالف الطبيعة الخَلقيّة لبني الإنسان، من أجل تطابق العلاقة بين الأمل والدّوافع الممكّنة من بلوغه؛ ذلك لأنّ قواعد الدّين كلّ شيء مشاع لك أو لغيرك (للإنسان أو لغيره من المخلوقات الأخرى)؛ ولهذا فما يحرّم على الإنسان لا يحرّم على غيره من المخلوقات سواء المحللة له أو المحرّمة عليه، ولا قيود على المحلل، بل القيود على المحرّم والمجرّم، فآدم عليه السّلام وزوجه اللذان خلقا في الجنَّة، خُلق معهما كلّ شيء من أجلهما مشاعا، أي: كلّ شيء نافعٍ لهما لا قيود عليه، ولكن القيود النّاهية جاءت على كلّ ما يضر أو يترك ندما وألما، وهذا ما لم يعرفه آدم وزوجه:

{وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ}[66]، ومن هنا: جاءت الاستثناءات جنبا إلى جنب مع كلّ قاعدة.

وعليه: فإنَّ (المشَاعِيَّة) هي القاعدة، أمّا (النَّهي) فهو الاستثناء؛ ولذلك فالمؤمنون يأملون بلوغ مجمع النعيم المشاع (الجنَّة)، أمّا الاستثناء فلا يكون إلّا بعلل الشذوذ عن القاعدة.

ولأجل ترسيخ القيم الحميدة، والفضائل الخيّرة، وتبيان ما يجب وما لا يجب جاءت القوانين؛ لتنظيم العلاقات، أقصد بالقوانين: تلك القوانين المشاعة، التي ترسّخ الإنسان قيمة؛ حيث لا يُحرّم عليه شيء هو حقّ له، ولا ينهى عن أداء واجب ينبغي أن يؤدّيه، ولا عن مسئولية تُحمل يجب أن يحملها ويتحمّل ما يترتّب على حملها من أعباء.

ومع أنّ الإنسان خُلق في أحسن تقويم، فإنَّه لم يُخلق على الكمال، حيث لا كمال إلّا للخالق؛ ولهذا فمن يرى نفسه على الكمال فقد خرج عن القاعدة وأصبح استثناءً، وهنا يجب أن ينهى بأمرٍ وقانونٍ يجعله يتمددّ بحرّية إلى النهاية التي لا يكون فيها تمدّده على حساب تمدّد الآخرين.

والسؤال: هل القانون قيد أم إنّه نصوص لفكّها؟

أقول:

فلسفة القانون تمنح الإنسان فسحة التمدّد بحرّية حتى حدود الآخرين بلا تجاوز، أي: إنَّ التمدّد هو المشاعيّة، وفي المقابل الانكماش أو التجاوز هو الاستثناء، بمعنى: لا ينبغي لك أن تتمدّد إلّا في مجالك الواسع، ولا ينبغي لك أن

[66] البقرة 35.

تتمدد على حساب تمدد الغير؛ والهدف من ذلك هو: وجوب التمدّد وهذه قاعدة، أمّا الانكفاء فهو الاستثناء بعينه.

ولأنّ المجتمع البشري متضاعف الأعداد، ومتنوّع الرّغبات، وحاجاته متطوّرة، وفي المقابل مشبعاتها بين كثرة وندرة وانعدام فهو بين هذا وذاك أصبح مضطرًّا لتنظيم علاقاته، وضبط أعماله وأفعاله وسلوكياته، وتنظيم حياته؛ ممّا دعاه إلى سنّ القوانين الضابطة لذلك، ولكن أيّة قوانين؟ هل هي فاتحة الآفاق لممارسة الحريَّة، أم إنّها المقيّدة لمن يأمل ذلك؟

القانون وفقًا للقاعدة الطبيعية لا تقييد فيه؛ ذلك لأنّه موجد التوازن والاعتدال؛ ولذا فمن لا يتوافق مع قوانين الخالق (القوانين الطبيعية) يجد نفسه منحرفا عن غير اعتدال، ثمّ منعوتا بالشّذوذ عمّا يجب من قبل المتوازنين قانونا؛ ولهذا فالقوانين الطبيعية متلائمة مع طبيعة المخلوقات؛ كونها خالقة التوازن والاعتدال، أمَّا القوانين الوضعية فهي بين توافق عن إرادة وتكيف لا يكون إلّا بقبول تقديم المزيد من التنازلات.

ولذلك؛ ووفقًا للقانون الطبيعي فإنّ كلمة: (قف) تعني: الاعتراف بوجودك وتقديرك واعتبارك، ولكن إن لم تقف عند حدّك الذي هو حقّ لك فستواجهك الصّدمة التي قد لا تكون متوقّعة من قِبلك، وهنا تكمن علّة التمدّد على حساب تمدّد الآخرين، فكلمة: (قف) تدلّ على الإنذار ليس إلّا، ممّا يجعل الوقوف هناك عند نقطتها بلا مظلمة.

ومن خلال معرفتنا العامّة يقال: إنَّ الإنسان خطّاء، ولكن بالمعرفة العلميَّة: مَن الذي سيخطئ؟ هل هو الإنسان العاقل، أم غير العاقل؟

أقول:

العاقل هو المعرّض للأخطاء، أمّا غير العاقل فخطؤه أمر طبيعي. وبما أنّ العاقل هو الذي يخطئ، إذن: الذي يفكّر قد لا يخطئ، بمعنى: لو فكّر العاقل في النتائج المترتّبة على الموضوع الذي يفكّر فيه قد لا يخطئ، أمّا غير العاقل فهو (الحرّ) الذي لا يعرف الخطأ، وحتى إذا اتهم به نال البراءة من رؤوس العدالة.

ومن ثمّ متى ما انحرف العاقل عن قيد عقله تحرّر من اتجاهه، وإلّا هل هناك من يقول: نحن لم نخلق بعقل، ولم نسجن به؟

أقول:

نحن الذين خلقنا بعقل، ونحن الذين سجنّا به.

إذن: فالسّجن ليس الجدران والقضبان، بل العقل الذي يفكّر؛ ولهذا كلّ من لا يفكّر حرٌّ بطبعه.

والسؤال:

هل العقل قيد (سجن) في حدّ ذاته أم إنّ القيود خارجة عنه؟

إذا أجبنا بأنَّ القيود خارجة عنه قد نسأل: لو كان الإنسان غير عاقل؛ فهل يمكن أن يفكّر في وضع قيود عليه؟ فإذا كانت الإجابة بلا، إذن: الإنسان العاقل هو الذي قيّد نفسه، وهو الذي نقل لنا ما في ذهنه من موانع إلى صور وأشكال مادّية سُميت: (السّجون) المحاطة بالجدران والقضبان الحديدية، والحراس المزودين بالهراوات والأسلحة الحديثة.

ولأنَّ الإنسان العاقل قد يتهرّب من ضميره كضابط عام وضع لنفسه قانونًا لضبطه، وشرطيًّا يقبض عليه متى ما خالف ذلك، وبعد تنفيذ القانون عليه، أحس الإنسان الذي أوجد القانون أنّه قد وضع على نفسه ضميرا ورقيبا خارجا عنه وقيدًا عليه، فبدأ يفكّر في كيفيَّة خدَّاعه والتهرّب منه، ممّا جعل العلاقة بين الشّرطة والمواطن الذي تنازل عن ضميره علاقة عدم ثقة ومطاردة؛ ولهذا لم يؤت الإنسان من العلم إلّا قليلا، ولو أُوتي علمًا كثيرا لعرف أنَّ التنازل عن الضّمير هو تنازل عن العقل والحريَّة؛ ولذلك لم يتطوّر إلّا بالقليل؛ فالإنسان الذي ولد كغيره من الكائنات الأخرى يصرخ متى يشاء ويصمت متى يشاء، ولد حرًّا، ومع أنّه حرٌّ لكنّه لا يستشعر الحريَّة؛ لكونه لم يدرك معناها بعد؛ لعدم نضج العقل الممكّن من معرفة الحريَّة، وكيفية ممارستها قانونًا طبيعيًّا أو وضعيًّا.

وهكذا هي الحياة لا تكون إلّا على قوانين، ولأنّ الحياة مؤسّسة على القانون فلا يمكن أن يكون القانون قيدا إلّا إذا كان القانون استثناءً.

وبناء على ذلك؛ فللمتسائل أن يتساءل: هل الزّواج الطبيعي قيدٌ أم إنَّه دليلٌ شاهدٌ على المشاركة محبّة ومودة؟

أقول:

الزواج قيمةٌ حميدةٌ تحقّق الرّضا متى ما كان الزّواج غير متخالف مع قوانين الحياة الطبيعية، وفي المقابل يفقد الزّواج قيمته الحميدة إذا حاد عنها، وأصبح على حسابها استثناءً.

وعليه: فالتساؤلات التي تحمل في مضمونها قيدا لا تكون قيودا إلّا في حالات الاستثناء، وهنا لا تكمن العلّة في القوانين الطبيعية، بل تكمن العلّة فيمن

لا تكون اختياراته وفقًا للقواعد الطبيعية التي تأسّست عليها طبيعة الخلائق. وهذه النتيجة تحتوي كلّ التساؤلات الآتية:

هل الدّين قيد على الحريَّة، أم داعم لها؟

هل القانون قيد على حرّيَّة العقل أم لا؟

هل الأمومة والأبوة والمجتمع قيود على حرّيَّة العقل أم لا؟

هل كلمة لا قيد على الحريَّة أم لا؟

هل السّجون قيد من أجل الحريَّة أم قيد عليها؟

هل الحكومة قيد على المحكومين أم لا؟

وهل يمكن أن تتحقّق الحريَّة إذا عددنا هذه الأشياء قيودًا؟

وبناء على هذه الأسئلة، أتساءل:

متى ستتحرّر عقول النَّاس من التفكير فيما يُقلق وينتج ألما؟

لا إجابة إلّا بالعقل الذي يفكّر ويتذكّر ويميّز بين الحقّ والباطل، الذي لولاه ما عرفنا المرغوب والممنوع، ولولاه ما استعملنا كلمتي (قف، وسر)، ولا كلمتي: (لا، ونعم) فهذه الكلمات هي التي تنتج قولنا: (نعم) لما نريد، (ولا) لما لا نريد.

وعليه: ينبغي للإنسان أن يكون في عقله؛ لكي يكون حرًّا، وإذا خرج منه سيوضع فيه من قبل الآخرين بالقوَّة، وعليه أن يفكّر، ولكن إذا كان العقل سجنا فهل سيحقّق تطوّرا؟

السّجن منه الانفرادي والجماعي والاجتماعي؛ ولهذا في الدّول التي تهدف إلى التقدم لا يسجن المجتمع، بل يسجن الأفراد والجماعات الذين يحاولون إعاقة حركة المجتمع إلى التطوّر، أمَّا في الدّول المتخلّفة فيسجن المجتمع بكامله تحت الأوامر والنواهي التي تعيق حركته إلى التطوّر، ممّا يجعل دور المدرَسة ليست مدرسة، ودور المدرس ليس بالمدرس، ودور الواعظ ليس بواعظ، وخطيب الجمعة ليس بالخطيب، وشيخ القبيلة ليس بشيخ، ورئيس الحكومة ليس بالرئيس.

ومن هنا، فالعقل الذي يحقّق التطوّر هو العقل العام، والعقل العام هو عقل المنافع الفردية والجماعية والمجتمعية، أمّا العقل الذي لا يفكّر في محيطه؛ فهو في دائرة الاستثناء؛ ولهذا لا يحقّق التطور.

وإذا عُدنا مرّة ثانية للإجابة عن السؤال السّابق كيف يكون العقل سجنًا ويحقّق التطوّر؟

أقول:

إذا سلمنا أنَّ العقل هو الذي قيَّد نفسه، ألا نسلّم بأنّه قادر على فك قيده؟ وفي كلّ الأحوال إذا كانت الإجابة بنعم، هل يمكن أن يعيش الإنسان الحريَّة ويمارسها بكامل عقله وفي الوقت نفسه يكون على الإرادة والأخلاق؟

في اعتقادنا الإنسان بطبعه يغضب ويطرب، ويقبل ويرفض، وله حدود وفسحة امتداد، ومع ذلك قد يصعب عليه الالتزام والتوقّف عند الحدود، ولأنّه من الصّعب الالتزام بها، إذن: فمن الصّعب ألا يسجن؛ ومن ثمّ يتأكد لنا أنَّ العقل سجنٌ، وعلينا احترامه؛ لكيلا نسجن.

ومع ذلك لا يمكن أن يضع الإنسان القيد في عنقه بإرادة إلّا في حالتين: حالة الانتحار، وحالة فقدان العقل، وفي كلتا الحالتين هو في حاجة لمن يكسر القيد عنه، حتى ولو كان بقيد آخر.

ولذلك؛ ينبغي للقيود المكبّلة لممارسة الحريَّة أن تكسر؛ كونها شذوذا عن القاعدة الخَلقيّة التي خُلق الإنسان عليها في أحسن تقويم. أي: ينبغي كسر القيد الذي وضعه الحاكم الظّالم في رقاب المحكومين؛ ولهذا فالمساءلة ضرورة موضوعية تعيد المنحرفين عن انحرافاتهم سواء أكانوا حكّاما أم محكومين، ولكن نلاحظ في الوقت الذي فيه يخضع طرف إلى هذا الإجراء من أجل ممارسة الديمقراطية في الوقت ذاته يخرج طرف آخر عن مراقبتها وهنا تكمن العلل.

والمعادلة التي قد تحتاج إلى ضبط وإلّا سيختل التنظيم الاجتماعي هي أنّ الشّعوب في زمن ما قبل العولمة كانت غير قادرة على السّيطرة على الحاكم، وبالتالي كان الترحيب حارا من قبل شعوب الدّول النامية بتنظيرات العولمة التي يعرفون أنّها سَتُمكِّنهم من كسر القيد بالقيد، أمّا في الزّمن الذي ستزدهر فيه العولمة ستكون المعضلة كيف يمكن للحاكم أن يضبط الشّعب من الانفلات بعد أن فُكت قيوده التي من الصّعب أن يقبل بالعودة إليها؛ ولذا قد تتدخل قوَّة خارجية من جديد تحت مبررات من أجل ضبط النظام واستقرار الأمن، وهذا ما سيكون متوقّعا إذا انتصر اليمين في أوروبا تمشيا مع انتصار الرّئيس الأمريكي دونالد ترامب، مع أنّ رأينا يتوقّع غير ذلك، أتوقّع أن يغيّر الرئيس ترامب آراءه، وأنَّ اليمين لن يتبوأ السلطان، وأنّ الأمر في أوطان العالم الثالث يحتاج إلى مزيدٍ من الوقت، مع إتاحة الفرصة للتقليل مما يؤلم، ولكن التقليل فقط.

إذن: إذا أريد للعولمة النجاح فينبغي لها أن تكون مؤسّسة على كفتي اعتدال الميزان، الحريَّة الشّخصية وفقًا للقيم الاجتماعيَّة والإنسانية في مقابل حرّية السّوق؛ وإذا لم يؤخذ ذلك في الاعتبار، فإنّ نظام السّوق سيكون قيدا بالضّرورة؛ ولذا فإن لم يحسم هذا الأمر سيكون الصّدام بين من يحاول أملاءَ شروطه والرّافضين لها.

وبما أنّ الأمر لم يُحسم بعد فإنّ الحوار على العولمة هو اللغة السائدة اليوم، وهذا الحوار سيترتّب عليه صدام وصراع إن لم يتمّ الإجماع على القبول أو الرّفض أو الانتظار، ومن هذه الصراعات المحتملة.

. الصّراع بين المواطنين كأفراد عندما يحسّ كلّ منهم أنّ الآخر قيدٌ على حرّية ممارسته للديمقراطية.

. الصّراع بين المواطن الفرد والحاكم عندما يشعر المواطن بأنّ الحاكم يُشكل قيدا عليه وعلى ممارسته الحريَّة، أو عندما يشعر الحاكم أنّ المواطن غير مكتف بما أعطي له من هامش للامتداد.

. الصّراع بين المواطن الفرد وأداة الحكم، عندما يحس الموطن أنّ الأداة الحاكمة تحتكر السّلطة، ولا تسمح له بأن يمارس حقّه مشاركة.

. صراع المواطن كفرد مع الدّستور والقوانين والنّظم عندما تصاغ بغير إرادة.

بناء على هذه النقاط المسببة للصّدام آجلا أم عاجلًا جاءت تنظيرات العولمة لكسر قيودها؛ بهدف تحرير المواطن بناء على ضمانات حقوق الإنسان، فمن حقّ الإنسان أن يكون حرًّا، ويمارس الدّيمقراطية بإرادة؛ ولذا يجب فكّ القيد عنه بإرادة، وإن لم يُفك بها يجب أن يُكسر بالقوَّة. وكلمة (يجب أن يُكسر بالقوَّة)،

تعني فيما تعني: وضع القيد في عنق من لا يودّ فكه بإرادة، ومن هنا تتولّد الصراعات التي منها:

. صراع الضّمير العام مع الأنا:

عندما تُفْلت الأنا من ضوابط الذّات التي تشكّل قيدا عليها، يتدخل الضّمير العام كحكم بينهما بالنواهي والضوابط التي استمدّها من الفضائل الخيرة والقيم الحميدة، وهذه الضوابط بالنّسبة إلى الأنا تُعد هي الأخرى قيودا إن لم تفكّ فلا بدَّ أن يتمّ التحايل عليها، وعدم الالتزام بها.

. صراع الضّمير العام مع الذّات الجماعية:

الذّات الضابطة للأنا في كثير من الأوقات هي في حالة صدام معها؛ ولأنّها ذات جماعية بشرية فهي الأخرى تحيد في بعض الأحيان عن ضوابط الضّمير العام، الذي تعده الذّات سندا لها عندما تكون في حالة صدام مع الأنا، وفي الوقت ذاته تعده قيدًا عليها عندما تحاول الانفلات والانحراف، وذلك بمتابعته لها في كلّ أمرٍ، فكلّما قرّرت الانفلات منه يحدث الصّدام معها.

وإذا تساءل البعض: متى يحدث الصّدام بين الضّمير العام للمجتمع والضّمير العالمي (ضمير حقوق الإنسان والحيوان)؟

تجيب العولمة عن ذلك بالنقاط الآتية:

أ . عندما لا يستوعب الأنا الآخر.

ب . عندما لا تمارس الدّيمقراطية بإرادة.

ج . عندما لا تفتح البلدان كميادين ليمارس السّوق نشاطه فيها بحرّية.

د ـ عندما لا تكون الأديان والأعراف قيودا على من لا يُشرِّعون بها.

هـ ـ عندما لا يتمّ الحفاظ على البيئة.

و ـ عندما يحاول البعض صمّ آذانه عمّا تقوله المنظّمات الدّولية.

ز ـ عندما يحاول البعض الامتناع عن ارتداء قميص القيد الذّهبي الذي فصّلته العولمة.

وعليه: سيكون التدخل مباحًا ومتاحًا متى ما يتراء للذّات العالمية أن تتدخل في الشئون الدّاخلية للبلدان والدّول؛ ولهذا كسر القيد بالقيد لا فرق فيه بين أن يكون حديديًّا أو ذهبيًّا، إلا أنّ القيد الحديدي القديم الذي في كثير من الأحيان يتعرّض إلى الصّدأ سيتمّ استبداله بالقيد الذّهبي الجديد الذي لا يصدأ[67].

منهج النُّقلة يُمكِّن من الرِّفعة:

علاقة واضحة بين مفهوم النُّقلة ومفهوم الرّفعة؛ فالنُّقلة (امتداد من إلى) أي: من حالة أقل إلى حالة أرفع؛ أمَّا الرّفعة فهي بلوغ مستوى الرُّقي، سواء أكان علميًّا، أم ثقافيًّا، أم اقتصاديًّا، أم ماليًّا، أم سياسيًّا، أم حضاريًّا بشكلٍ عامٍّ.

ولهذا فالرِّفعة ارتقاء منزلة، وتبوءُ مكانة، وامتلاك حُجّة، وهي الحيويّة التي تجعل من أصحابها قدوة حسنة قولًا وفعلًا وعملًا وسلوكًا، وهنا الرِّفعة تعالٍ عمّا يشين.

[67] عقيل حسين عقيل، إحداث النقلة، القاهرة: المصرية للنشر والتوزيع، 2020م، 73 = 98.

ومن ثمَّ فهي حُسن إدارة ما يُساس، والارتقاء به عدالة مع وافر الشفافيَّة في ممارسة الحريَّة بأسلوب ديمقراطي، وتغلُّبٍ على كل ما يؤدّي إلى ألمٍ، أو يعيق بلوغ المأمول ونيله.

والرِّفعة قيمةٌ عاليةٌ تضع من بلغها مكانًا مرموقًا؛ تكون مسافته بعيدة جدًّا عن تلك النَّقطة الدونيَّة، ما يجعل أقوال وأفعال المرموقين بها على قمم الأخلاق والعلم والإنتاج؛ حتى يتّصفوا بها قدوة ورفعة وارتقاء، وبها ترتفع الدِّول سياسة حضارية؛ إذ العلم والعمل المنتج وقيمة الإنسان وتنميته ركائزها.

ومن هنا فإنَّ الرفعة لا تأتي إلّا من الفضائل الخيِّرة والآراء صانعة المستقبل ومحدثة النُّقلة، التي تستمدّ علمًا ومعرفةً من كلّ مفيدٍ ونافعٍ، وبما يجسِّد قيمة الإنسان، ويمكّنه من نيل الاعتراف، والتقدير، والاعتبار، وغرس الثقة، ويحفّزه على بلوغ المأمول ونيله.

فالإنسانُ أساسُ خلقهِ الرِّفعةُ: (في أحسن تقويم)، وغايته: الارتقاء خُلُقا إلى ما يجب؛ ومع أنّ الأخلاق بيد النّاس، ولكن بعضهم يخسرها بلا ثمن.

ولذلك فالإنسان الأوّل (آدم) قد خُلق من تراب الجنَّة؛ وظل على خَلقه سلالة بشرية تمتدّ بين طينٍ لازبٍ وماءٍ دافقٍ، ولا انحدار عن الخَلق المقوّم ولا تطوّر من بعده؛ فالإنسان هو الإنسان. ولكن الانحدار والتطوّر في دائرة الممكن هو بين متوقّع وغير متوقّع؛ فآدم وزوجه خُلقا في الجنَّة من تراب الجنَّة، ومع ذلك تعرّضا لإغواءٍ جعلهما على حالة من الانحدار عن تلك الرِّفعة التي خلقا عليها؛ إذ لم يلتزما بالأمر النّاهي عن الأكل من تلك الشّجرة: {فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا

فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ}[68].

ولهذا فالبقاء في الجنَّة بقاء رفعة شأن، فمن لا يكون عليها لا يكون فيها؛ فحتى آدم عليه الصّلاة والسّلام الذي خُلق في الجنَّة خَلقا، أُهبط به على الأرض الهابطة إلى الحياة الدّنيا؛ وذلك بأسباب معصيته وميله لوسوسة من أغواه شهوة، وهنا فالسِّياسة رفعة لا تكون كذلك إلّا إذا ارتبطت بالقيم الحميدة والمبادئ الخيرة، والآراء البناءة، وفي المقابل إذا ارتبطت بغيرها شهوة فليس لها إلّا الانحدار والدونية.

ولأنَّ هبوط آدم عليه السّلام كان نتاج الانفتاق العظيم بعلل الشهوة؛ فهو خروج من الجنَّة، حيث ظلّت الجنَّة في العلو رُقيّا ورفعة، وظلّ آدم ومن معه من المخالفين والعصاة: (الإنس والجن)، يحيون الحياة الدّنيا على الأرض الدّنيا.

أمَّا بعد الهبوط فَالفتن لم تنته، بل تكاثرت مع التزاوج والتكاثر؛ فالصّدامات والخصومات بين أبالسة وشياطين الإنس والجنّ استمرّت بلا انقطاع، ومع ذلك؛ فإنَّ بقاءها في الحياة الدّنيا هو بغاية الاتعاظ وأخذ العبر من ذلك الإغواء الذي كان سببًا في هبوط المخالفين من الحياة الرفيعة الرّاقية إلى الحياة الهابطة.

ولأنَّ مخالفة آدم وزوجه لِمَا نهى الخالق عنه (الأكل من تلك الشّجرة قد أخرجهما من الجنَّة)، فظلّ هذا الدّرس شاهدا على ما يمنع بني آدم من أن يدخلوا الجنَّة. أي: بما أنّ تلك المخالفة قد أخرجت آدم وزوجه من الجنَّة، إذن فكيف لبني آدم دخولها؟

أقول:

---

[68] البقرة: 36.

قال تعالى: {مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ}[69].

ولأنَّ أمر الهبوط كان أمرًا حاسمًا لمخالفة جرت في الجنَّة؛ إذن: ألا يعدُّ أمر الهابطين أمرًا حاسمًا في عدم الدّخول إليها؟ وهل من مخرج من هذه الأزمة، ومعظم الخَلق لهم من المخالفات ما لهم على الانحدار والدّونية؟

أقول: قال تعالى: {قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا}[70].

ولأنَّ الدّين مصدر الفضائل والقيم الرّفيعة؛ فلا إكراه فيه، وهذه عين الأخلاق؛ فمن شاء فليؤمن، ومن شاء فليكفر؛ ولذا وجب قول الحقّ وترك النّاس أحرارًا يختارون ما يشاؤون إرادة، ولكن إن حدث الانحراف فيجب الإصلاح الذي يستوجب البدء مع المنحرفين من حيث هم (جهلا أو تعلّمًا)؛ وذلك من أجل بلوغ الإصلاح، أو بلوغ الحلّ ارتقاء.

ولأنَّ الرّفعة ارتقاء هي أساس المعاملة الحسنة؛ فالأخذ بها لا شكّ يجعل الإنسان على المحبّة بدلا من أن يكون على الإكراه الذي لا يترك إلّا ألما، {أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ}[71]، أي: فلا داعي أن يضيق صدرك يا نبي الله وأنت تعلم أنّ مشيئة الخالق هي الفاعلة، {وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا}[72]؛ لذلك كان محمَّدٌ داعيًا إلى سبيل الحقّ بالحكمة والموعظة

---

[69] الأنعام 160.

[70] الزمر 53.

[71] يونس 99.

[72] يونس 99.

الحسنة، ولا إكراه، وهذه عين الأخلاق رفعة وارتقاء؛ فالأخلاق تُعدّ قيمة ارتقاء في ذاتها، وهي عندما تتجسّد في سلوك السّاسة يصبح سلوكها قمّة ورفعة.

ولهذا عندما تصبح السِّياسة رفعة حجّة، ورفعة قول، ورفعة سلوك، ورفعة عمل، وفعل يظل الاقتداء بأصحابها اتباعًا لِسُبل بيّنة، ذات معانٍ ودلالات تطمئن الآخذين بها، إذا ما اقتدوا بما يرشد إليها وجوبا؛ ذلك لأنَّ الاقتداء ارتقاء لا يؤدّي إلّا لموجب، وفي المقابل الاقتداء انحدارا لا يؤدّي إلّا لسالبٍ، ومن هنا، يتولّد الحوار بين ما يؤدّي إلى الارتقاء، وما يؤدّي إلى الانحدار؛ فالذي يؤدّي إلى الارتقاء لا غاية من ورائه إلّا اتباع الحقّ، والاقتداء به، وبمن يتّخذه سلوكا وعملا مفعولا، أي: إنّه الاقتداء الذي لا يخضع للمساومات ووهن الشهوة؛ ذلك لأنَّ ما يخضع لذلك بيعا وشراء يُدخِل أصحابه في خانة التبعيّة والانقياد وفقا للثّمن المباع به أو الثّمن المشترى به؛ فالاقتداء رفعة يستوجب اتباع الحقّ الذي لا يضع مُتّبعوه في خانة الدّونية: {اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُّهْتَدُونَ}[73]، بمعنى: اتبعوا من جاء من أجلكم دون أن يسألكم مقابلا، أي: اقتدوا بمن يراكم قيمة في ذاتكم لا من لا يراكم إلّا بما تقدّموه بيعا أو شراء.

ولذلك فالاقتداء الحسن قوّة لا يكون إلّا من قِبل الذين لهم من العزيمة ما لهم، ولهم من الآمال الحسنة ما لهم، وفي المقابل لا يؤدّي إلى الانحدار إلّا الضّعف الذي له من القيم السّلبية ما له؛ كالشّهوة، والشّخصانيَّة، والطّمع، والاتّكاليَّة، والنّفاق، والجبن، والخيانة، ومن ثمّ؛ فالاقتداء لا يكون اتباعًا إلّا عن رغبة وإرادة.

---

[73] يس: 21.

ولهذا؛ فالاقتداء اتباعًا لا يكون إلّا بتوافر الحُجّة والسِّياسة النافعة المحقّة للحقّ، والمدحضة للباطل، والممكنة من المعرفة الواعية، وهو لم يكن تقليدا مورّثا بغير حُجّة.

ذلك لأنَّ التقليد الموّرث في بعض الأحيان لا يزيد أصحابه إلّا دونيةً وانحدارًا: {إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ}[74] ومع ذلك فالسِّياسة رفعة ترى أنَّ الذين لا حجّة لهم، هم الذين يجب حوارهم وجدالهم؛ حتى يتحرّروا من قيود التقليد الحائل بينهم وبين الارتقاء؛ ولذلك فاتباع العقل اتباع قدوة وحُجّة، وليس اتباع موروث وأشخاص؛ فالموروث الذي لا يُمكّن من أخذ المواعظ والعبر من التّاريخ، هو مورث مُفلس حيث لا قيمة، وهذا الأمر يجعل البعض كمن يلكّ العلكة ثم يخرجها من فمه ليتركها لمن بعده لعلّه يلكّها، وهذا ما يؤدّي إليه التقليد المفسد للقيم، وإن لم يدرك هؤلاء مخاطرَ ومفاسد التقليد عن غير دراية، سيجدون أنفسهم يعيشون عصرًا قد تجاوزته العصور: {وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ}[75].

فالتقليد الذي ينبغي لك الأخذ به، هو الممكّن من تجاوز ما يؤلم، أو ما ينذر بألم، وهنا وجب التمييز بين ما يمكن أن يكون تقليدا لإظهار القدوة الحسنة، وما هو أهواء بمبررات مجهولة: {وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ}[76]؛ فينبغي أن يكون التقليد والاتباع للفضائل الخيّرة والقيم الحميدة، والنّاس القدوة، كما كان سيدنا إبراهيم عليه السَّلام الذي وُصِفت قدوته بالأمّة: {إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً}[77]،

[74] الزخرف 22.
[75] الأعراف 142.
[76] الجاثية 18.
[77] النحل 120.

أي: فمن أراد أن يكون قدوة حسنة؛ فعليه أن يستوعب القيم الحميدة للأمّة كلّها، ثم يجسّدها في سلوكه كما جسّدها إبراهيم عليه السّلام؛ لتكون من بعده بين أيدي النّاس رفعة تجمع الشّمل على الكلمة السّواء.

فالاقتداء الذي ينبغي له أن يتّبع هو الذي أساسه الحُجّة الفاصلة بين الحقّ والباطل، وليس تقليدا للأفراد في ذواتهم؛ ذلك لأنَّ الفضائل والقيم تبقى، أمّا النّاس فزائلون: {اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِّنْ رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ}[78]، أي: اتبعوا ما يبقيكم على المكانة والرِّفعة، ولا تتبعوا الزائلين، وإن أردتم أن تكونوا قدوة حسنة وخلائف في الأرض فخذوا ما أمر الله به ارتقاء؛ لتجعلوه تقليدا لمن خَلفَكم، وهو التقليد الذي يمكّن مَن خلفكم مِن تنظيم حياتهم على المحبّة والوفاق، ويمكّنهم من العمل المنتج بلا مظالم.

ومع أنَّ الاقتداء بالفضائل لا يكون إلّا في مرضات الله، ولكن حتى وإن أخذ الإنسان بكلّ ما قاله الله؛ فلا يمكن له أن يكون الله، بل يكون قدوة حسنة في مرضاة الله، وهو الذي خُلق الإنسان من أجله، وإلّا هل هناك من يظن أنّ الخالق قد خَلق العباد لمعصيته؟

وكذلك، إن أخذ الإنسان بكلّ ما جاءت به الرّسُل؛ فلا إمكانية لأن يصبح أحد رسولا، ولكن تقليدا بإمكانه أن يكون قدوة حسنة: {لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ}[79].

---

[78] الأعراف: 3.

[79] الأحزاب: 21.

ولهذا؛ فالتقليد الحسن يجعل من المقلِّد قدوة حسنة، وفي المقابل التقليد السّيء لا يجعل من صاحبه إلّا سيئا، ومهما بلغ التابعون من التقليد؛ فلن يكونوا مبدعين إن اقتصر تفكيرهم على التقليد فقط؛ ولذا فالقدوة الحسنة يمكن أن تكون من الذين قضوا نحبهم كما هو حال الأنبياء والرّسل عليهم الصّلاة والسّلام: {قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ}[80]، وكما هو حال رجالات التاريخ، مثل: الشيخ عمر المختار، والشيخ عبد القادر الجزائري وغيرهم كثير؛ فهؤلاء ومن كان مثلهم مع أنّهم ليسوا على قيد الحياة، ولكنّهم خير قدوة، ولكلّ رسالته التي بقيت حُجّة بين أيدي المقتدين به رفعة.

أمَّا القدوة على قيد الحياة فإلى جانب كونه قدوة فضائل وقيم، ينبغي أن يُضِيف إلى ما جعله قدوة، ما يجعله قدوة أكثر ارتقاء، وهكذا يصبح الاقتداء من حسنٍ إلى ما هو أحسن من أجل بلوغ القمّة قيما وفضائل.

ومع أنَّ التقليد لا يكون إلّا لسابق، فإنَّه من أجل الارتقاء دائمًا ما يتجدد التقليد الحسن، والتقليد ارتقاء دائمًا للأحسن حتى وإن جاء ممّن هو أقل مكانة، كما هو حال ابن آدم الذي كان الغراب أكثر منه معرفة بما يُمكن أن يُقلّد؛ فابن آدم الذي قَتل أخاه، ولم يكن يعرف كيف يواري سوءته، وقف عاجزا في حيرة من أمره إلى أن بعث الله غرابا ليريه كيف يواري سوءة أخيه: {فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي}[81].

---

[80] الممتحنة: 4.

[81] المائدة: 31.

إذن: التقليد ارتقاء لا يكون إلّا بالمعرفة المرشدة لما هو أفضل وأنفع، وممّن تكون؛ فالأشخاص لو لم تكن لديهم المعرفة الكافية والواعية فلا إمكانية لأخذهم قدوة، وعندما يفتقر الإنسان إلى المعرفة الحسنة فلا إمكانية لأن يكون قدوة، ومن هنا؛ فمن تكون له المعرفة ارتقاء يكون قدوة حسنة[82].

ومن ثمّ؛ فالأخذ بالقيم والفضائل تقليدًا يخلق القدوة الحسنة التي تأخذ بالاقتداء والاعتزاز الذي يجعل للإنسان قيمة؛ فالأبناء أوّل من يقتدون به قدوة آباؤهم إن كانوا قدوة، ومدرسوهم إن كانوا قدوة، ثمّ ينضجون بحثا عن مكانة تليق بهم وفقا لما يأملونه ارتقاء؛ ولذلك فالقدوة الحسنة تترك أثرا طيبا لدى الأجيال، في مقابل ما تتركه القدوة السيّئة من أثرٍ غير حميد، فمن يقتدي بالقول والسّلوك والفعل والعمل الطيّب يجد نفسه مقتديا بما هو مرغوب فيه قيمة وفضيلة، ومن يقتدي بغير ذلك سيجد نفسه على غير قيم حميدة ولا فضائل خيّرة؛ فالقدوة الحسنة تبقى قدوة حتى وإنْ انتهى أصحابها؛ فالأنبياء كونهم قدوة حسنة هم أحياء (حجّة وعقيدة، وفعلا وعملا وسلوكا)، وهكذا رجالات التاريخ وصنّاعه قدوة.

وعليه:

فالمربّي يكون قدوة حسنة، متى ما نقل للنشء تجاربه الموجبة، وخبراته النّافعة، وقيم المهنة الرّاقية، وفضائل المجتمع الخيّرة، وفي المقابل قد يكون قدوة سالبة إذا لم يتطابق قوله وسلوكه وفعله وعمله مع أخلاق المهنة، وقيم المجتمع، وما ترتضيه الإنسانية والسياسات النافعة.

[82] عقيل حسين عقيل، من معجزات الكون، ص262 . 266.

وهكذا يكون المعلّم قدوة حسنة متى ما نجح في تَحَمُّل المعلومة المتجدّدة ارتقاء، وكذلك الأم قدوة حسنة موجبة متى ما نجحت ارتقاء في غرس مشاعر الأمومة في أبنائها، وفي المقابل تكون قدوة سيئة متى ما انحرفت منهجا وخُلقا وسلوكا، وكذلك الأب يظل قدوة حسنة متى ما غرس عاطفة الأبوة في أبنائه جنبا إلى جنب مع قيم المجتمع المفضّلة، ويكون قدوة سلبية متى ما انحرف عمّا تفضّله الإنسانية من قيم.

وبما أنَّ القدوة الحسنة حلقة وصلٍ تربط الأجداد بالأحفاد، إذن: فتواصل الأجيال يتطلّب القدوة، وتواصل الحاضر مع الماضي يتطلّب الذّاكرة، وهكذا تواصل الحاضر مع المستقبل يتطلّب الأمل الذي تحفّزه القدوة الحسنة لما يجب أن يكون عليه ارتقاء ورفعة[83].

وعليه فالسِّياسة رفعة لا تكون إلّا والمأمول نافع ومفيد، وأنّ الآمل لا يسعى إلّا لما يفيد، ومن هنا يوصف المأمول بالقمّة؛ فيصبح الارتقاء رفعة عن كلّ ما يؤدّي بأصحابه إلى السُّفلية والدّونية؛ فيؤخذ بالقيم الحميدة والفضائل الخيرة مع وافر التقدير والاحترام للأفراد والجماعات والمجتمعات والحضارات والثقافات والأديان، كما أنّه يمكّن من التوافق والاندماج الذي فيه الإنسان قيمة في ذاته؛ فلا يهان، ولا يقلل من شأنه، ولا يحرم من ممارسة حقوقه، وأداء واجباته، وتُحْمَل مسئولياته. والرِّفعة هنا قد تكون بأسباب العلم والثقافة وحسن المعرفة، وقد تكون نتاج التربية وتهذيب السلوك ومخافة الله.

[83] عقيل حسين عقيل، منابع الأمل، مكتبة الخانجي، القاهرة، ص 150 – 157.

والسِّياسة رفعة بها تُتّبع أساليب الاحترام والتقدير والاعتبار والتّفهم، وبها يتمّ الإنجاز أو الإنتاج دون أن يسود استغلال للجهد الذي به أنجز العمل أو أنتج.

ولأنّ السِّياسة رفعة هي المبدأ الذي ينبغي أن يُتّبع أو المنهج الذي يجب أن يؤخذ به؛ فهي المنقذ من الميل إلى الانحدار والسفلية، وهي مكمن القيم الحميدة التي تحوّل العاملين من خانة المستهلكين إلى خانة المنتجين والمبدعين ومتحدّي الصّعاب.

إذن: السِّياسة رفعة تستوجب عملا وجهدًا يبذل مع خالص النيّة، أي: لا أمل ولا عمل ولا إنتاج إلّا والجهد يبذل، والجهد هنا قد يكون فكريًّا، وقد يكون عضليًّا، وقد يكون فنيًّا ولوجستيًّا (خبرة ومهارة) وهذه من مجوِّدات العمل ارتقاء؛ فلا ينبغي له الإغفال عنها، وعن أهميّتها وعن أدوار أصحابها، أي: يجب أن تقدّر تقديرًا عاليًا؛ من حيث الحوافز والدّوافع، وكلّ ما من شأنه أن يشجّع على المزيد أو يشجّع آخرين ليلتحقوا بخانة الآملين.

ومن ثمّ، فالسِّياسة رفعة تستوجب دراية ومعرفة واعية، أي: المعرفة بما يجب ليُتّبع، وما لا يجب ليجنّب أو يبتعد عنه، مع معرفة وافية بقوانين العمل والمهنة والوظيفة وتشريعاتها وحَمْل المسئوليَّة حتى وإن كانت عبئا جسيما مع معرفة الآخر واحترامه وتفهّم ظروفه وأحواله.

وعليه:

ـ الأمل والعمل ارتقاء لا يكونان إلّا عن وعي.

ـ الأمل ارتقاء لا يكون إلّا والعمل جودة لا تفارقه.

. الأمل ارتقاء يحقّق الرِّفعة الذّوقية.

. الأمل ارتقاء يُحدث النُّقلة إلى الأجود والأنفع والأفيد.

. الأمل ارتقاء احترام إنساني.

. العمل ارتقاءً يعدُّ حُسن تدبّر ينبغي أن يقدّر.

. الأمل ارتقاء لا يكون إلّا نتاج تفكّر فيما يجب وأداؤه وفقا لما يجب.

. الأمل ارتقاء تجاوز للكسل والاتكاليَّة والطّمع.

. الأمل ارتقاء تحدّي صعاب.

. الأمل ارتقاء تجاوز للمألوف المكلف.

. الأمل ارتقاء صنع مستوى قيمي رفيع.

. الأمل ارتقاء انفتاح موضوعي واستيعاب للأفضل والأجود.

ولذا؛ فالأمل ارتقاء، السِّياسة فيه رفعة شأن، وتقدّم تجاه ما هو أفضل وأجود وأنفع، ولكنّه لا يكون إلّا ببذل الجهد وعن دراية مع سابق تخطيط وفقا للإمكانات الممكنة، ومن ثمّ فلا إمكانية للتقدّم ما لم تتوافر معطياته من بحث علمي وأخذ بالقيم الحميدة والفضائل الخيّرة مع طموح وغايات من ورائها نيل المأمولات العظيمة رفعة.

فالكلمةُ الأمل مهما عظمت إن لم تتجسّد في سلوكٍ يدفع إلى العمل المنتج تظلّ كلمة في حاجة للحياة، ولا حياة لها إلّا العمل، ولكن أيّ عمل؟ إنّه العمل رفعة وارتقاء (بناء وإصلاحا وإعمارا مع ارتقاء الأخلاق قمّة)، والعمل

ارتقاء هو إنشاء الشيء من الشيء، كما أنشأ نوح عليه السّلام سفينة النّجاة من جذوع الشّجر إبداعا، والفضائل والقيم من ورائها إنقاذًا.

ولأنَّ الأمم والشّعوب التي تقدّمت لم تتقدّم إلّا بالعمل؛ فَلِمَ لا يُقدِم المتأخّرون عنهم على العمل الممكّن من طي الهوة بينهم وبين المتقدِّمين الذين ارتقوا علما وتقنية وحُسن إدارة؟

ولأنّ الأمل ارتقاء لا يكون سياسة نافعة إلّا عملا؛ فينبغي على من يرغب ارتقاء أن يُقدِم على العمل النّافع، وينبغي له أن يجوِّد منتجاته لتكون منافسة لمنتجات الغير؛ ذلك لأنّ المنتجات غير المنافسة لن تجد لها مكانا في أسواق المستهلكين.

وهذا يعني: إن لم تُقدِم الشّعوب وبكلّ طاقاتها على العمل المنتج والمبدع فستظل متخلّفة وتابعة لمن يمتلك القوّة المنتجة، ويسيطر على السّوق، وقد تصبح مدانة بما لم تستطع تسديده، وهنا ستجد نفسها أمام خيارات قد لا تكون محمودة، ويومها لن ينفع النّادمين ندمٌ.

وعليه: إنَّ الرِّفعة تجعل المكانة لمن لم تكن لهم مكانة؛ فمن رغب مكانة ويأمل تبوءها فعليه بالعمل المنتج، ويحرّض من تربطهم به علاقة على العمل؛ لتكون المكانة فردية وجماعية؛ فالأنبياء عليهم الصّلاة والسّلام جميعهم يعملون ويحرّضون النَّاس على العمل، ويحبّون من يعمل من أجله وأجل من تربطه بهم علاقات: {وَقُلِ اعملوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ}[84].

---

[84] التوبة 105.

فهكذا هم الأنبياء عليهم الصّلاة والسّلام أرسلوا للنّاس من أجل الهداية والعمل ارتقاء؛ فكانت القيم الحميدة والفضائل الخيّرة جنبًا إلى جنبٍ مع الإصلاح والبناء والإعمار ارتقاء عبر التّاريخ، وكانت الآمال لا تفارق عقول النّاس؛ فالإنسان الأوّل الذي خُلق في الجنَّة رأى الارتقاء بأمّ عينه، بل عاش الارتقاء حياة نعيم، ولكن بأسباب المخالفة والمعصية ارتكب خطأً فأخرج به هبوطًا من الجنَّة إلى الحياة الدّنيا، والتي من بعدها أصبح واضحًا نصب عينيه أمل العودة إلى تلك الجنَّة التي ضاعت من بين يديه وهو يتحسّر، بما أقدم عليه شهوة وإرادة، حتى وإن كان بأسباب الإغواء، ولكن بعد أن استغفر ربّه، ظل يعمل من أجل العودة إلى ذلك العيش الرّغد الذي حُرم منه بما ارتكبه من فعل منهي عنه، ومع ذلك ساد الصّراع بين النّاس إلى يومنا هذا (بين من صدّق الرّسل ومن كذّبهم)؛ فمن صدّق الرّسل يأمل كما أمِلَ الإنسان الأوّل الارتقاء إلى الجنَّة التي عاشها حياة فردوس، ومن لم يصدّق فلا يرى جنّة، وهنا تكمن العلّة.

وهكذا فالإنسان لم يقف عند ما يأمله، بل تجاوزه بالعمل حتى صعد إلى القمر الذي كان يعتقد أنّه الجنَّة، ثم تجاوز القمر كونه لم يكن كذلك، فغزى الفضاء اكتشافًا، وهو في سعيه لم ييأس ارتقاء من بلوغ ما هو أعظم، ولا غاية له من وراء ذلك إلّا تحقيق الرِّفعة وبلوغ الجنَّة، إنّها رسالة الأنبياء عليهم الصّلاة والسّلام؛ فمن أخذ بها ارتقاء أخذ بما يجب الأخذ به، ومن لم يأخذ بها؛ فلن يبلغ التقدّم والارتقاء المحقّق لإشباع الحاجات المتطوّرة والمتنوّعة وبناء الحضارة التي ترتقي بصُنّاعها إلى صناعة المزيد رفعة.

ومع أنَّ الإنسان خُلق على الارتقاء خَلقا، لكنّه لم يحافظ على ارتقائه؛ فأُهبط به من علوٍّ إلى دنيا، ومع ذلك عيناه لم تفارق السّماء، بل ظلّت تبصر هناك بأمل العودة، وهذا الأمر هو الذي حفّزه على العمل، ودفعه إليه ارتقاء.

فالإنسان لو لم يكن مؤهلًا للارتقاء، ما فكّر وتدبّر حتّى تمكّن من اقتناص الفكرة التي مكنته من غزو الفضاء، وهو يأمل في المزيد ارتقاء، ولأنّ حاجات الإنسان متنوّعة ومتطوّرة؛ فهي إن لم تواكب من قِبله بالعمل المتطوّر تصبح ضاغطة عليه ألما شديدًا؛ فعليه بالعمل وتحدّي الصّعاب، ولا يخشى شيئا سوى الحقّ الذي يمكّنه من التقدّم والنّهوض وتحقيق الرِّفعة والمكانة قمّة.

ولهذا فما بلغه الإنسان من ارتقاء علمي وثقافي وحضاري يؤسّس قاعدة عريضة للمزيد المعرفي الممكّن من الإصلاح والبناء وقبول التحدّي من أجل الأفضل والأفيد والأنفع والأرقى، ومن أراد أن يرتقي إلى المأمولات العظام فلا إمكانية له إلّا بذل الجهد والعمل الذي له من الأهداف ما له، وله من الأغراض ما له، ومن وراء كلّ ذلك غايات تُبلغ ومأمولات يتمّ نيلها أو الفوز بها؛ ولهذا فالرِّفعة عملًا تُحقِّقُ:

. الارتقاء.

. تبوء المكانة.

. القدوة الحسنة.

. الاعتماد على الذّات.

. بلوغ الغايات.

ـ نيل المأمولات.

وعليه: فالأمل ارتقاء لا سقف له؛ فلا تجعل من مستوى الجودة الذي بلغته مظلة لتجلس تحت ظلّها وكأنّها الغاية، بل عليك أن تعرف أنّ الجودة درجات سُلم يتمّ الصّعود عليها، ولا يتمّ الصعود إليها؛ ذلك لأنَّ الوسيلة ليست الغاية ولا المأمول، ولأنّ السّلم وسيلة فلا تقف عنده وكأنّه المهم الذي لا شيء مهم من بعده.

فعليك بالعمل؛ فالعمل الصّالح كما يرضي القائمين به جهدًا مبذولا يرضي الله، ولكلّ جزاؤه: {فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ}[85]، أي: لكلٍّ حسابه؛ فللعمل الرّاقي حسابه، وللعمل الواطي حسابه، ولا يظلم ربُّك أحدًا.

ولأنّ العمل ارتقاءً يؤدّي إلى ما يُنقذ بني آدم من الألم، كما يؤدّي إلى ما يُغرقهم فيه؛ فهم بين هذا وذاك، بين ارتقاء فيه العمل يُتقن، ودُونيَّة بها يُهمل وينحرف به إلى ما لا يجب؛ ولذلك كان الصّدق ارتقاء في مواجهة الكذب انحدارا، وكان العدل ارتقاء في مواجهة الظلم انحدارًا، وهكذا كان الحقّ في مواجهة الباطل، والحريَّة في مواجهة الاستعباد، والديمقراطية في مواجهة الدكتاتوريَّة، والاستيعاب في مواجهة الهيمنة والإقصاء، وبين هذا وذاك يجب التحدّي بما يمكّن من الارتقاء قمّة ورفعة.

ولأنّ بني آدم بين ارتقاء ودونية؛ فهم بينهما بين ما يرسّخ قيمة الإنسان رفعة ونهضة ومكانة، وما يؤدّي إلى التخلّف والفاقة وتقليل الشأن.

---

[85] الزلزلة: 7، 8.

ولذلك؛ فالسِّياسة رفعة لا ترى العمل الصّالح إلّا ارتقاء، وفي المقابل العمل الفاسد والرّغبة الفاسدة، لا يكونان إلّا على حساب القيم الحميدة، وعلى حساب مصالح الآخرين، ورغباتهم، ومصائرهم، وما يشبع حاجاتهم المتطوّرة والمتنوّعة، ومن ثمّ؛ فالعفّة والأمانة والنّزاهة وتحمّل أعباء المسئوليّة رفعة، ستظل قيما في مواجهة تلك القيم المؤدّية بأصحابها إلى السُّفلية والدّونيَّة التي تتمركز على الأنا.

فالرِّفعة لا يمكن أن يبلغها بنو آدم إلّا عدلًا وعملًا وعفوًا وصفحًا، وكذلك الانحدار لا يمكن أن يبلغوه إلّا ظلمًا وإهمالًا وتشدّدًا وتطرّفًا؛ ولذا في دائرة الممكن المتوقّع وغير المتوقّع من شاء الارتقاء عمل من أجله ارتقاء، ومن شاء الانحدار عمل من أجله سُفليّة[86].

والحمد لله ربّ العالمين

[86] عقيل حسين عقيل، الأمل، مكتبة الخانجي، القاهرة، ص 193.

صدر للمؤلّف

صدر للمؤلّف الدكتور عقيل حسين: 92 بحثا نشرت داخل ليبيا، وخارجها.

صدر له (154) مؤلّفا منها: خمس موسوعات.

أشرف، وناقش 83 رسالة ماجستير، ودكتوراه.

. مجالات اهتمام المؤلف البحثية:

1 . الخدمة الاجتماعيَّة، والتنمية البشرية.

2 . طرق البحث الاجتماعي.

3 . الفكر والسياسة.

4 . الإسلاميَّات.

5 . الأدب

تُرجمت ونشرت له مؤلّفات باللغة الإنجليزية، والتركية.

المؤلّفات

1 . مستوى التحصيل العلمي بمرحلة التعليم المتوسط، طرابلس ليبيا، 1989م.

2 . الأصول الفلسفية لتنظيم المجتمع، منشورات جامعة طرابلس، ليبيا، 1992م.

3. فلسفة مناهج البحث العلمي، منشورات الجأ، 1995م.

4 . منهج تحليل المعلومات وتحليل المضمون، منشورات الجأ، مالطا، 1996م.

5 . سيادة البشر دراسة في تطور الفكر الاجتماعي، منشورات الجأ، مالطا، 1997م.

6 . المفاهيم العلمية دراسة في فلسفة التحليل، المؤسسة العربية للنشر وإبداع، الدار البيضاء، 1999م.

7 . البستان الحلم، دار الآفاق الجديدة، بيروت، 1999م.

8 . التصنيف القيمي للعولمة، منشورات الجأ، مالطا، 2001م.

9 . الديمقراطية في عصر العولمة (كسر القيد بالقيد)، دار الجأ، مالطا، 2001م.

10 . نشوة ذاكرة، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، 2004م.

11 . خماسي تحليل القيم، دار الكتاب المتحدة، بيروت، 2004م.

12 . منطق الحوار بين الأنا والآخر، دار الكتاب المتحدة، بيروت، 2004م.

13 . خدمة الفرد قيم وحداثة، دار الحكمة، 2006م.

14 . خدمة الجماعة رؤية قيمية معاصرة، دار الحكمة، 2006م.

15 . البرمجية القيمية لمهنة الخدمة الاجتماعيَّة، الدار الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2007م.

16 . البرمجية القيمية في طريقة تنظيم المجتمع، الدار الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2007م.

17 . البرمجية القيمية في طريقة خدمة الجماعة، الدار الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2007م.

18. الموسوعة القيمية لبرمجية الخدمة الاجتماعيَّة، الدار الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2007م.

19 . البرمجية القيمية في خدمة الفرد، الدار الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2008م.

20 . مفاهيم في استراتيجيات المعرفة، الدار الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2008م.

21 . المقدمة في أسماء الله الحسنى وأثرها في استخلاف الإنسان في الأرض، دار ابن كثير، بيروت ـ دمشق، 2009م.

22 . موسوعة أسماء الله الحسنى وأثرها في استخلاف الإنسان في الأرض، دار ابن كثير، دمشق . بيروت، 2009م.

23 . ألستم من آل البيت، دار ابن كثير، دمشق . بيروت، 2010م.

24 . مختصر موسوعة أسماء الله الحسنى وأثرها في استخلاف الإنسان في الأرض، دار ابن كثير، دمشق . بيروت، 2010م.

25 . خطوات البحث العلمي (من تحديد المشكلة إلى تفسير النتيجة)، دار ابن كثير، دمشق . بيروت، 2010م.

26 . قواعد المنهج وطرق البحث العلمي، دار ابن كثير، دمشق . بيروت، 2010م.

27 . أسماء حُسنى غير الأسماء الحسنى، دار ابن كثير، دمشق . بيروت، 2010م.

28 . آدم من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق . بيروت، 2010م.

29 . نوح من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق . بيروت، 2010م.

30 . إدريس وهود وصالح من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق . بيروت، 2010م.

31 . إبراهيم وإسحاق وإسماعيل ولوط من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق . بيروت، 2010م.

32 . شعيب من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق . بيروت، 2010م.

33 ـ يعقوب ويوسف من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق ـ بيروت، 2010م.

34 ـ داوود وسليمان من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق ـ بيروت، 2010م.

35 ـ يونس من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق ـ بيروت، 2010م.

36 ـ أيوب واليسع وذو الكفل وإلياس من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق ـ بيروت، 2010م.

37 ـ موسى من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق ـ بيروت، 2010م.

38 ـ عيسى من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق ـ بيروت، 2010م.

39 ـ محمَّد من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق ـ بيروت، 2010م.

40 ـ صفات الأنبياء من قصص القرآن، آدم ونوح، المجموعة الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2010م.

41 ـ صفات الأنبياء من قصص القرآن، ادريس ويعقوب ويوسف، المجموعة الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2010م.

42 ـ صفات الأنبياء من قصص القرآن، أيوب وذو الكفل واليسع والياس، المجموعة الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2010م.

43 ـ صفات الأنبياء من قصص القرآن، موسى وهارون وعيسى، المجموعة الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2010م.

44 . صفات الأنبياء من قصص القرآن، يونس وزكريا ويحيى، المجموعة الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2010م.

45 . صفات الأنبياء من قصص القرآن، إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ولوط، المجموعة الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2010م.

46 . صفات الأنبياء من قصص القرآن، هود وصالح وشعيب، المجموعة الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2010م.

47 . صفات الأنبياء من قصص القرآن، داوود وسليمان، المجموعة الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2010م.

48 . صفات الأنبياء من قصص القرآن، النبي محمَّد، المجموعة الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2010م.

49 . موسوعة صفات الأنبياء من قصص القرآن، المجموعة الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2010م.

50 . موسوعة الأنبياء من وحي القرآن، المجموعة الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2010م.

51 . التطرُّف من التهيّؤ إلى الحلّ، المجموعة الدولية للطباعة وانشر، القاهرة، 2011م.

52 . ألسنا أمةً وسطا، ابن كثير، دمشق . بيروت، 2011م.

53 . المنهج وطريقة تحليل المضمون، ابن كثير، دمشق . بيروت، 2011م.

54 . الإرهاب (بين قادحيه ومادحيه) المجموعة الدولية للطباعة وانشر، القاهرة، 2011م.

55 . الخوف وآفاق المستقبل، المجموعة الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2011م.

56 . سُنن التدافع، شركة الملتقى للطباعة وانشر للطباعة والنشر، بيروت: 2011م.

57 . خريف السُّلطان (الرَّحيل المتوقّع وغير المتوقّع) شركة الملتقى للطباعة وانشر، بيروت، 2011م.

58 . من قيم القرآن الكريم (قيم إقداميّة) شركة الملتقى للطباعة وانشر، بيروت، 2011م.

59 . من قيم القرآن الكريم (قيم تدبّرية) شركة الملتقى للطباعة وانشر، بيروت، 2011م.

60 . من قيم القرآن الكريم (قيم وثوقيّة) شركة الملتقى للطباعة وانشر، بيروت، 2011م.

61 . من قيم القرآن الكريم (قيم تأييدية) شركة الملتقى للطباعة وانشر، بيروت، 2011م.

62 . من قيم القرآن الكريم (قيم مناصرة) شركة الملتقى للطباعة وانشر، بيروت، 2011م.

63 ـ من قيم القرآن الكريم (قيم استبصارية) شركة الملتقى للطباعة وانشر، بيروت، 2011م.

64 ـ من قيم القرآن الكريم (قيم تحفيزية) شركة الملتقى للطباعة وانشر، بيروت، 2011م.

65 ـ من قيم القرآن الكريم (قيم وعظية) شركة الملتقى للطباعة وانشر، بيروت، 2011م.

66 ـ من قيم القرآن الكريم (قيم شواهد) شركة الملتقى للطباعة وانشر، بيروت، 2011م.

67 ـ من قيم القرآن (قيم مرجعيّة) شركة الملتقى للطباعة وانشر، بيروت، 2011م.

68 ـ من قيم القرآن الكريم (قيم تسليمية) شركة الملتقى للطباعة والنشر، بيروت، 2011م.

69 ـ من قيم القرآن الكريم (قيم تسامح)، شركة الملتقي للطباعة والنشر، بيروت، 2011م.

70 ـ من قيم القرآن الكريم (قيم تيقُّنيّة)، شركة الملتقى للطباعة والنشر، بيروت، 2011م.

71 ـ الرفض استشعار حرية، دار الملتقى، بيروت، 2011م.

72 ـ تقويض القيم (من التكميم إلى تفجّر الثورات)، شركة الملتقى، بيروت، 2011م.

73 . ربيع النّاس (من الإصلاح إلى الحلّ) المجموعة الدولية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2011م.

74 . موسوعة القيم من القرآن الكريم، شركة الملتقى للطباعة والنشر، بيروت، 2012م

75 . أسرار وحقائق من زمن القذافي، المجموعة الدولية للنشر والتوزيع، القاهرة، ودار المختار طرابلس، 2013م.

76 . وماذا بعد القذافي؟ المجموعة الدولية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2013م.

77 . ثورات الرّبيع العربي (ماذا بعد؟) المجموعة الدولية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2013م.

78 . العزل السياسي بين حرمان وهيمنة، الزّعيم للخدمات المكتبية والنشر، القاهرة، 2014م.

79 . السياسة بين خلاف واختلاف، الزّعيم للخدمات المكتبية والنشر، القاهرة، 3014.

80 . الهويّة الوطنية بين متوقّع وغير متوقّع، الزّعيم للخدمات المكتبية والنشر، القاهرة، 2014.

81 . العفو العام والمصالحة الوطنية، الزّعيم للخدمات المكتبية والنشر، القاهرة، 2014م.

82 . فوضى الحلّ، الزّعيم للخدمات المكتبية والنشر، القاهرة، 2014م.

83 . بسم الله بداية ونهاية، القاهرة، الزّعيم للخدمات المكتبية والنشر، 2015.

84 . من معجزات الكون (خَلق . نشوء . ارتقاء)، المجموعة الدولية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2016م.

85 . مقدّمة الأنبياء من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م

86 . موسوعة الأنبياء من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م

87 . آدم من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

88 . إدريس من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

89 . نوح من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م 89 .

90 . هود من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

91 . صالح من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

92 . لوط من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

93 . إبراهيم من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

94 . إسماعيل من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

95 . إسحاق من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

96 . يعقوب من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

97 . يوسف من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

98 . شعيب من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

99 . أيوب من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

100. ذو الكفل من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

101 . يونس من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

102 . موسى من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

103 . هارون من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

104 . إلياس من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

105 . اليسع من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

106 . داوود من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

107 . سليمان من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

108 . زكريا من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

109 . يحيى من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

110 عيسى من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

111 . محمّد من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

112 . الدّعاء ومفاتيحه، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة، 2017م.

113 . صُنع المستقبل، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م

114 . الفاعلون من الإرادة إلى الفعل، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م

115 . مبادئ التنمية البشرية، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م

116 . من الفِكَر إلى الفِكْر، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م

117 . التهيؤ، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م

118 . منابع الأمل، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م

119 . الأمل، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م

120 . المبادئ الرئيسة للسياسات الرّفيعة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة، 2018م.

121 . تحدّي الصعاب، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2018م.

122 . الواحدية من الخلق إلى البعث، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2018م.

123 . مبادئ تحدي الصعاب، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2018م.

124 . المعلومة الصائبة تصحح الخاطئة (من الخوف إلى الإرهاب) مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2018م.

125 . الممكن (متوقّع وغير متوقّع) مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2018م.

126 . مبادئ فكّ التأزّمات، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2018م.

127 . الأهداف المهنيّة ودور الأخصائي الاجتماعي، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2018م.

128 . تصحيحا للمفاهيم (فاحذروا)، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2018م.

129 . العدل لا وسطية ولا تطرف، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2018م.

130 . غرس الثّقة (مبدأ الخدمة الاجتماعيَّة)، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2018م.

131 ـ مفاهيم الصّلاة والتسليم على الأنبياء، مكتبة الخانجي، القاهرة، 2018م.

132 ـ الخدمة الاجتماعيَّة (قواعد ومبادئ قيميّة) مكتبة المصرية، القاهرة، 2018م.

133 – كيفيّة استطلاع الدراسات السَّابقة مكتبة المصرية، القاهرة، 2018م.

134 – الخدمة الاجتماعيَّة (تحليل المفهوم ودراسة الحالة) مكتبة المصرية، القاهرة، 2018م.

135 – الخدمة الاجتماعيَّة (مبادي واهداف قيمية) مكتبة المصرية، القاهرة، 2018م.

136 – الخدمة الاجتماعيَّة (مفاهيم مصطلحات)، مكتبة المصرية، القاهرة، 2018م.

137 – التنمية البشرية (كيف تتحدّى الصّعاب وتصنع مستقبلًا)، مكتبة القاضي، القاهرة، 2018م.

138 - مبادئ الخدمة الاجتماعيَّة (تحدّي الصّعاب وإحداث النُّقلة) مكتبة القاضي، والمصرية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2019.

139 _ الإرهاب بين خائف ومخيف، مكتبة القاضي، والمصرية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2019.

140 _ التطرُّف من الإرادة إلى الفعل، مكتبة القاضي، والمصرية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2019.

141 _ البحث العلمي (المنهج والطريقة) مكتبة القاضي، والمصرية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2019.

142 _ العدل ينسف الظلم، مكتبة القاضي، والمصرية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2020.

143 _ تقويض الإرادة، مكتبة القاضي، والمصرية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2020.

144 _ القوَّة تفكّ التأزُّمات، مكتبة القاضي، والمصرية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2020.

145 _ إحداث النُّقلة تحدٍّ، مكتبة القاضي، والمصرية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2020.

146 _ نيل المأمول قمَّة، مكتبة القاضي، والمصرية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2020.

147 _ نحو النظريَّة خلقًا، مكتبة القاضي، والمصرية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2020.

148 _ نحو النظريَّة نشوء، مكتبة القاضي، والمصرية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2020.

149 _ نحو النظريَّة ارتقاء، مكتبة القاضي، والمصرية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2020.

150 – الخلاف (في دائرة التاريخ) مكتبة القاضي، والمصرية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2020.

151- القواعد المنهجية للباحث الاجتماعي والقانوني، القاهرة: دار القاضي، 2220.

152 – قواعد البحث للعلوم الاجتماعية والإنسانية، 2020م.

153 –كسر الوهم، القاهرة: مكتبة القاضي، 2021م.

154 – المنهج العلمي وإحداث النُّقلة، المصرية للطباعة والنشر، القاهرة، 2021م.

المؤلّف في سطور

أ د. عقيل حسين عقيل

مواليد ليبيا 1953م

بكالوريوس آداب 1976م بدرجة الشّرف الأولى جامعة الفاتح (طرابلس).

ماجستير تربية وتنمية بشرية جامعة جورج واشنطن 1981م مع درجة الشّرف.

. دكتوراه في الخدمة الاجتماعيَّة.

. أستاذ بجامعة الفاتح كلية الآداب (طرابلس).

. شغل منصب أمين تعليم بلدية طرابلس (1986 . 1990).

. انتخب من قبل مؤتمر الشعب العام مفتشا عامّا لقطاع الشؤون الاجتماعيَّة، ثمّ كلّف بالتفتيش على وزارتي التعليم العام والتعليم العالي 2006م.

. شغل منصب أمين التعليم العالي (وزيرا) 2007 . 2009م.

. انتخب أمينا عاما للتنمية البشرية بأمانة مؤتمر الشّعب العام 2009م.

. صدر للمؤلّف 92 بحثا نشرت داخل ليبيا وخارجها.

. صدر له (154) مؤلّفا منها خمس موسوعات.

. أشرف وناقش 83 رسالة ماجستير ودكتوراه.

. مجالات اهتمام المؤلف البحثيَّة:

1 . الخدمة الاجتماعيَّة والتنمية البشرية.

2 . طرق البحث الاجتماعي.

3 . الفكر والسياسة.

4 . الإسلاميات.

5 . الأدب

تُرجمت ونشرت له مؤلّفات باللغة الإنجليزية والتركية.

الموقع الإلكتروني: (موقع الدكتور عقيل حسين عقيل)

أو: Dr-Aqeel.com